شارل وعبد الرحمن

رواية

جرجي زيدان

دار الهلال

روايات تاريخ الإسلام

شارل وعبد الرحمن

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. عبد المنعم تليمة

١٩٨٤

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢

* * *

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الفنان
جمال كامل

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

رقم الايداع : ٢٦٦١ / ٨٤
الترقيم الدولى: ٤ - ٨٩ - ٠ - ١١٨ - ٩٧٧

مقدمة

تضع روايات جرجى زيدان بين يدى الدارس طائفة من المشكلات التاريخية والفكرية والفنية • وهى مشكلات تجعل الدرس الادبى والنقدى بالغ الخصوبة وبالغ الصعوبة فى آن • ولقد ننتخب ثلاثا من هذه المشكلات ، نراها مقدمة على غيرها ، وصالحة كمداخل الى النظر فى أعمال زيدان الروائية وتقويمها : المشكلة الاولى أن زيدان قد ركب فى أعماله الروائية هذا المركب الصعب ، ذلك أنه قد استمد مادة رواياته من التاريخ ،وعلاقة الفن بالتاريخ مشكلة معقدة شغلت النقاد النظريين وعلماء الجمال منذ أرسطو ولا تزال تشغلهم حتى اليوم • كيف تتبدى هذه المشكلة فى عمل زيدان الروائى ؟ هذه واحدة • والمشكلة الثانية أن زيدان كتب أعماله الروائية هذه فى بدء النهضة العربية الحديثة ، ولم تكن الآداب العربية قد عرفت فن الرواية ، ولم تكن الآداب الغربية قد عرفته الا فى عصورها الحديثة وبالذات منذ أوائل القرن الثامن عشر • غير أن الآداب العربية ـ فصيحة وعامية وشعبية قد عرفت فنونا عريقة من القص والحكى فى الاخبار والنوادر والقصص والحواديت والسير والملاحم •• الخ • كذلك فقد أطلع من يلم باللغات الاجنبية من الكتاب العرب المحدثين على ألوان من الفن الروائى الغربى الذى كان قد تأصل منذ قرنين • أين جهد جرجى زيدان الروائى من هذين الرافدين ، الموروث العربى القصصى ، والفن الروائى الغربى ؟ هذه ثانية • أما المشكلة الثالثة

فمدارها موقع أعمـــال زيدان الروائيه بين البواكير الاولى من الفن الروائى العربى • ولسنا نقصد هنا أن نرد ريادة الفن الروائى الى واحد من الرواد الذين أبدعوا تلك البواكير الاولى ، فلا يمكن أن يرد تأصيل نوع أدبى فى أدب أمة من الامم الى مبدع واحد من مبدعيها، انما المراد هنا التمييـز بين أولئـك الرواد من حيث مصـادر المـادة الروائية وطرائق الاداء الفنى فى صياغة هذه المادة ، ومحاولة تبين ذلك في جهد زيدان الروائى ، وبخاصـــة فى روايته (شـــارل وعبد الرحمن) التى هى موضوع هذا التناول •

(١)

مادة التاريخ الوثيقة ، ومادة الفن الحقيقية ، فالتـاريخ جـزئى والفن كلى ، مدار التاريخ ما كان ، ومدار الفن ما كان وما يكون وما سيكون وما يمكن أن يكون ، ولذا قال أرسطو قديما ان الفن أكثر شمولا وفلسفة من التاريخ • ان (الواقع) يبدو فى واحد من هذين النشاطين بصورة مغايرة للصورة التى يبدو بها فى النشاط الآخر تبدى الوثيقة التاريخية الواقع فى صورته الظـاهرية الجـزئية المباشرة • بينما يبدو الواقع فى الفن أكثر غنى من حقيقته الواضحة لان الفن لا يقف عند الواقع فى معطياته الخارجية المبـاشرة ، انما يتخطى هذه المعطيات الى ادراك جديد لها ، فيبدو الواقع فى صورة جديدة له : صورته الفنيـة • وهذه الصـورة الفنية أكثر كمالا من (أصلها) لانها تلم ما بدا مبعثرا من عناصره ،وتوضح ما بدا غامضا من مغزاه • ان الفن وان كان مصدره الواقع ، الا أنه يتجاوز الماثل فى هذا الواقع الى اكمال ما يشوبه من نقص ، والى ما يرهص به من

جديد • بهذا يتحرر مفهوم الواقع من (المثول) ومن المباشرة الواقفة عند حد المرئى والملموس ، فينتظم الشوق الى الاكتمال ، والحلم بما لم يقع ، واستشراف مستقبل آت •

ولكن قد يكتب التاريخ بطرائق الاداء الفنى وتشكيلاته الجمالية، وقد يستمد الفن مادته من الوثائق التاريخية • الفيصل هنا طرائق الاداء ، فهى التى تجعل التاريخ فنا ، وقد تجعل الفن تاريخا • فاذا كنا بصدد (الرواية التاريخية) ، فلا ريب فى أن السير والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) قد صاغ قطعا من التاريخ الانجليزى صياغة روائية ناجحة ، جعلت من ذلك التاريخ فنا يعتد به مؤرخو الآداب عامة ومؤرخو الفن الروائى خاصة وتتعامل الرواية التاريخية مع مادة التاريخ من زوايا متعددة : منها الالتزام بوقائع التاريخ وأبطال هذه الوقائع التزاما أمينا مع التصرف فى خلق حوادث وشخوص بحيث لا يؤثر هذا الخلق على تلك الحقائق الوثائقية والابطال التاريخيين • ومنها اتخاذ المادة التاريخية (الوثائقية) أساسا لخلق (تاريخ) مواز متخيل يخلع عليه الكاتب أشواقه ومثله العليا • هذه كلها غايات يسعى كتاب الرواية التاريخية الى تحقيقها فى أعمالهم • ولكن الغاية الاصعب هى أن يتغيا كاتب الرواية التاريخية غاية أخلاقية تعليمية مباشرة ومن الملاحظ أن مثل هذه الغاية تغلب فى فترات النهوض القومى ، لان هذا النهوض يطلب احياء لحظات الازدهار فى تاريخ الجماعة ، وما يتصل بهذه اللحظات من قيم ومثل • الخ • ولا ريب فى أن هذه الغاية التربوية المباشرة تعد عقبة اضافية تتحدى كاتب الرواية التاريخية • فاذا قيل أن معالجة المادة التاريخية معالجة فنية هى بذاتها تحد صعب ،

فان صعوبتها تبلغ غايتها اذا أضيف الى هذه المعالجة الفنيـة غاية اخلاقية تربوية •

ولقد نشط جرجي زيدان في فجر النهضة العربية الحديثة ، ولم يكن بعيدا عن غاياتها التربوية والاخلاقية العامة ، ولذلك صدر عن تصور للرواية التاريخية يجعل للمادة التاريخية الاهمية والاولوية ويستخلص من هذه المادة مغازيها التوجيهية والتعليمية ، ويتخذ من السرد الروائي وسيلة الى تلك الغايات • وهو نفسه يقـرر هـذا التصور بوضوح ، وسنرى أن عمله الروائي الذى بين أيدينا يفصح عن هذا التصور فعلا • يقول في تصديره لاحدى رواياته ـ (رواية : الحجاج بن يوسف) ـ انه قد رأى أن نشر التاريخ على أسـلوب الرواية أفضل لترغيب النـاس في مطالعته والاسـتزادة منه ، وخصوصا اذا توخى الكاتب جهده أن يكون التـاريخ حاكمـا على الرواية وليست الرواية حاكما على التـاريخ • وهـذا نهج غير ما اصطنعه بعض الكتاب الغربيين الذين جعلوا غرضهم الفن وانما أتوا بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة فجرهم ذلك الى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القـراء • وأما نحن ـ الكلام لا يزال لزيدان ـ فالعمدة في روايتنا على التـاريخ ، وانما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطـالعين فتبقى الحـوادث التاريخية على حالها ، وندمج في مجالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص ، الا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصـف ، مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيد بيـانا ووضوحا ، بما يتخللها من وصـف عادات العصر وأخـلاق أهلـه

وعاداتهم ، حتى يخيل للقراء أنه عاصر أبطـال الرواية وعاشرهم وشهد مجالسهم ومواكبهم واحتفالاتهم شأن المصـور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سـطرا أو سـطرين ، فيشتغل هو في تصويرها عاما أو عامين • واضـح اذن أن خطة زيدان في أعماله الروائية هي أن يرغب الناس في مطالعة تاريخهم، وما دام الامر كذلك فلابد أن تبقى الحوادث التاريخية على حالها ، ويصطنع هو قصة حب تشد القارىء الى تلك المادة التاريخية •

ويمكن أن تتضمن هذه الخطة جورا على الفن لصـالح التاريخ ، ويصح هذا الحكم أو لا يصح في ضوء الدرس المتمهل لجهد زيدان الروائي • ولكن قبل ذلك لابد من تناول المشكلة الثـانية التي صدرنا بها هذا الحـديث ، ومدارها على صلة البواكير الاولى من الرواية العربية ـ من بينها أعمال جرجي زيدان ـ بالموروث العربي القديم من ناحية وبالفن الروائي الغربي الحديث من ناحية ثانية •

(٢)

يرد الدارسون نشوء الرواية العربية الى نشوء طبقات وسطى عربية منذ بدايات هذه النهضة الحديثة ، ويردون التشكيل الجمالي للرواية العربية في فترة نشوئها الى المزاوجة بين تقـاليد القص العربي الموروث ـ فصيحا وعاميا ـ وأنماط الفن الروائي الغربي • ويكاد بعض هؤلاء الدارسين يرى أن الرواية العربية في تطـورها انما تبتعد عن الموروثات الفنية القومية لتقترب من الانماط الروائية الغربية • وينكر واقع الرواية العالمية المعـاصرة هذا الرأى الاخير ، لان الفن الروائي ـ في بيئاته المتقدمة في العالم ـ يشـهد التفاتا ملموسا الى الموروث من السير والملاحم لانضاج تقاليد روائية جديدة

وهنا لابد من الالتفات الى الموروثات العربية في هذه الالوان القصصية ولدى العرب منها ذخيرة هائلة . ولا يقف الامر في تقديرنا عند هذه الموروثات القصصية بل انه ليمتد ليشمل مناهج وطرائق في القص تنتظمها حول تراثية أخرى من أبرزها كتابات المؤرخين والرحالة .. الخ . ان التأثر بالانماط الروائية الغربية لاشك فيه ، انما المشكل هو صحة صلة الروائي العربي بالتراث القومي ، فعلى أساس هذه الصلة تنهض الرواية العربية . وهنا - في التراث القومي - نشير الى أمرين :

أولهما : طرائق القص وأساليبه في الموروثات الفصيحة من أخبار ونوادر وقصص وحكايات ورسائل ومقامات .. الخ .- والموروثات الشعبية الهائلة التى أبدعها الشعب ، ودون بعضها ، ولا يزال بعضها يتناقل شفويا ، من قصص شعبى وحواديت وسير وملاحم .. الخ .

وثانيهما : طرائق القص وأساليبه في كتابات المؤرخين والرحالة وهنا باب واسع لم يحظ بالدرس الدقيق بعد . فلقد شهدت الحضارة العربية علما تاريخيا أصيلا هو (علم الرجال) - أى سيرهم - وقد اتسع هذا العلم أتساعا عظيما حتى صار مصدرا أساسيا من مصادر المعرفة والعلم في التاريخ العربي ، وهو في تطوره يفصح - بصورة ما - عن ايمان بدور الفرد وفعاليته في التاريخ . أما التأليف التاريخي الشامل عند العرب فقد سطع فيه محتويان : المحتوى الثقافي ، اذ لم يعد الحدث التاريخي مجردا مرتبطا بالزمان وحده، وانما أصبح مرتبطا بالزمان والمكان متداخلين متجادلين . ومعني دخول المكان في التأليف التاريخي هو دخول البيئة بكل عواملها الطبيعية وأحوالها المعيشية وأوضاعها السياسية

والفكرية والعلمية والفنية • ومعنى كل هذا أن التأليف التاريخي امتزج بقوة بتقويم البلدان والجغرافية والمشاهدات العيانية • لهذا برز في التأليف التاريخي الجغرافيـــون والرحالة • والمحتـــوى الاجتماعي اذ ظهر – في العصور الوسيطة الاسلامية – مؤرخـون اتخذوا وجهة جديدة في التأليف التاريخي هي الوجهة الاجتمـاعية ونعني بالوجهة الاجتماعية أن المؤرخ ينظر الى التاريخ باعتباره ناتج فعل الجماعة البشرية ويرد الحدث التـاريخي الى عـوامل يفسرها واقع الجماعة (عمران ، خراب ، حضارة ، بداوة ، غنى ، فقر ••) كما يساعد على تفسيرها طبيعة النشاط الاقتصادي للجماعة (صيد، رعى ، زراعة ، تجارة ••) ، وكذلك يساعد على تفســيرها علاقات هذه الجماعة أو نظامها السياسي (حكم قهري ، حـكم عـادل •) وقد بلغ هذا التأليف التاريخي ذو المحتوى الاجتماعي عند مؤرخي العرب درجة رفيعة وصلت الى غايتها بصياغة (فلسـفة للتاريخ) تنهض على العوامل الاجتماعية الفعالة في حركة التاريخ البشري •

ان كل هذا يضع بين يدى الروائي العربي تصـــورات جماعته للزمن وتطور المجتمع وفعالية الانسان ، كما يضع بين يديه نهجج جماعته في الحكي والقص وما يتبعهما من أبنية وتشكيلات جمالية وتقاليد فنية • وعلى الدرس النقدي أن يكشف في الاعمال الروائية العربية عن كل هذه التصورات والابنية والتشكيلات والتقـاليد • وعلينا نحن – في هذا المقام – أن نرى عمل جرجي زيدان (شارل وعبد الرحمن) في هذه الاضواء •

(٣)

يلتزم جرجي زيدان في هذه الرواية (شـــارل وعبد الرحمن) خطته التي قررها فيما سلف ونص على أنها خطة اساسية لكل اعماله

الروائية التاريخية • لقد نص على أنه في كل عمل من تلك الاعمال يخلق موازاة بين مسارين ، مسار الوقائع التاريخية كما وقعت في التاريخ فعلا . ومسار قصـــة حب متخيلة تتداخل وتلك الوقائع التاريخية • ويمكن للدارس أن يلمح بناء الرواية من متابعة تلك الموازاة :

(أ) يقيم الروائي بناء الوقائع التاريخية على حوادث سنتين تمثلان لحظة من اللحظات الفريدة ليس في التاريخ الاســـلامي فحسب ، بل ربما في التاريخ البشرى عامة • لقد أعد العـرب المسلمون والفرنجة المسيحيون عدتهم بين سنتي ٧٣٠ ، ٧٣٢ م لواحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ وهي معركة تور أو بواتييه (بلاط الشهداء) • ولقد هزم العرب في هذه الموقعة ، وتوقفوا عن التقدم في أوربا ، فكان هذا حدثا من الاحداث الكبرى في التاريخ•

يمهد زيدان لهاتين السنتين الخطيرتين بتمهيد سريع موفق يعرض فيه للسنوات العشرين الســـابقة ، أى منذ بداية فتح العـرب للاندلس ، فيذكر عبور طارق بن زياد ســـنة ٧١١ الى اسبانيا وهزيمة فردريك آخر ملوك القوط الغربيين • ويذكر عبور موسى بن نصير سنة ٧١٢ وانضمامه الى وليه طارق بن زياد ليكملا الفتح، غير أن المؤامرات والدسائس تودى بحياة الفـاتحين العظيمين ، بل وتودى بحياة عبد العزيز ولد موسى بن نصـير الذى ولاه أبوه على البلاد المفتوحة فقتل بايعاز من الخليفة سليمان بن عبد الملك • وكل ذلك لا يستغرق من عمل زيدان سوى صفحات قليلة ينتقل منها الى خطته في بناء عمله ، فيدير هذا العمل كله على اعـداد الفـريقين للمواجهة الكبرى : أما شأن الاوربيين المسيحيين وقائدهم شـارل مارتل (٦٨٨ ـ ٧٤١ م) فيسير ، ذلك أن هذا الشأن لم يكن فعلا

وانما كان رد فعل لتقدم القوة التاريخية الجديدة ، وهي قوة العرب والمسلمين الفاتحين . كان رد الفعل يسيرا وان كلل بهذا الانتصار التاريخي المدوى . فعندما بدت جسامة التقدم العربى تقدم أمـراء الافرنج الى قارله (شارل مارتل) رئيس البلاط الميروفنجي وصدروه قائدا ، فوجد كافة ممالكهم تحت امرته وتقدم بجنده وفرسـانه لينهض بدور دونه التاريخ الاوربى ،أما عبد الرحمن الغافقى فكان صوت القوة التاريخية الفتية وأداتها القائدة . انه ليس بطل هذا العمل الروائى فقط وانما هو بطل تلك اللحظات التاريخية الفاصلة، وان انتهى أمره بالقتل فى تلك المعركة الكبرى . يقـوم العمـل الروائى كله ـ من جهة المادة التاريخية ـ على السـنتين اللتين تولى فيهما عبد الرحمن الغـافقي الإمر : تولى الامر قبله ـ بعد طارق ابن زياد وموسى بن نصير وولده عبد العزيز ـ أمراء قادوا جندهم الى فتوحات جديدة لكنها ضاعت لسوء خطط هؤلاء فى ادارة تلك الفتوحات وسياسة أمورها . واستفاد عبد الرحمن من فشل أسلافه الاقربين ، ووضع خطة طامحة للفتح ، ووضع سياسة راشدة لادارة الامور ، كان من خطته أن يواصل الفتح فى أوربا (ليعم الاسـلام كل العالم) فيبدأ ـ بعد اسبانيا (الاندلس) ـ بفرنسـا ويثنى بألمانيا فالمملكة الرومانية حتى ينتهى الى الشام مقر الخلافة الاموية وكان من سياسته الراشدة أن يتعرف على البلاد بنفسه ليلم بأحوالها والطرائق الصالحة لادارتها ، وكان حـازما فى تولية الامـراء على الاقاليم وفى محاسبتهم ومطالبتهم بالعدل والرفق بأهـل الذمة . واستنفر طاقات الجهاد فى العرب والمسلمين فالتف حوله الجند من كافة الامصار ، فاتخذ سبيلا الى تنظيمهم وتنصيب القادة الصالحين عليهم ، وتوجيه الجميع الى وجهة الجهاد ليصير البحر المتوسـط بحرا اسلاميا خالصا .وعندما تنتهى الرواية بتلك المواجهة الفاصلة

يظل القارىء مشدودا الى بطولة عبد الرحمن ، على الرغم من انتهاء الصراع لصالح عدوه •

(ب) ويقيم الروائى بناء قصة الحب على أســـاس تلك الوقائع التاريخية : فلقد وقع هانىء ، وهو قائد فرســـان عبد الرحمن وساعده الايمن ، على ضالته فى فتاة (مريم) من ســـبايا احدى المعارك ، لم ير الراؤون أجمل منها ، وكانت تصحبها امرأة (سالمة) فى نحو الاربعين من عمرها ، والهيبة والجـلال ظاهـران عليهما • كانت الام وابنتها سبيتين من الافرنج ، ولكنهما تتحدثان العربية وتدركان شئون الصراع ، وتنحازان الى الصف العـــربى • وأحب هانىء فتاته التى بادلته حبــا بحب • ولكن الامور لا تســـتقيم للعاشقين دائما • فهنـــاك قائد آخـر فى جيش عبد الرحمن وهو بسطام البربرى ، وكان هو ـ فى وقعة بوردو ـ الذى هجم بنفسه على المنزل الذى كانت فيه سالمة ومريم وقبض عليهما وارسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر فى جملة الغنائم على أمل أنه ـ متى عرضت السبايا للبيع ـ سيطلب الفتاة لنفسه وهو لا يتوقع أن يكـون له مزاحم أو معارض فى ذلك • لكن العقبة الكبرى فى طريق هـــذا الحب انما تأتى من جهة أخرى • فقد مال عبـد الرحمن الى مـريم ، وقالت له أمها ان ابنتها موهـوبة لرجـل عظيم (يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف ، ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل) ولما ربطت الام بين هذا الزواج واجتياز نهـر لوار ، ثار فى نفس عبد الرحمن أمل الانتصار العسكرى والفوز بمريم فى وقت معا • لكن القــائد الكبير كان يحب أركان حربه (هانىء) فأبدى تفهما وسعة صدر • لكن يبرز دور (ميمونة) دسيسة العدو فى صفوف العرب • لقد عملت على افساد الامر بين القائدين ليقينها أن الانتصار العربى انما يتم بصحة العلاقة بينهما•والرواية متخمة بوسائل هذه الجاسوسة

لايقاع الفتنة بين الرجلين • لكن الامر ينتهى نهايته السـعيدة التى تجمع بين هانىء ومريم بعد مفاجأة تكشف أن (مريم) من أب هو أمير عربى كبير ، وأم هى ملكة سابقة للاسـبان ، فهى عريقة فى الحسب والنسب •

ولا ريب فى أن نصيب الرواية من التوفيق الفنى انما يتـوقف هنا الى حد كبير على قدرة الكاتب على أن يتداخل البناءان السابقان ـ الوقائع التاريخية وقصة الحب ـ فى بناء فنى واحد • وهـذا حديث الفقرة التالية •

(٤)

يلتحم البناءان ، التاريخى والعاطفى ، فى بناء روائى واحد عندما يتبدى أبطال الوقائع التاريخية هم بذاتهم أبطال القصة العاطفية:ان سالة هى (أجيلا) زوجة رودريك ملك الاسبان الذى قتله العرب فى موقعة فحص شريش • وفى ظل موسى بن نصير عاشت أجيلا ـ وقد سميت أم عاصم ـ فى هناء ورغد • فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى ،فرأى عبد العزيز أم عاصم فأحبها وأحبته ، وتزوجهـا على أن تبقى على النصرانية ، ولكن الحساد وشوا بعبد العزيز لدى الخليفة فى دمشـق ، فلم يستقدمه اليه كما فعل بأبيه ، وانما دس عليه من قتله حيث هو • وقد ولدت أم عاصم من زوجها عبد العزيز هذه الفتاة مريم • وقبل مقتله ترك وصية تخص ابنته هذه ، يطلب الى زوجته فيها : (فاذا رأيت قائدا عربيا نهض للفتح ، وقد أدرك العوامل المسـاعدة على ذلك ، فان هذه الفتاة تكون زوجة له أو ابنة كما يشاء) ، وفى هذا القول الاخير حيلة روائية لحل التناقض بين القائدين عبد الرحمن

وهانىء ، وبهذا يتطابق البناءان ، ولهذا التطابق شواهده الجمة فى كل الانتقالات الاساسية فى الرواية •

ويخل بتماسك هذا البناء النزوع التعليمى الغلاب • فالكاتب لا يفلت مناسبة دون أن يبسط ما يتناوله بسطا تفصـيليا ينسى السياق الروائى الاصلى ويخرج عليه • فالعشاق ـ فى حديثه عن الحب « ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذى يملأ القلبين، وعاشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الازهار أو عقدا من الجوهر ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمـع له فيما وراء ذلك ، وذنب العشاق وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها •• » وقد يأتى هذا البسط عاما دارجا (•• والحب لا يكون صحيحا الا اذا كان بـين اثنين ليس لهما ثالث) • بل قد يتوهم الكاتب ان هذا العام الدارج يمكن ان يكون حكمة صالحة ، وشواهد هذا ليست قليلة •

ويلحق بهذا ثبات النظرة الى الكليات الاسـاسية فى الحيـاة البشرية ، كالتاريخ والحب والخير والشر والقوة والضعف •• الخ وينسحب هذا الثبات على الانسان فنرى الخير خيرا فى كل مواقفه ونرى الشرير هكذا فى كل حالاته ، فان هذا الثبات يجعل الحركة وفاعلها مفارقين للزمان والمكان ، ويجعل الزمان والمكان غير خاضعين لنواميس التغير والتطور •

ولكن الذى لاشك فيه أن قارىء هذه الرواية يقع على اتصـالها اتصالا طيبا بتلك الموروثات التى أشرنا اليها ،وبذلك الفن الروائى الغربى الحديث ، مما يجعل جهد جرجى زيدان الروائى تمهيـدا ضروريا للرواية العربية الحديثة •

تقديم : عبد المنعم تليمة

شارل وعبد الرحمن

رواية تاريخية تشرح فتوح العرب فى بلاد
فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة
شارل مارتل ، وأسباب فشل العرب فى أوربا

تاليف

جرجى زيدان

دار الهلال

ابطال الرواية

* **عبد الرحمن** : قائد الجيوش الاسلامية
* **هانيء** : قائد الفرسان
* **شارل (قارله)** : قائد جيوش الافرنج وحاكم أوستراسيا
* **بسطام** : قائد البربر
* **مريم** : حبيبة هانيء وابنة عبد العزيز بن موسى
* **سالة (اجيلا)** : والدة مريم ، زوجة رودريك ملك الاسبان
* **لمباجة** : بنت الدوق أود وزوجة القائد البربرى
* **أود** : حاكم اكتانيا ووالد لمباجة

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* ابن الاثير
* جبن
* ابو الفداء
* رومى
* رينو
* دوزى
* المقرى
* مختصر الدول
* فيسفوروس
* نفح الطيب
* نهاية الارب فى قبائل العرب
* رينو ورومى
* البيان والتبيين للجاحظ

فتوح العرب فى بلاد الافرنج

فتح المسلمون اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٨١١ م) بقيادة طارق ابن زياد البربرى ، كما بيّنا ذلك فى رواية « فتح الأندلس » . وكان طارق من موالى موسى بن نصير عامل بنى أميّة على افريقية ، أى من أتباعه ، وموسى يومئذ شيخ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الأندلس أصبحت من توابع تلك الولاية أو فرعا من فروعها. وعامل افريقية يقيم فى القيروان ، وهو الذى يولّى عمال الأندلس . وما زال ذلك شأن الأندلس حتى استقلت على عهد الدولة الأموية الأندلسية بعد ظهور العباسيين فى المشرق

فلما تهيّأت أسباب الفتح لموسى وهو فى افريقية ، استشار الخليفة فى ذلك .. فوافقه ، وحذره ، فلم يشأ موسى أن يفرط فى جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنسبة الى أهل البلاد الأصليين فى معظم البلاد التى فتحوها ، وخصوصا فى افريقية ، فأنفذ فى تلك المهمة حملة أكثرها من البربر : سكان افريقية الأصليين ، وقائدهم مولاه طارق . فلمّا حدثت الوقعة بين طارق ورودريك فى فحص شريش وقتل رودريك سنة ٩٢ هـ ، أصبح فتح الأندلس أمرا مقضيا . ولم تمض سنة حتى فتحت قرطبة

ومالقـة وطليـطلة وغيرها من مدن الأندلس العظمى وتأيدت شوكة المسلمين هناك ..

فلما بلغ خبر ذلك النصر السريع الى موسى تمنى أن تكون له يد فيه ، فكتب الى طارق أن يتوقف ريثما يأتيه هو . وجنّد جندا آخر من العرب والبربر وقدم الى اسبانيا من جهة أخرى ، ففتح مريدة وسرقوسة وغيرهما . ولما رأى سهولة الفتح عليه أوغل فى اسبانيا حتى تجاوز جبال البيرينه الى فرنسا فغزا بلادا منها الى نربونة وقد عزم على مواصلة الفتح فى بلاد أوربا حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية (١) فيتم له فتح العالم المعمور يومئذ ، ولم يكن باقيا منه الى ذلك الحين غير أوربا وكانت فى غاية الاضطراب والانقسام ..

وفى أثنـاء تلك الحروب شب خلاف بين موسى وطـارق ، واستفحل أمره فاضطر الخليفة فى دمشق الى اسـتدعائهما اليه للنظر فى أمرهما فشخصا الى الشام ، وولّى موسى على اسبانيا ابنة عبد العزيز فجعل عاصمته اشبيلية .. ثم أتى هو الى دمشق ومعه من الغنـائم والسبايا ما لايحصى ، وجاء طـارق أيضا (سنة ٩٤ هـ) . وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد . وفى أثناء المحاكمة توفى الوليـد فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ . وكانت بينه وبين موسى ضغائن ، فشدد النكير عليه وعلى أولاده ، فأوعز الى بعض الأمراء فى الأندلس أن يقتلوا

---

(١) المقرى ــ الجزء الاول

عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنّطا الى دمشق . وكان موسى فى السجن ، فاستقدمه سليمان وأراه رأس ابنه وسأله : هل يعرفه ، فدعا موسى على قاتله وصدمه ذلك المنظر .. فمات بعد قليل . ولا ندرى ماذا انتهى اليه أمر طارق ..

ذهب موسى وطارق ، ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربا ، فكانوا يترقبون الفرص ويحول دون تحقيق هدفهم ما نشب من الخصام بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر ، فأنفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ ، حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصرها . وطال حصارها حتى توفى سليمان ، وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ، فسحب الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق.. فعادوا الى السعى اليه بطريق الأندلس

وتوالى على الأندلس عدة أمراء فتحوا مدنا كثيرة من جنوبى فرنسا ، لم تثبت أقدامهم الا فى قليل منها . ثم أفضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) وكان رجلا حازما تقيا محترما غيورا على الاسلام والمسلمين ، فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح أوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فألمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام .. وكانت عاصمة الأندلس يومئذ قد انتقلت الى قرطبة ، فأخذ عبد الرحمن فى اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج ؛ وكانوا يسمونها يومئذ الأرض الكبرى . وكان عبد الرحمن حذرا ، فخشى أن يخفق فى مهمته كما أخفق

أسلافه ، وكان قد عرف علّة اخفاقهم فعمد الى تلافيها .. فطاف بأسبانيا بنفسه ، وتعهد حكامها ، فعزل الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها وأبدلهم برجال ذوى دراية وحلم ، ليحسنوا سياسة الناس من أهل الذمة ، وأنصف هؤلاء فردّ اليهم ما كان قد اغتصبه أسلافه من كنائسهم وأملاكهم (١) ، وأعادهم الى ما كانوا عليه فى زمن موسى بن نصير لعلمه انه لا يفوز فى مهمته الا اذا أحسن سياسة الرعية وعاملهم بالحق والرفق ، والا فانهم يكونون عونا عليه . وكان عبد الرحمن وهو فى ذلك الطواف يخطب المسلمين فى المساجد ، ويحرضهم على الجهاد فى سبيل الله لفتح غاليا وما وراءها حتى يعم الاسلام كل العالم (٢)

***

وكان لكلامه تأثير عظيم فى المسلمين العرب وغيرهم ، فتقاطروا من افريقيـة ومصر والشـام والحجاز واليمن ، وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب ، وقد تدافعوا الى الجهاد فى سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن ، وهم انما وثقوا به لما اشتهر من حزمه وكرم أخلاقه وعدله وصدق اسلامه ، وتألفوا حوله فرقا باعتبـار قبـائلهم وأجناسهم وهو أميرهم الأكبر

(١) دينو ــ عن ايزيدور الباجى
(٢) دوسى ــ الجزء الثالث

— ٢ —

فتح بوردو

وكانت فرنسا فى ذلك الحين تسمى بلاد الغال أو غاليا ، وكانت الدولة الرومانية قد تقلّص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون ميروفنجيان ، أول ملوكها كلوفس Clovis حكمها سنة ٤٨١ م . وتتابع الحكم فى أولاده الى أوائل القرن الثامن ، وقد ضعف أمرهم وانقسمت مملكتهم وأفضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن كل الدول فى دور تدهورها . وكان وزير الملك فى ذلك الحين رجلا من الافرنج اسمه شارل ، وكانت غاليا تنقسم الى مقاطعات : كانوا يسمون الجنوبية منها سبتمانيا وعاصمتها نربونة ، وكانت قد دخلت فى حوزة المسلمين.. يليها من الشمال اكيتانيا وعاصمتها طولوزة ، وهى مقاطعة كبيرة حاكمها أمير افرنجى اسمه أود وحدودها من الشمال نهر اللوار ، ومن الشرق نهر الرون ، ومن الجنوب جبال البرينة ، ومن الغرب الاوقيانوس . ويلى اكيتانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها اوستراسيا ، وحاكمها شارل المذكور ، فضلا عن أقسام أخرى . وكان كل دوق أو حاكم يريد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه . وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمورهم أو جاءه البشير بذلك ، فعزم على فتح بلادهم

فأمر عبد الرحمن بالرحيل للجهاد ، وقد بلغه — وهو فى الطريق

ـــ ان قائدا من قادة المسلمين على الحدود الشرقية فى جبـــال البرينة يخالف ذلك الرأى . وكان الأمير المذكور قائدا بربريا يسمى المنيذر (١) ، وكان شجاعا باسلا ، غير انه كان يأبى الاتحاد مع العرب ، وينظر الى أمرائهم نظرة الحسد ، مثله فى ذلك مثل أكثر قواد البربر . وكان المنيذر قد عقــد عهدا مع أود دوق اكيتانيا ، فزوّجه أود ابنة له جميلة اسمها لمباجة (٢) . فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة أوجس خيفة من المنيذر ، فبدأ به فبغته فى امارته وقتله واســتولى على أمواله ونســائه ، وأمر بارسال لمباجة الى الخليفة فى الشام ..

فلما اطمأن عبد الرحمن من ناحيــة المنيذر ، وأَمِن على الأندلس ، توجــه برجاله وقواده الى بلاد الافرنج فاخترقهــا شمالا ، وجنــده يفتحون البلاد ويجمعون الغنــائم وليس من يصدهم.. وقد استولى الرعب على الافرنج وخافوا على بلادهم ، و «أود» لايقوى عليهم ، حتى وصلوا الى مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف ، وقبضوا على الكونت حاكمها وهم يحسبونه « أود » نفسه .. فقطعوا رأســه ليرســلوه الى الخليفة فى الشام على ما جرت عليه العادة فى أيامهم

وبوردو كان اسمها يومئذ بورديغاليا ، وهى واقعة عند نهر غارون على ضفته اليسرى .. وكانت من المدن الحصينة ، يحيط

---

(١) سماه ايزيدور Nuruza وظنه رومى المؤرخ « ابو نسعة » وهو عثمـــان اللخمى . وعندنا انها تحريف المنيذر لاناافريقى ، واما ابو نسعة فانه لخمى أى من العرب

(٢) رينو

بها سور مربع الشكل عليه الأبراج العالية . وكان الرومانيون يعدونها من أكثر مدن غاليا علما وأدبا ، وفيها « امفيتيــاتر » رومانى عظيم كانوا يسمونه « امفيتياتر غاليوس » وكنيســة كبرى اسمها كنيسة الصليب ، ولا تزال آثار هــذين البناءين باقية الى اليوم ..

فلمــا جاء المسلمون خيموا فى ظاهرها ، ثم فتحوها عنــوة وأمعنوا فيها نهبا وسلبا .. فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والأسرى والسبايا الى ساحة كبيرة أمام المعسكر ، فأمر عبد الرحمن أميرا من أمرائه اسمه هانىء ، كان قائدا لفرقة الفرسان ــ وهى أهم فرق الجند عندهم ــ لأن مهارة العرب فى الفروسية كانت من جملة ما ساعدهم على الفتح وخصوصا فى بلاد الافرنج

وكان هانىء شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، اشتهر فى معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش .. وقد شب على ظهور الخيل ، وكان اذا ركب لا يبالى من يلاقى ولو كانوا مئات . وكان عبد الرحمن يحبه حبا شديدا ، ويقدمه على سائر القواد على حداثة سنه ، ومع انه ليس من قبيلته .. لأن عبد الرحمن من قبيلة بنى غافق وهى من القبائل اليمنيــة [1] وهانىء من قيس وهى من قبائل الحجاز .. وكان التنافر متمكنا يومئذ بين اليمنية والقيسية ، فلم يبال عبد الرحمن بذلك . وكان هانىء من الجهة الأخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراما

(١) نهاية الارب فى قبائل العــرب

شديدا لكرم أخلاقه وسعة صدره ، وكانا قد تحالفا سرا على الاتحاد الوثيق فى أثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها ، لعلمهما أن الذين حاولوا فتح أوربا قبلهما انما كان سبب فشلهم الانقسام .. فكان عبد الرحمن ـ لثقته بهانىء ـ يعهد اليه بكل ما يحتاج الى الثقة وحسن الظن ، ومن هذا القبيل اعتماده عليه بعد فتح بوردو فى تقسيم الغنائم وتدبير أمر الأسرى

وكانوا يومئذ فى أوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . وضواحى بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت أعنابها ، وكان هانىء قد أبلى فى ذلك الفتح بلاء حسنا حتى بهر الناس . ولم يتحول عن جواده طول ذلك اليوم ، وهو يجول مقبلا مدبرا .. يحرض رجاله ويستحث القواد على الثبات والصبر ، ولم يكن بين أمراء ذلك الجند من لايحب هانئا ويعجب ببسالته واقدامه الا من حسده لتقربه من الأمير الكبير مع صغر سنه ، لكن حساده لم يجدوا سبيلا الى أذاه لشدة محبة عبد الرحمن له .

وكان هانىء طويل القامة عريض الصدر ، اذا مشى عرفه الناس لطوله وعرض كتفيه ، واذا أقبل اليك توسمت مناقبه مصورة فى محياه ، فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح بارز الحاجبين والوجنتين ، حاد العينين ، صغير الأنف والفم ، بارز الذقن ، خفيف العارضين ، أسود الشعر ، لا ينفك وجهه باسما مع وقار . وركب فى ذلك اليوم على جواد أدهم ، لا يحب الركوب على سواه لخفة حركته وجمال مشيته وصبره فى ساحة

الوغى ؛ وقد توسم فيه الخير لأنه لم يركبه فى قتال الا عاد منصورا . ولم يكن فى معسكر عبد الرحمن من لا يعرف تعلق هانىء بجواده حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا ، والحقيقة انه كان يهتم اهتماما بالغا بمراعاة ذلك الجواد واتقان عدته ، حتى ألبسه لجاما مذهبا وسلسلة وركابين من فضة ، وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها فى بعض غزواته فى غاليا .. فصاغها فى شكل نجمة وعلقها هناك . وكان الجواد شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه أتاه صاغرا ، واذا استحثه فى ساحة الوغى أسرع حتى تظنه طائرا .. فاذا استوقفه أذعن له ووقف بغتة

— ٣ —

الغنائم والسبايا

فأقبل هانىء فى أصيل ذلك اليوم على جواده كأنه جبل يسعى ، وقد تعمَّم بعمامة حمراء وتزمل بعباءة حمراء ، وتقلّد حساما وقد نقش اسمه على نصاله ورصَّع قبضته بالحجارة الكريمة ، وأمر بعض رجاله أن يفرزوا الغنائم ، كل صنف منها على حدة : فجعلوا الأسرى فى جانب ، والسَّبايا من النساء والأطفال فى جانب ، والغنائم من الأسلحة والآنية والأموال والمجوهرات فى جانب . واستدعى هانىء أمراء الجند ، وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من أهل افريقية . وهؤلاء كثيرون ،

لأن العرب كانوا يعتمدون عليهم فى حروبهم فى الأندلس وفرنسا وكان هؤلاء أهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد فى نصرة الاسلام ، لما كان من امتهان العرب يومئذ لغير العرب ولو كانوا مسلمين (١) . فكان البربر يصحبون العرب فى حروبهم رغبة فى الغنيمة أكثر من رغبتهم فى نصرة الاســلام . على أن بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب فى الجهاد ، وما هم من الاسلام على شيء ، أو ربما تظاهروا به وهم يهود أو وثنيون . ويقال نحو ذلك فى سائر فِرق الجند غير العرب ، فقــد كان فى جملة رجال هذه الحملة أناس من الأسرى أو العبيــد اشتراهم العرب وربوهم فى حجر الاسلام ، وهم فى الأصل من الصقالبة (السلاف) أو من الافرنج أو الروم أو غيرهم (٢)

فلما اجتمع القواد على خيولهم بين يدى هانيء ، أمر بالغنائم من الآنية والأموال فجيء بها ، فأمر بالخمس ــ وهو حق بيت المال ــ فنحّوه جانبا ، ووزع ما بقى على الأمراء كل بنســبة عدد رجاله . وكان اذا رأى اختلافا بينهم على قسمة ، بذل من نصيبه وأنصبة رجاله فى سبيل التوفيق ..

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الىجهة الأسرى وكانوا عديدين ، وقد شدوا بعضهم الى بعض بالحبال أو السلاســل وساقوهم سوق الأغنام ، وجاءوا بهم حتى أوقفوهم بين يدى هانيء ، فالتفت هانيء الى القواد وقال لهم : « انهؤلاء الأسرى

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ــ الجزء الثانى (٢) دوزى ــ الجزء الثالث

من جملة الغنائم ولا يمكن اقتسامهم فاعرضوهم للبيع .. أين التجار ؟ » . ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان وقرطبة وغيرهما من مدن الاسلام ، وكانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من أمثال هذه الصفقات .. واليهود لا تفوتهم هذه الفرص . فلما حضروا تقدم واحد منهم وعلى رأسه عمامة سوداء واسعة ، ولحية مسترسلة على صدره وأنفه أعقف كبير وعليه قباء واسع ، ووراءه أحمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانيء : « بكم تشترى هؤلاء الأسرى ، يا هرون ؟ »

قال : « بالذى يأمر به مولاى .. »

فقال هانيء : « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعناهم ، بل كنا نستخدمهم فى منازلنا أو نتوقع الفداء من أهلهم ، فلعل بينهم من أولاد الأغنياء من يفتديه أهله بالأموال الطائلة ، ولكننا على أهبة المسير للحرب ولا وقت لدينا فاشتر » . قال هانيء ذلك فى بساطة وأنفة ، ولكن هرون تمسك بقوله وصمم على الاحتيال للشراء بأقل الأثمان ، فقال : « صدق مولاى ، ولكن ابتياع هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندرى كيف ننقلهم الى اسبانيا أو الى افريقية أو الى الشام حيث يعرضون للبيع وفى ذلك من المشقة والنفقة ما فيه .. »

فضجر هانيء من هذه المطاولة ، وهو يود أن يفرغ من هذه الصفقة لأمر يهمه فى الصفقة التالية : صفقة السبايا .. فقال : « اشتر الأسير بدينار ، الكبير منهم كالصغير ، على أن تكون

أسلابهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »

فضحك هرون وهو يمشط لحيته ثم يقبضها بيـده ويرسلها على صدره ويتظاهر بأنه استكثر المبلغ وقال : « ألا يكفى أن أدفع أثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبنى بأسلابهم وما عليهم منها الا الثياب » ..

فقال هانىء : « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو يحصى العدد ويقبض الثمن » . قال ذلك وأشار الى كاتبه وساق فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النسـاء والأطفال فتبعـه هرون وهو يقول : « لا تبع السبايا لسواى » فاعترضه تاجر آخر شهد صفقة الأسرى وصاح فيه : « قد اشتريت الأسرى وحدك ، فدع السبايا لنا » فأجابه ذاك جوابا جافا ، فانتصر بعض الوقوف من اليهود لهرون والبعض الآخر لرفيقه وعلت الضوضاء ، فسمع هانىء ضوضاءهم فصاح فيهم قائلا : «لاتغضبوا .. اننا نقسم الصفقة بينكم على السواء»

فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانىء جواده الى آخر موقفهم ، وكانوا قد وقفوا صفوفا نساء وأطفالا .. فمرّ بهم الهوينى وهو يتفرس فى الوجوه كأنه يفتش عن ضائع ، والنساء يتضرعن اليه بالايماء والبكاء لأنهن لا يعرفن العربيـة ، وهو لا يلتفت الى أحد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على ضالته ، وهى فتاة لم ير الراؤون أجمل منها وبجانبها امرأة فى نحو الأربعين من عمرها ، والهيبة والجلال ظاهران عليهما . وبرغم

عويل سائر النساء والأطفال ، فانهما كانتا هادئتين لا تبـديان حراكا وليس فى ملامحهما ما يدل على الخوف أو الاضطراب . وكانت المرأة بيضاء اللون شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، وقد لملمت شعرها وضمّته فى أعلى رأسها تحت خمـار أسـود ، وارتدت ثوبا أسود يجلّلها كلها حتى ليحسبها الناظر اليها من سكان الأديرة . وكانت جالسة حينئذ على حجر وقد أطرقت كأنها تفكر فى أمر ذى بال ، وفى يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصا شديدا ..

أما الفتاة فكانت واقفة بجانبها ، وعليهـا لباس أسود مثل لباسها ، وقد أسندت يدها الى كتف المرأة .. وهى مكشوفة الزندين الى الكوع وقد التف زنداها التفافا بديعا . وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة وقد بدت غضة ، فى محياها الحياة والنشاط . ويحسبها الرائى — أول الأمر — فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحقيقة دون العشرين .. سـمراء اللون ، سوداء العينين ، كحلاء الجفون ، حادة البصر مع وداعة ورقة .. تدل وقفتها على الصحة والقوة معا ، ويتجلى فوق ذلك كله لطف نسائى يسحر الألباب . وكان ثوبها الأسود بسيطا ، وقد انفتح الرداء من أعلى الصدر فبدا عنقها وفيه مظاهر الصحة والقوة بامتلائه واستدارته ، وصفّفت شعرها الكستنائى الجميل على هيئة ضفيرتين مستطيلتين أرسلتهما الى صدرها من جانبى العنق، فبلغتا الى تحت الخصر فوق منطقة من جلد . وغطت رأسـها

بنقاب أسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها . والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يتبادر الى ذهنه أنها والدتها وان اختلفا خلقة وشكلا لأن المرأة كانت بيضاء اللون شقراء الشعر ، والفتاة سمراء كما تقدم

أقبل هانىء اليهما والفتاة تنظر الى والدتها وتخاطبها همسا .. فلما وصل اليها زفعت نظرها اليه وتفرست فى وجهه وتفرس هو فيها هنيهة ، لا ندرى ما دار فى أثنائها بينهما من حديث العيون . ثم أمر بعض العلماء ممن كانوا فى ركابه أن ينقلهما الى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته . فلم يستغرب أحد طلبه لأن ذلك من الأمور العادية فى مثل هذه الحال ، فالفاتحون يختارون من غنائمهم ما شاءوا لأنفسهم ويبيعون ما شاءوا

ثم عاد هانىء الى أواسط الصف ونادى التجار ، وقال : « كيف تقتسمون هذه السبايا ؟ »

فتقدم هرون وقال : « لايمكن الاقتسام فى هذه الحال لأن ثمن الفتاة أو المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما تجيده من الأعمال ، كالخياطة أو الطبخ أو الرقص أو الغناء ، كما يتوقف على صحتها ودرجة احتمالها وما الى ذلك .. فالأحسن اذا شاء مولاى أن ينتقى كل منا ما شاء من هؤلاء على شرط أن من يختار أولا يدفع الثمن غاليا ، ثم يقل الثمن فى الاختيار للثانى ، فالثالث » ..

فاستحسن هانىء هذه الطريقة ، فقال : « ان الذى يتقدم

أولا لاختيار من يريد من هؤلاء تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينـار ، والذى يتقدم ثانية فانه يدفع نصف هـذه القيمة » . قال ذلك والتفت الى الكاتب وأمره أن يتم البيـع ويستولى على الثمن ويقسّمه على الجند باعتبار العدد ، وساق جواده الى السبيتين ..

— ٤ —

بسـطام

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وتراجع المسلمون الى مضاربهم وتركوا قسمة الغنائم الى أمرائهم . وكان الأمراء فى انتظار الفراغ من بيع الأسرى والسّبايا حتى يقتسموا ما يجتمع من أثمانها .. فجلسوا فى خيمة بجانب فسطاط الأمير عبد الرحمن لهذه الغاية ، وكان فى جملتهم أمير من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته فى الاسلام الا طمعا فى الكسب والنهب من الغنائم ونحوها . وكان قوى البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه مع عظم أنفه وانتفاخ منخريه . وكان فى عينيه احمرار وحـدة خارقة حتى ليوهمك — اذا نظر اليك — انه يخترق صدرك ببصره . وقد زاد منظره وحشة كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الطنف واقترابهما كأنهما خط واحد غليظ .. فضلا عن لونه الزيتونى ، وعما يتجلى فى

مجمل سحنته من القسوة والخشونة ، وما يدل عليه غلظ شفتيه من الميل الشديد الى الملذات الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر ، فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنج ــ وكان يسمع بثروتها وخيراتها ــ تظاهر بالاسلام وادّعى انه يريد الجهاد فى سبيل الدين .. ولم يكن حال هذا وأمثاله ليخفى على عبد الرحمن ، ولكنه كثيرا ما كان يغضى عن ذلك رغبة فى اكتساب القوة .. لأن هؤلاء البرابرة أبلوا فى تلك الحروب بلاء حسنا ، وخصوصا بسطام فانه كان يهاجم الأسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لا يعرف الخوف ..

وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب مايطيب له من السبايا ، وعبد الرحمن يتساهل فى معاملته حذرا من غضبه لئلا تسوقه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتنقلب معه قبيلته ، وقد يقتدى بها غيرها من قبائل البربر أو غيرهم من غير العرب (الموالى) ممن انتظموا فى تلك الحملة ، وفى نفوسهم حسد لما يميز به العرب أنفسهم عن سائر المسلمين : كالاستئثار بالسلطة ، واحراز الأموال . وكان التحاسد سائدا أيضا بين العرب أنفسهم اليمنية فى جانب ، والحجازية فى جانب آخر ، ناهيك بما بين الأمويين والهاشميين من التنازع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب ان كان قد حَسُن اسلامهم ، فقد يغضون عن هذا التحاسد ، وخصوصا فى أثناء الجهاد . أما الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام رغبة فى الغنائم ، فاذا

فاتهم الهدف من انضمامهم انقلبوا الى الضد ..

فاتفق فى وقعة بوردو أن بسطاما جاهد جهاد الأبطال ، وهو الذى هجم بنفسه على المنزل الذى كانت فيه هاتان المرأتان وقبض عليهما وأرسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر فى جملة الغنائم ، على أمل انه — متى عرضت السبايا للبيع — سيطلب الفتاة لنفسه ، وهو لا يتوقع أن يكون له مزاحم أو معارض فى ذلك ..

***

وكان بسطام فى جملة الأمراء المجتمعين فى ذلك اليوم ، ينتظرون قسمة الغنائم ، وقد أوصى أحد رجاله أن يراقب تلك الفتاة لئلا تخرج من يده . فلما رأى هانئا قد اختارها مع رفيقتها لم يجسر الرجل على منعه أو الاعتراض عليه ، ولكنه أسرع الى بسطام فأخبره فغضب وصاح فيه : « اذهب وقل لذلك القيسى ان الفتاة للأمير بسطام ، لأنها سبيتى وقد نلتها بحد سيفى »

فظل الرسول واقفا ولم يبد جوابا ، فأدرك بسطام انه لايجرؤ على مخاطبة هانىء بمثل ذلك فقال له : « مابالك لا تمشى ؟ »

فتحول الرسول من الخيمة ومشى الهوينى وهو يغرس أنامله فى شعره المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكه ، وقد تأبط جرابا من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من الأشياءالثمينة التى نهبها فى أثناء الموقعة أو التقطها وهم يجمعون الغنائم ، ولم يكن يرى سبيلا لحفظها الا أن يحملها معه على ثقلها .. وكذلك

كان يفعل أكثرهم وخصوصا الساعين فى الجهاد رغبة فى الغنائم . مشى ذلك البربرى وهو يتباطأ فى مشيته ويهم أن يلتفت الى الوراء كأنه يتوقع من يسترجعه . وكان بسطام ينظر اليه ويراقب مشيته بعينيه الحمراوين ، وقد حمى غضبه لما فى ذلك التردد من الاستخفاف به ، فصاح به فوقف وتراجع فقال له : « يظهر انك خائف منه .. لا تكلمه بل اذهب أنت ومن شئت من رجالى ، فأتونى بالفتاة سريعا »

فمشى الرجل مثل مشيته الأولى ، فازداد غضب بسطام ووثب وفى يده خنجر رومانى كان قد قتل صاحبه طمعا فيه لاتقان صنعه ، فاستله وضرب به الرسول ، فأصابت الضربة ظهره فقتلته . وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته قد وقفوا لبعض الشئون ، فصاح بسطام فيهم : « هلموا الى غنيمة هذا الجبان ، فهى وكل ما فى خيمته من المنهوبات ملك حلال لكم » فأسرعوا الى جثته وهموا باقتسام ما فى جرابه حتى كادوا يختصمون ويتضاربون ..

***

أما بسطام فانه رد الخنجر الى مكانه ووثب الى جواده فركبه ، واستحثه نحو الساحة . وكان قد علم بمكان الفتاة ورفيقتها فسار توا اليهما ، ولم يمر بهانىء ولا خاطبه فى هذا الشأن . وكان هانىء لايزال الى ذلك الحين مشتغلا ببيع السبايا

فلما فرغ من مساومة اليهود ، ساق جواده نحو الفتاة وهى

على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء أبنية بوردو ، واختلطت ظلال تلك القصور حتى صارت ظلاما خيم على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول .. خيم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما أوتوه من النصر ، فاشتغلوا باقتسام غنائمهم . وعلى المغلوبين من أهل بوردو وقد غلبوا على ما فى أيديهم .. فقتـل رجالهم وسبيت نساؤهم ونهبت بيـوتهم ومعابدهم ..

ولولا اشتغال هانىء بما جاش فى فؤاده من عـوامل الغرام وما غشى بصيرته من عواطف الشباب لاعتبر بما كسا أفق بوردو من الشفق وقد اشتد احمراره حتى ليحسبه الناظر اليه رمزا للدماء التى سفكت فى ذلك اليوم هناك .. ولكنه كان مشتغل الخاطر بشىء لا يعرفه غير الذى يعانيه ــ وهو الحب ــ ومن غريب أمر الحب انه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لايعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة ، فلا تكاد تلتقى العين بالعين حتى تجيش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذبا لا سبيل الى دفعه ، ولا يحدث ذلك عنـد كل نظرة ولا فى كل انسان وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . فاذا تفاهمت العينان استيقظ القلبان وتجاذبا كأنهما كانا على ميعاد ثم تاها ، وكل منهما يبحث عن رفيقه ، ثم التقيا بغتة وتعارفا بالنظر ..

— ٥ —

التنازع

كذلك حدث لهانىء ، فانه لم يكن يعرف تلك الفتـاة قبل ذلك اليوم .. فوقع نظره عليها للمرة الأولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويحصيها . وكانت الفتاة فى جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام باشـارة منه كما تقـدم ، فرآها هانىء تمشى بثوبها ونقابها الأسودين وتحت النقاب الضفيرتان المرسلتان على صدرها وقد أطرقت لا تلتفت يمينا ولا شمالا ، ورفيقتها بجانبها . فلما بلغت الفتاة الى عتبة الباب سمعت هاتفا ينادى كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا الى ذلك الحين ثم قال له : « لا تحص هذه الفتاة فى جملتهم » فوقع صوته فى أذنيها وقوع السهم فى قلبها . فلم تتمالك أن رفعت بصرها اليه وحدقت فيه ، فقرأ فى تلك النظرة ما يعجز الخطيب عن أدائه فى خطاب ، ولايستطيع الكاتب التعبير عنه فى كتاب .. قرأ فيهـا الاستعطاف والاستنصار والحب والاستسلام مع الانفة وعزة النفس ، فأجابها بنظرة قرأت فيها جوابا صريحا على ما يتمناه قلبها فاطمأن بالها .. حدث ذلك كله فى لحظة والناس حولهما فى غفلة بين باكٍ ، ونادبٍ ، وراجٍ ، وخائف . أما هانىء فقد وقع نظره عليها فصمم على أن يستأثر بها لنفسه . ثم أكبر أن يتخـذها سبية لمـا آنس من هيبتهـا

وجمالها ، فعزم على أن يتزوجها ، ولم يكن قد تزوج ولا حدثته نفسه بالزواج الى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد منه نعومة أظفاره فى بلاد الافرنج التماسا لفتح أوربا . ولذلك فانه حينما دعاه عبد الرحمن الى تلك الحرب لبى سريعا . فلما أحس بقلبه يتحرك لم يصبر عن التفكير فى الزواج .. والكثرة فى طالبى الزواج أن يلتمسوه على هذه الصورة .. فربما قضى أحدهم الأعوام الطوال وهو لا يفكر فى الزواج ولا يسعى اليه ، فاذا تحرك قلبه بنظرة أو كلمة بذل جهده فى سبيله . ولذلك استبعد هانىء الفتاة ، وبعد الفراغ من البيع سار كي يتسلمها بنفسه .. ولم يعهد بذلك الى أحد من رجاله مبالغة فى الحرص عليها

فلما ثنى عنان جواده نحو ذلك المكان ، رأى بالقرب منه فارسا عرف — فى نور الشفق — من شكل الفرس وعدته انه بربرى ، فاستحث جواده وهو مطمئن الخاطر على حبيبته لعلمه انه ليس فى جند المسلمين من يجسر على مخاطبتها بعد أن أمر هو بابعادها . ولكن الغيرة من أقوى مظاهر الحب ومن أكبر الأدلة عليه . وهى عمياء صماء لا تذعن للعقل ولا تصغى لنصحه . فركض هانىء فرسه وقلبه يخفق غيرة ، وما لبث أن رأى الفارس قد وقف بجانب الفتاة وسمعه يهدد ويتوعد فساق جواده حتى تطايرت أطراف عباءته فى الهواء ، وقبل أن يصل اليهم عرف الفارس فناداه : « بسطام ! » فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شررا وهو يقول : « ما بالك أيها الأمير .. ؟ »

قال : « تنحّ عن هاتين .. فانى قد أخذتهما لنفسى .. »

قال بسطام : « وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتى .. ؟ »

ولو لم يكن هانىء قد تعلق بالفتاة وعشقها لما جادله عليها ، ولكنه توقع أن يسترضى بسطاما من باب آخر ، لعلمه بشره هؤلاء البرابرة للمال والغنائم فابتسم وهو يقول : « هب انهما غنيمتك وقد رأيتنى أريدهما لنفسى ، ألا تتجاوز عنهما لى ، ولك علىّ ما تطلبه من نصيبى فى الغنائم .. » قال ذلك وهو يتشاغل بتسوية عرف جواده اظهارا للاستخفاف بالمسألة واخفاء لما ثار فى قلبه من عوامل الغيرة

فأجابه بسطام وهو لا يقــوى على كظم ما فى نفسه : « لا يمكننى ذلك ، واذا كان لابد لك من مقاسمتى فى هذه الغنيمة فانهما امرأتان .. خــذ تلك ، وأنا آخذ هــذه .. » قال ذلك وأشار بأصبعه أولا الى العجوز ، ثم الى الفتاة

وكانت الفتاة تقف بالقرب من رفيقتها ، وكلاهما صامتتان ترقبان نتيجة ذلك الجدال . ومن الغريب انه لم يبد فى وجه تلك الفتــاة شىء من امارات الخوف كأنها قــد وثقت بفوز حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليهــا ابتسمت ، وفى ابتسامتها اطراء وتشجيع ، فاذا حولت بصرها نحو بسطام قرأ هانىء فى شفتيها كل ملامح الاستخفاف والبغض . وقد أدرك هانىء ذلك منها رغم ما تقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع بسطاما يعرض القسمة على هذه الصورة عظم استخفافه به ،

فأجابه بصوت هادىء ولكن ملؤه التهديد قائلا : « لا أحب القسمة ، وانما هـذه الفتاة لى ، فارجع الى معسكرك وخذ نصيبك مما بعناه من الغنائم والأسرى والسبايا »

فازداد بسطام هياجا ووقف على الركاب بغتة حتى أجفل جواده وصاح قائلا : « لايمكن لأحد أن يأخذ غنيمتى منى ، ولو كان الأمير عبد الرحمن نفسه .. أما كفاكم معشر العرب ما تسوموننا من الخسف فتستأثرون بكل شيء دوننا كأن غير العرب ليسوا بمسلمين . وأنت تعلم انى أستطيع أن أعرقل مسعاكم وأرجعكم على أعقابكم فلا تفتحون بلدا ولا تكسبون غنيمة .. »

فلما سمع هانىء ذلك التهديد كبر عليه أمره ، ولكنه تصور ما يترتب على مجافاته من الضرر . وهو يعلم ان بسطاما لا يهمه الاسلام ولا المسلمين ، فاذا غضب وغضبت قبيلته ضعف الجند وهذا ما لايرضاه هانىء ولا عبد الرحمن . على ان حدة الشباب غلبت عليه وهو بين يدى حبيبته .. فلم يتمالك أن هم بسيفه فاستله وهجم على بسطام لايبالى أى عضو يصيب منه . فاذا بالمرأة تتقدم بثوبها الأسود ثم تمسك بعنان فرسه وتخاطبه بالعربية قائلة : « لا تقتتلا فما نحن غنيمة لأحد وكفى خصاما » قالت ذلك بلسان أهل اليمن مع شيء من العجمة . فبغت الأميران وتعجبا لما سمعاه بالعربية

أما بسطام فانه ظل مصمما على طلبه ، وخصوصا بعد أن

سمع تهديد هانىء له بين يدى تلك الفتاة وهى تفهم العربية فقال لها : « بل أنتما غنيمتى .. واذا شئت الانحياز الى هذا الأمير فلا بأس ، وأما هذه الفتاة فانها لى .. » . قال ذلك وانحنى عن سرجه ومد يده الى الفتاة وهمّ أن يمسكها فتباعدت وهى تنظر اليه شزرا ولم تضطرب ، فتبعها بفرسه .. ولما رأى هانىء تلك الجرأة لم يستطع أن يكتم غضبه ، وقد سرّه تباعد الفتاة لأن فى تباعدها تصريحا بتفضيلها اياه ونفورها من بسطام . فأحس أن تعقله وكظمه لاينفعان مع هذا البربرى شيئا ، فهمز جواده والسيف لايزال مسلولا فى يده ، فوثب الجواد وصهل كأنه يشارك فارسه بعواطفه ، وتباعدت المرأة وقلبها يختلج ، وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتا ينادى : « هانىء ، هانىء ، اغمد سيفك ! » فالتفتوا فاذا بالفارس قد أقبل حتى دنا منهم ، وقبل أن يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انه الأمير عبد الرحمن . فاستغربوا مجيئه فى تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ، ولم يفه واحد منهم بكلمة ، ولم يستطع هانىء سوى اغماد سيفه

— ٦ —

مريم

وكان عبد الرحمن ربع القامة ، جليل الطلعة ، صبوح

الوجه ، عريض اللحية والجبهة ، قد خالط شعره بياض . وكان واسع العينين مع حدة وذكاء بغير جحوظ ، أقنى الأنف وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة . فلما وصل ، ساد الصمت على الجميع ، فالتفت الى هانىء وقال : « أراكم تختصمون وتتشاجرون ، وكان قلبى قد دلنى على ذلك منذ أن سمعت بسطاما يخاطب رسوله فى خيمتى ، فخشيت النزاع بين أمراء هذا الجند ونحن فى أشد الحاجة الى الاتحاد . وقد لاحظت خروج بسطام .. فلما أبطأ فى العودة أسرعت اليكم ، فأحمد الله على ذلك »

فأعجب الجميع بسهر هذا الأمير على مصلحة جنده وسعيه فى جمع كلمته ، وأحس هانىء بتوبيخ ضميره لأنه تعاهد هو وعبد الرحمن على الاتحاد والتعاون كما تقدم ، فقال : « لم أكن لأخاصم مسلما على شىء وان عز ، ولكن بسطاما يعترضنى فى سبية اخترتها من بين مئات بعناهن الآن بيع السلع ، فلو اننا بعناها لبعض أولئك اليهود فما الذى كان يفعله .. ؟ »

فاعترضه بسطام قائلا : « كنت أفتديها من شاريها بالذى يرضيه » ..

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجأش رابط ، وقالت : « أظننى واقفة بين يدى عبد الرحمن الغافقى أمير هذا الجند ؟ .. »

فاستغرب عبد الرحمن حديثها بالعربية ، وقال : « نعم ..

أنا هو .. وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفتك من اهتمامك بشئون جندك ، وقد كنت أسمع ذلك عنك .. ان الأميرين يختصمان علينـا ، وما نحن لواحد منهما ، ولكن لنا أمرا نعرضه على الأمير »

فرآها عبد الرحمن تخاطبه بجسارة لم يعهدها فى الأسرى أو السبايا فهابها ، وزاده تهيبا ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده ، ووقعت عيناه فى أثناء ذلك على الفتاة فأعجبه جمالها ، ومال الى استطلاع حقيقتها ، فقال للمرأة : « قولى ما بدا لك »

قالت : « لا أقول شيئا الآن ، وانما أقص حديثى على الأمير فى خلوة » ..

وكان فى ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته ، فأمرهما أن يأتيا بفرسين يحملان المرأة ورفيقتها الى فسطاطه ، على انه لم يصبر وهو ينتظر قدوم الفرسين عن أن يسأل المرأة : « ومن هى رفيقتك ؟ » ، فقالت : « هى ابنتى »

وكان هانىء يقف صامتا ، وقد وقع فى حيرة من أمر الفتاة وأمها ، وخشى أن يكون فى حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها وقد ازداد تعلقا بها بعد ما لاحظه من رغبتها فيه ، وأحس انها تحبه حبا شديدا ، فاغتنم فرصة اشتغال الأمير بالحديث مع المرأة ، ودنا من الفتاة وقد أراد أن يسمع حديثها ويستطلع أمرها ، فقال وصوته يدل على هيامه : « ما اسمك يا فتاة ؟ »

فأجابته بصوت دل على لواعج الحب ، وبلسان عربى فصيح :

« اسمى مريم » فأعجبته غنة صوتها وزاد افتتانه بها لثغة فى لسانها تنطق بها الراء غينا ، فكأنه سمعها تقول : «اسمى مغيم» فقال : « وأنا اسمى هانىء .. هل حفظته كما حفظت اسمك ؟ »

فأدركت ما يهدف اليه ، وقالت : « لقد حفظتــه قبــل أن أعرفه ، فكيف بعد أن عرفتــه ورأيت منه ما رأيتــه » ففرح بذكائها وسرعة خاطرها واطمأن باله ، ثم أجابهــا وهو يقلــد لثغتها تحببا : « اغجو أن تكون معغفة مباغكة »

فابتسمت مريم ابتســامة أخــذت بمجامع قلبه ، وتوردت وجنتاها خجلا ، وأطرقت اطراء الحياء وتشــاغلت باصــلاح ذيل منطقتها ..

أما بسطام فكان يراهما يتكلمان ، والحنق يكاد يخنقه ، وهو لايجسر على الكلام فى حضرة الأمير ، ولكنه أضمر لها الشر . وبعد هنيهة جاء الجوادان ، فركبت مريم وأمها وساقوا الخيول الى المعسكر ، وكان هانىء لايرفع نظره عن مريم فرآها امتطت الفرس بأسرع من لمح البصر ، كأنها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياما بها . ولكنه ظل موجسا خيفة من تلك الخلوة ، حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن ــ وهى أكبر الخيام وعلى بابها الأعلام ــ التفت عبد الرحمن الى هانىء ، وقال : «عد الى تدبير أمر الجند ، وكن كعهدى بك فاننا فى بلاد العدو» والتفت الى بسطام ، وقال : « وأنت يا بسطام أمير ذو بطش ، فامض الى شأنك وانس ما دار بينك وبين هانىء .. اننا مقبلون

على فتوح كثيرة ، وستصيب من الغنائم والسبايا ما يعوض عليك أضعاف هذه الخسارة »

فسـار الأميران ، وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وأمها للنزول ، فنزلنا ودخلنا الخيمة فى اثره ، وفى يد الوالدة تلك المحفظة وقد شدتها الى زندها وقبضت عليها بكفها كأنها تخاف أن يختطفها أحد ..

– ٧ –

الخلوة

فلما دخلوا الخيمة أشار عبد الرحمن الى من كان فيها من الأمراء والحاشية ، فخرجوا جميعا وبقى هو والمرأة وابنتها ، وقد تشوق الى سماع ذلك الحديث ، فجلس فى صدر الخيمة على بساط ثمين ، كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم ، وأجلسهما بين يديه.. فالتفتّت كل منهما بردائها الأسود ، والنقاب الأسود على رأسيهما . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على نور المصباح ، فرأى الجمال لايزال باديا فى وجهها مع انها قد تجاوزت سن الشباب . ونظر الى مريم ، فرأى عينيها الجذابتين وقد زادها التفكير والاطراق هيبة ، فسبح الخالق لذلك الصنع العجيب . ثم غلب شوقه الى سماع تلك القصة ، فحوّل نظره الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهرا فى عينيها وهى تنتظر اشـارة

للشروع فى الكلام ، فقال لها عبد الرحمن : « ماخبرك يافتاة ؟ وما هو غرضك ؟ »

قالت : « أما خبرى فسأطلعك عليه فى فرصة أخرى ، وأما غرضى فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق أمانيه »

فلما سمع عبد الرحمن كلامها ، استغرب تلك الغيرة من امرأة لايعرف من هى ، وقد توسم فى كلامها ـ وان كان عربيا ـ شيئا من العجمة . فأراد أن يستطلع حقيقتها ، فقال لها : « ما الذى حملك على الحماس لنصرة العرب ، وكلامك يدل على انك غير عربية ، ومظهرك ولباسك يدلان على انك غير مسلمة .. فلا يعقل أن يكون هذا هو هدفك ، فأصدقينى .. »

فنظرت اليه نظرة استغراب ، وقالت : « لم أمثل بين يدى الأمير عبد الرحمن الغافقى لألفق له حديثا مكذوبا ، ولا أرى فراسته فىّ صحيحة لأنى وان كنت غير عربية ولا مسلمة ، فليس ثمة ما يمنع غيرتى على نصرة العرب أو المسلمين .. وفى نفس هذه المدينة وغيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لأسباب لم أكن أظنها تخفى على مولاى الأمير »

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ، ولكنه صبر الى النهاية لعله يستشف شيئا من حديثها يكشف له الحقيقة فقال لها : « لم أفهم مرادك .. هل يتمنى أهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ »

قالت : « كانوا يتمنون ذلك منذ سمعوا بحال الأسبان بعد دخولهم تحت لواء العرب ، لأنهم رأوهم قد انتقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة » .

قال عبد الرحمن : « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأى ؟ »

قالت : « نعم .. »

قال عبد الرحمن : « ولماذا ..؟ أرجو الافصاح »

قالت : « لا يخفى على مولاى ان المسلمين عندما فتحوا اسبانيا منذ ٢٢ عاما ، عاملوا أهلها بالرفق والعدل . فلم ينهبوا بيعة ولم يسفكوا دما بريئا ، ومن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده ، ومن اعتنق الاسلام وكان عبدا فانه يصير حرا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وكان حكام القوط يعدون رعاياهم عبيدا لهم يستخدمونهم فى منازلهم وحقولهم استخدام الأرقاء ، فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الاسلام والجزية وان من أسلم وكان عبدا صار حرا ، فتهافت جانب عظيم من أولئك الأرقاء على الاسلام لتتحقق لهم الحرية التى كانت عزيزة عليهم لا ينالها الا أفراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة أو خدمة ذات بال . ومع ذلك فان المعتقين فى أيام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الأحرار . وانما كانوا وسطا بينهم وبين الأرقاء . أما المسلمون فمن أسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الأحرار تماما ، ومن ظل على النصرانية تركوا له الحرية فى أداء مراسم دينه والتمسك بعاداته وآدابه وسائر معاملاته حتى

« فقال لها عبد الرحمن : ما خبرك يافتاة وما غرضك ، قالت : اما خبرى فسأطلعك عليه فى فرصة أخرى ، واما غرضى فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق أمانيه .. »

الحكومة والقضاء (١) ، فأحس الاسبانيون بأنهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية ، فشاع ذلك فى سائر أنحاء هذه البلاد .. فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب ، فعزم على أن يتم فتوحاته حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد أن يفتح كل أوربا . ولكن المسلمين عجلوا عليه وعلى ابنه عبد العزيز ، رحمهما الله ، مما لا يخفى عليك . ولولا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين ، ولكانت هذه البلاد التى جئتم لفتحها الآن ملكا لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوهما على امارة الأندلس كان معظمهم من أهل المطامع ، فأساءوا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات ، وشاع خبر ذلك فى هذه البلاد فأصبح فتحها صعبا لأن أهلها لايرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم ودين غير دينهم »

— ٨ —

هانىء

ولما بلغت فى حديثها الى هذا الحد ، توقفت وتنحنحت وتشاغلت بمسح فمها ، وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الإطلاع ، وجعل يتأمل ملامحها

(١) دوزى — الجزء الثانى

ويفكر فيمن عسى أن تكون هذه المرأة ، وصبر لعل فى خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها .. ولكنه أراد أن يستوضحها الأمر ، فاغتنم فرصة سكوتها وقال لها : « يظهر لى انك أكثر اطلاعا على حقيقة الأحوال من معظم رجالنا ، وأشد غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين أنفسهم .. » ثم تنهد وقال : « ان الأمر الذى ذكرته يا فتاة هو الواقع بعينه ، وأظنك سمعت انى استدركته قبل اقدامى على هذا العمل .. فلم أخرج الى هذه الحرب حتى تجولت بمدن الأندلس وغيرها مما فتحه المسلمون من بلاد الافرنج (فرنسا) وتعهدت حكامها ، وعزلت الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها وأبدلتهم برجال من أهل الدراية والحكمة ، ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف المذاهب ورددت الى النصارى كنائس كان بعض الأمراء المسلمين قد اغتصبوها منهم ، وأعدت ما كان لهم من العهود منذ زمن موسى ابن نصير وابنه عبد العزيز (١) . وقد بذلت الجهد فى هذا السبيل لعلمى ان الاسلام يأمرنا بذلك ، وان الصحابة الأولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح الا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة أهل الذمة بالحسنى والعدالة .. »

فقالت وهى تصلح نقابها والتفكير ظاهر فى عينيها : « قد علمت بكل ما فعلته وما تفعله ، وكل ما نويته وما تنويه ، ولذلك كنت أتوقع لك الظفر . ولكنى رأيت خلاف ما سمعته ، فصرت

---

(١) رينو ورومى – الجزء الثالث

أخشى فشلك » ..

فقال وهو يستغرب صراحتها وحصافتها : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « أظنك تعلم ما أعلمه من هـذا القبيل ، ويكفى ما شاهدته الآن بنفسك ما بين هانىء وبسطام .. ألم يكد يسفك الدم بينهما من أجل هذه الفتاة ؟ .. » وأشارت الى مريم وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حديثهما باهتمام وشوق ، كأنها لم تكن تعرف منه شيئا

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل باصلاح شاربه ، وحك عثنونه بين سبابته وابهامه ، وظهر التأثر فى عينيه وجبينه . والتفت الى المرأة وهو يحاذر أن يتنهد وقال : « ان ما رأيته انما هو من قبيل المنافسة بين أميرين على سبية جميلة ، وليس ذلك بالأمر الغريب »

فضحكت ضحكة مصطنعة ، وقالت : « الأمير عبد الرحمن الغافقى لا يجهل أن سبب هـذه المنافسة انما هو فساد نيات الأمراء فيما بينهم لاختلاف أغراضهم فى هـذه الحملة ، لأن أكثرهم جاءوا للنهب والسلب وخصوصـا البرابرة ومن على شاكلتهم .. فهؤلاء لايفهمون معنى الجهاد أو الفتح ، ولايعرفون ما هو الاسلام ، لأنهم انما انتموا اليه رغبة فى الغنائم . ومن كان هذا غرضه لايهمه اذا رضى أهل البلاد أو غضبوا .. يدلك على ذلك ما رأيته بنفسى فى أثناء هذا الفتح اليوم ، فان بعض رجالكم لم يميزوا بين المنـازل والكنائس ولا بين الرهبـان

والعامة ، فقــد نهبوا كنيســة بوردو وهى من أعظم كنائس الغاليين ، فأصبح هؤلاء فضلا عن نفورهم من المسلمين يعتقدون ان صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم .. »

فلم يتمالك عبد الرحمن عن قطع حديثها ، فقال : « نهبوا الكنائس ؟.. نهبوها ؟.. رغم ما أوصيتهم به من المحافظة عليها وعلى كرامة القسس والرهبان » ثم صفق وصاح : « ياغلام » فدخل رجل من غلمانه الذين يقفون ببابه ، خفيف اللباس خفيف العضل ممن يقتنونهم للمراسلة ونحوها .. فابتدره حال دخوله قائلا : « ادع الأمير هانئا الساعة »

فأشار الغلام اشارة الطاعة وخرج ، فعجلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للأمير : « فاتنى أن أطلب اليك الافراج عن خادمى ، فانه أخذ فى جملة الأسرى على شيخوخته وبرغم انه عربى » ..

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف ، فقال له : « وقل للأمير هانىء ان بين الأسرى شيخا » والتفت الى المرأة ، وقال : « وما اسمه ؟ » . قالت : « اسمه حسان » . فقال : « قل للأمير ان بين الأسرى شيخا عربيا اسمه حسان .. فليأت به معه »

ولا تسل عن مريم عندما سمعت اسم هانىء ، فانها أحست بنبضات قلبها تسرع بغتة .. وكانت جالســة مطرقة فتحركت واغتدلت فى مجلسها ، ولو انتبه عبد الرحمن لوجهها لرأى فيه احمرارا يشف عن عاطفة قلبية ظهرت آثارها فى بريق عينيها

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصا عبد الرحمن ، فانه لبث مطرقا وهو يلاعب لحيته بين أصابعه ببطء ، كأنه يخشى من العجلة أن يضطرب لها حبل أفكاره فتقطعه أو تعترضه ، وسكتت المرأة تهيبا لمنظر عبد الرحمن .. وبعد قليل سمعوا وقع حوافر جواد ، ثم سمعوا صهيله ، فعرف عبد الرحمن انه صهيل جواد هانىء وان هانئا قادم . ولم تمض هنيهة حتى دخل ذلك الغلام ، وقال : « ان الأمير هانئا بالباب .. »

فقال عبد الرحمن : « فليدخل »

وقبل أن يرجع الرسول بالأذن ، أقبل هانىء كانه يدخل بيته وذلك للدالة التى كانت له على الأمير ، وكان لايزال بثوبه الأحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه ، فلما رآه عبد الرجمن داخلا بش له ورجب به ودعاه الى الجلوس بجانبه ، فجلس وهو يحدق فى مريم ووالدتها ، ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته وهو يصلح مجلسه . أما مريم ، فانها أطرقت حياء وعيناها تسترقان النظر الى هانىء ، وترمق كل حركة من حركاته . ودخل فى أثر هانىء شيخ طاعن فى السن عليه لباس أهل غاليا ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وقد شاب شعره مع كثاثة ، واسترسلت لحيته كثيفة ، وخف عضله وتغضنت جبهته ، وتجعد خداه ورقبته حتى ليتوهم الناظر اليه انه فى سن التسعين ، واذا تكلم أو مشى أوهمك لخفة حركته وشدة عارضته انه فيما دون الستين . فدخل الخيمة وعليه قباء الى الركبة بعضه مبطن بالجلد.

وأما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاهما شعر كثيف لايظهر الجلد من تحته ، وقد شد بقدميه نعلين من صنع بوردو. ووقف الشيخ بباب الفسطاط ، فلما رآه عبد الرحمن أشار اليه أن يجلس فجلس هناك متأدبا ، أما هانىء فلما جلس قال له عبد الرحمن : « أظنك تعبت فى هذا اليوم يا هانىء »

قال هانىء : « ليس فى الحرب تعب اذا كانت خاتمتها النصر، كما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الأمير عبد الرحمن » ..

قال عبد الرحمن : « لم يكن لعبد الرحمن يد فى هذا النصر ، وانما تم بك وبرجالك وسائر المسلمين . على انى لم أدعك للبحث فى ذلك ، وانما دعوتك لأمر ذى بال فأعرنى سمعك »

فأصاخ هانىء بسمعه ، وقال : « قل .. »

قال عبد الرحمن : « هل تعلم ما الذى ساعد المسلمين على الفتح والنصر منذ أيام الصحابة حتى اليوم ؟ »

قال هانىء : « أعلم ان الله نصرهم بالاتحاد والتعاون ، وهذا هو الأمر الذى نتوخاه فى كل حركة من حركاتنا »

قال عبد الرحمن : « أنا أعلم ذلك ، وأعتقد انك أكبر ساعد لى فى جمع كلمة هـذا الجند الضخم وهو مختلف المقاصـد والأغراض ، وتحتمل معى مضض التوفيق بين نزعاتهم المختلفة وميولهم المتناقضـة ، ولكن هناك سببا آخر سـاعد السلف الصالحين على الفتح وأيد دولتهم .. أتعلم ما هو ؟ »

- ٩ -

عبد الرحمن وبسطام

فأطرق هانىء وأعمل فكرته ، وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه ، فقال هانىء : « الذى أعلمه ان دولة الاسلام تأيدت بالعدل والرفق »

فقطع عبد الرحمن كلامه ، وقال : « ذلك هو بعينه .. لأن العدل أساس الملك ، والرفق بالرعية يدعوهم الى الطاعة والمحبة وخصوصا أهل الذمة من النصارى واليهود ، وعلى الأخص الرهبان والقسس أصحاب البيع والكنائس ، فقد ورد فى كتاب الله وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم النهى عن السعى فى أذاهم ، ولذلك كان الخلفاء الراشدون اذا أنفذوا جندا الى حرب أوصوهم بأهل الذمة خيرا ، ومنعوهم من أذاهم ، وأمروهم بالكف عن الكنائس وأصحابها (١) ألا تعلم ذلك ..؟ »

قال هانىء : « نعم أعلمه جيدا .. ولطالما تحدثنا فيما قام به بعض الخلفاء وأمراء الأندلس من هذا القبيل ، وتعاهدنا على منعه » ..

قال عبد الرحمن : « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو فى هذا اليوم ونهب آنيتها وايذاء رهبانها ؟ »

فظهر الغضب على وجه هانىء مع الدهشة ، وأطرق لحظة ثم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الاول

هز رأسه وهو يقول : « قبح الله بسطاما ما أطمعه وما أقل طاعته .. انى نهيته بنفسى عن هذا الأمر — ونحن فى أثناء الوقعة — بعد أن رأيت منه ومن رجاله ميلا الى النهب فى غير تفرقة ، وقد علمت بما فى كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب ، فخشيت أن تسوقه المطامع أو تسوق أحدا من قبيلته الى نهبها ، فاستوقفته فى وسط المعركة وقلت له : « احذر أن يسطو أحد من رجالك على الكنائس أو المعابد أو القسس » .. فأجابنى بالسكوت .. فبدا لى فى تلك الساعة انه لا ينوى الاذعان للتحذير ، لما نعلمه من طمعه وقسوته و ... »

فابتدره عبد الرحمن قائلا : « أتظن ان تلك فعلة بسطام ؟ »

قال هانىء : « لا أظن أحدا سواه يجرؤ على ذلك بعدما كان من تشديدنا فى منعه ، وقد رأيته مع بعض رجاله وهم يقتسمون صلبانا من ذهب ومباخر من فضة مما لا يكون فى غير الكنائس »

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل ، فقال : « ادع الأمير بسطاما » وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانىء ، وقال : « لا تخف من غضبى عليه ، فانى سأخاطبه باللين لما أعلمه من فظاظته وغلظته والا أفسد الجند علينا »

فقالت المرأة : « مالكم ولهذا النصير الخطير .. ما كان أغناكم عنه وعن قبيلته » ..

فتنهد عبد الرحمن وقال : « لو شئنا أن نستبعد من جندنا أمثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى أن نجرده من أشد رجاله وأكثرهم

عددا ، لأن فى جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والأقباط والأنباط وغيرهم ، وفيهم من لايزال على اليهودية أو النصرانيـة أو الوثنيـة أو المجوسية وانما يتظاهرون بالاسلام (١) — والبربر من أشجع الأمم لايهابون الموت ولا يخافون العدد — والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلموها الينا ، ولو أردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هـذا الفتح لأن العرب لايزالون الى اليوم قليلى العدد بالنسبة الى مثل هذا المشروع العظيم . فاستخدام البربر فى هذه الحروب يفيدنا كثيرا ، وكل ما يطلب منا أن نحسن السياسة فى معاملتهم لئلا نغضبهم ، وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها ، وهذا أمر ميسور لهم لأننا كثيرا ما تتنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم فى الجهاد لمصلحة المسلمين ، وان لم يكونوا كلهم مسلمين مخلصين »

فأعجبت المرأة بتفكير عبد الرحمن وسعة صدره ، وقالت له : « ان جندا أنت قائده جدير بأن يعود ظافرا منصورا »

فلما سمع ذلك الاطناب ، مال بيمناه الى هانىء وألقى يده على كتفه ، وقال : « هذا هو يدنا اليمنى لأنه قائد فرساننا » فخجل هانىء لهذا الاطراء وأراد أن يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول : « الأمير بسطام بالباب »

فقال عبد الرحمن : « فليدخل »

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ — الجزء الاول

فدخل بسطام وعباءته مطلقة من الأمام ، وسيفه يجر وراءه ، وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب رأسه الى الأذن ، وفى يده عنقود من العنب كان يأكله فى أثناء الطريق .. فلما رأى نفسه فى حضرة الأمير تراجع ورمى تلك البقية ، وعاد وفى مشيته تيه واعجاب . ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن الا بالاحترام ، لأنه لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيب خاطره ويدعوه الى احترامه لما قدمناه من حسن سياسة عبد الرحمن ورقة جانبه .. وربما توهم بعضهم أن الرياسة انما يتأيد نفوذ صاحبها بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة ، ولكن ذلك من الأوهام الباطلة ، لأن الرئيس الشديد انوطأة قد يملك ألسنة مرءوسيه.. وأما الوديع الرقيق الجانب فانه يملك قلوبهم ورقابهم . فلما دخل بسطام حيًّا ، فبش له عبد الرحمن ودعاه للجلوس ، فجلس وهو يجيل نظره فى أطراف الخيمة ، فرأى مريم وهانئا فتوهم لأول وهلة انه دعى لأمر يتعلق بهما ، ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلا : « دعوناك يا أمير لنسألك عن أمر يهمك كما يهمنا لأن المصلحة واحدة ، وهى رفع منار الاسلام وتأييد كلمة الله .. »

فانشرح قلب بسطام لهذا الاطناب لأن العرب لم تكن تعامل البربر الا معاملة الموالى كما تقدم ، فلمـا سـمع بسطام ذلك الكلام قال : « يأمر الأمير بما شاء ، وله ما يرضيه منى ... فانى أطوع له من بنانه »

قال عبد الرحمن : « بورك فيك ، ونفع الله المسلمين بسيفك .

أما الأمر الذى استقدمناك لأجله ، فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما أصاب بيعتهم من النهب ، وهم كما لايخفى عليك أهل كتاب قد أوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم وبيَعهم ، وخصوصا اننا فى أحوال تقضى علينا بمحاسنة أهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح ، ونحن سائرون الى بلاد أمنع ورجال أشد من أهل هذا البلد . فاذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا . ولذلك كنت كثيرا ما أوصيكم بالاغضاء عن أماكن العبادة على يد أخينا الأمير هانىء ، فاذا كنت على بينة من أمر كنيسة بوردو ونهبها أرجو أن تسعى فى رد ما نهب من آنيتها .. وأدواتها .. »

— ١٠ —

العرب فى أسر الافرنج

فقال بسطام : « لا أنكر على الأمير سداد رأيه فى هذا الشأن ، وقد كنا الى اليوم نرعى هذه القاعدة ونحترم البيع حتى رأيت فى هذا الصباح أمرا اقشعر له بدنى .. ولم أتمالك عن الانتقام بنهب تلك الكنيسة .. رأيت فى بعض منازل هذه المدينة رجالا من المسلمين وغلمانا ونساء يستخدمهم أهلها استخدام العبيد الأرقاء .. نعم لا أنكر حقهم فى ذلك لأننا نفعل بأسراهم مثل هذا الفعل . ولكنى رأيت بعض الأسرى المسلمين

مقيـــدين بالأغلال الحديد فى أرجلهم والأحمـــال الثقيـــلة على ظهورهم ، وقد ساقوهم الى العمل فى الكروم سوق الدواب (١) فلم أتمالك عند مشاهدتى هذه القسوة من الانتقام بنهب كل ما تقع يدى عليه .. ولم أستثن كنيسة ولا ديرا .. »

فلما بلغ بسطام الى هذا الحد ، التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يسألها عن ذلك ، فقالت : « لا أنكر على مولاى ان معاملة الافرنج لأسراهم من العرب أكثر قسوة من معـــاملة المسلمين لأسراهم من الافرنج ، وان تساوى الفريقان فى اعتبار الأسرى ملكا للغالبين يبيعونهم بيع السلع ، ومتى دخل الأسير فى حوزة مالكه استخدمه فيما ينفعه من فلاحة أو زراعة أو خدمة ، ولا يزالون عبيدا هم وأولادهم الى سلالات عديدة حتى يفتديهم أهلهم أو أصدقاؤهم بالمال أو غيره . أما المسلمون ، فان رجوع الأسرى الى الحرية عندهم أسهل مما عند الافرنج ، وأما تقييدهم بالسلاسل فالغرض منه ــ على ما أظن ــ هو منعهم من الفرار وربما حاولوه مرة ولم يظفروا ، فأثقلوهم بالأغلال ليمنعوهم منه » ..

فقطع عبد الرحمن كلامها ، ووجه خطابه الى بسطام قائلا : « هب انهم فعلوا ما تقول ، فالعبرة بالنتيجة .. واذا كنا نسلك مثل ما سلك هؤلاء فأى فضل لنا ، وبماذا تتوقع النصر فى الدنيا

---

(١) رينو

والنعيم فى الآخرة .. فالذى يهمنا أن نعمل بمقتضى الكتاب والسنّة ونقتدى بالسلف الصالحين . وزد على ذلك ان طمعنا فى القليل من الغنائم قد يؤدى الى فشلنا ويقف فى سبيل الفتح فنخسر أضعاف تلك الغنائم ، ناهيك بالفشل وما قد يلحقنا بسببه من العار » ثم وجّه خطابه الى هانىء وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه ، وقال : « لايخفى عليكم اننا نعتزم عملا أثمن كثيرا من الذهب والفضة والآنية ، وأعظم من أن يقاس بالحطام الفانية . نحن نعتزم فتح هذا العالم الكبير .. فاذا وفقنا فى فتحه كسبنا الأموال والأرواح ونشرنا الاسلام فى قبائل من النصرانية والوثنية لايحصيها الا الله ، فنملك المدن والرقاب وتخفق رايتنا على رومية والقسطنطينية وغيرهما من عواصم النصرانية ، ويصير صعلوكنا أميرا وفقيرنا غنيا .. فتحرز ياهانىء ما استطعت من الذهب والفضة والجواهر ، وتملك ما تريده من الجوارى والغلمان .. واذا كنت مخطئا فى قولى فنبهونى »

فأدرك هانىء ان عبد الرحمن انما ينتظر الجواب من بسطام احتيالا عليه فى اجابة الطلب ، فقال بسطام وقد سحر بلطف عبد الرحمن : « انك على صواب ، والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالى لم ينصفوا فى حقوقهم بازاء العرب مثلما أنصفوا فى أيامك . لقد كان أسلافك ــ ولا يزال كثيرون من أمراء العرب الى اليوم ــ يعدون المسلمين من غير العرب عبيدا ، فاذا حاربوا معهم فى معركة لايقاسمونهم الغنائم كما يقاسمون

العرب (١) ، فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل »

فقطع عبد الرحمن حديثه قائلا : « أنا لم أعامل غير العرب الا بالعدل لأن المسلمين اخوة ، والآن اسرع الى الغنائم قبل اقتسامها ومعك الأمير هانىء ، واستبعدا آنية الكنيسة واحملاها الينا لننظر فى أمر اعادتها الى أصحابها » ..

خرج بسطام وهو منتفخ الصدر بما آنسه من الرعاية والاطراء ، ونسى ما كان فى نفسه على هانىء بسبب مريم .. وأهل الفظاظة والخشونة من أقرب الناس الى المصافاة لخلو قلوبهم من نتائج الكظم ، فاذا أساء اليهم أحد بعمل جاهروا بما فى نفوسهم عليه .. فهم لايحقدون ، وخصوصا فى موقف يشبه موقف بسطام بالنسبة الى مريم ، فانه كان يطلبها لأنه استلطفها ووعد نفسه بها ، ولكنه لم يتعلق بحبها كما فعل هانىء . أما هانىء فانه سار فى أثر بسطام ، وظل قلبه فى ذلك الفسطاط ، أو لعله استعاض عنه بقلب مريم لأنها أحست عند خروجه كأن قلبها اقتلع من صدرها ، وخشيت الفضيحة لظهور أثر ذلك على وجهها فتشاغلت باصلاح الخمار الأسود

فلما خرج الأميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن ، وقالت : « هل يأذن مولاى الأمير بارسال فتاتى هذه مع هذا الشيخ الى مقر تقيم فيه تحت حمايتك ريثما أتم حديثى معك ونرى ما يكون »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الثانى

فصفق عبد الرحمن وصاح : « ياغلام » فدخل أحد الغلمان ، فقال : « أبلغ هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائى ، وأوص قيّمة الخباء باكرامها ، وألا تعدها فى جملة الجوارى .. وانما هى ضيفة .. علينا اكرامها ورعايتها »

فاستحسنت المرأة ذلك والتفتت الى حسان ، وقالت : « سر ياعماه مع مريم فى رعاية مولانا الأمير ، وكن معها حتى آتيك »

فأشار مطيعا وخرج وهو يتوكأ على عكازه ، وخرجت مريم فى أثره والغلام أمامهما

— ١١ —

بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التماس الخلوة ، توهّم انها ستطلعه على سرها . فلما خلوا بدأها هو بالكلام قائلا : « اطلعينى يا أخية على اسمك قبل كل شىء لأناديك على الأقل»

قالت : « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمى فنادنى : سالمة » ..

قال عبد الرحمن : « لقد أدهشنى يا سالمة ما رأيته من غريب شأنك ، وأرانى كلما سمعت حديثك أزداد رغبة فى استطلاع حقيقة أمرك . وكأنى بك قد التمست الخلوة رغبة فى مكاشفتى بسرّك » ..

فأصلحت سالمة من شأنها والتفّت بثوبها ، وأخفت يديها فى كمها وفيه المحفظة ، ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام باد فى عينيها ، وقالت : « اعلم أيها الأمير انك تخاطب امرأة غير عربية وغير مسلمة ، ولكنها من أشـد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين . وأستأذن مولاى الأمير بالاقتصار على ما عرفه من أمرى لأسباب ستتضح له قريبا ان شاء الله . وأما الآن ، فانى أهب نفسى لتحقيق المشروع الذى قمتم لأجله .. فأبذل ما فى وسعى فى سبيله »

فاستغرب عبد الرحمن تسترها ، وخشى أن يكون من ورائه خديعة أو دسيسة ، فقال لها : « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت : « لقد أعجبنى سوء ظنك فىّ .. ولو لم يبد ذلك منك لاستضعفتك ، لأن من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لا ينجو من أهل الخداع والدسائس ، فان لم يسىء الظن فيمن يصادفهم بات فى خطر من دسائسهم . أما دعواى ، فلو صرحت لك بأمرى لهان عليك تصديقها ، ولكن الآن يكفى دليلا على صدق ما أقول أن أجعل ابنتى ووحيدتى رهنا بين يديك ، فان بدرت منى بادرة تدل على الخيانة أو الغدر فافعل بها ماشئت »

وكان كلام سالمة قد نبّهه الى ما يحدق به من أسباب الخداع والمكر ، فبالغ فى اساءة الظن بها فقال لها : « ومن يؤكد لنا انها ابنتك ، فان الشبه بعيد بينكما .. ويظهر انها عربيـة ولست

أنت كذلك » ..

فأطرقت سالمة هنيهة ، ثم قالت : « أما هــذا فلا سبيل الى اثباته بغير السؤال من الفتاة نفسها والخادم الشيخ ، فانه عربى مسلم وهو وحده المطلع على سرى ، ولكنه لايبوح به الا فى حينــه .. فاسألوه » . قالت ذلك ودلائل الاخلاص وصــدق اللهجة يتجليان فى عينيها ، وبما بدا على وجههــا من امارات الحياء والاهتمام ..

فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق ، فقال : « لقد صدقتك يا سالمة ، فاخبرينى متى يحين الوقت لكشف سرك ؟ »

قالت : « ان كشف هذا السر غير مقيد بزمان ، وانما هو مرهون بحادث ، اذ لايجوز كشفه الا بعد أن يقع هذا الحادث»

قال عبد الرحمن : « وما هو ذلك الحادث ؟ »

قالت : « لا أقوله الآن ، وانما يقربنا منه صدق النية فى فتح هذه البلاد .. وهذا هو الأمر الذى وهبت نفسى له ، فاذا اذن مولاى أن أساعده فيه فعلت »

فلبث عبد الرحمن صامتا ، وهو مطرق يفكر فيما سمعه ويحلله فى ذهنه ، فرأى مفتاح السر كله فى معرفة والد الفتاة مريم .. فرفع بصره الى سالمة ، وقال وهو يلاعب أطراف حمائل السيف بين أنامله : « لابأس من تأجيل الاطلاع على سرك وانما ألتمس منك أمرا ، فهل تصدقيننى فيه ؟ .. »

قالت : « اذا استطعت ذلك فعلته »

قال عبد الرحمن : « أريد منك فقط أن تخبرينى من هو والد هذه الفتاة ، وأين هو ؟ »

فلما سمعت سؤاله بغتت وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سحنتها وبدت الكآبة فى جبينها وحول فمها ، وأطرقت مدة لا تتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد أبرقت عيناها بما ترقرق فيهما من الدمع وقالت : « تسألنى عن مكان أبيها وأنت ترانى فى هذا الثوب الأسود ؟ » . قالت ذلك وأمسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة ، وقد غصت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان ، فقال : « لم أتعمد أن أذكّرك بمصابك ، بوفاة زوجك .. وانما أردت معرفة اسمه ، ولا أرى مانعا من اطلاعى عليه ونحن فى خلوة ليس فيها ثالث ، وأعاهدك على كتمان ذلك عن كل انسان . انني لا أطلب منك الاطلاع على سرك ، وانما أريد معرفة زوجك » قال ذلك وهو يتوقع اجابة على سؤاله

أما هى فلما رأت الحاحه فى معرفة اسم زوجها بدا الغضب على وجهها ، وقالت : « يظهر انى أخطأت فيما عرضته من خدمتكم وأنا أصادف ما أراه من الالحاح علىّ والضغط على أفكارى . لو كان التصريح باسم ذلك المسكين ممكنا لفعلت ولم أكلفك هذا العناء فى السؤال ، ثم انى لا أرى فائدة من ذكره الآن .. وسيأتى وقت تعرف فيه كل شىء »

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها ، وازداد رغبة فى معرفة سرها ،

ولكنه لم ير أن يرغمها على ذلك قهرا مراعاة لشعورها ،وطمعا فى الانتفاع بخدمتها ، فجاءها من جهة أخرى ، فقال : «حسنا.. بقى سؤال واحد أرجو ألا يكون حظى فى الجواب عليه مثل حظى فى سواه .. هل أقوله ؟ .. »

قالت : « قل ما بدا لك »

قال عبد الرحمن : « أرى ابنتك من الجمال فيما ليس بعده غاية ، وهى فى سن الزواج ، وأنت وحيدة .. فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين فى حمايته ؟.. ولا ريب عندى انك تجدين من الطلاب من تقر به عينك لما هى عليه من الجمال والهيبة »

فالتفتت سالمة وقد انقشعت مظاهر الكآبة عن محياها ، وتحول انقباضها الى انبساط ، وقالت : « أما هذا السؤال ، فلا بأس من الجواب عليه » .

فاستبشر عبد الرحمن وقال : « وما هو ؟ »

قالت : « ان الابنة مخطوبة منذ طفولتها »

قال عبد الرحمن : « لمن ؟ .. »

قالت : « لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين ، باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس »

قال عبد الرحمن : « وما اسمه ؟ .. »

قالت : « لست على يقين من معرفة اسمه الآن »

قال عبد الرحمن : « وهل تعرفه ابنتك ؟ .. »

قالت : « لا أعرفــه أنا ولا تعرفــه هى ، ولا يعرفه أحــد سوانا .. »

فدهش عبد الرحمن ، وقال : « كيف يكون ذلك يا سالمة ؟.. يظهر انك تمزحين أو تدافعين بالباطل »

قالت : « أقسم بالرب المعبود اننى أقول الصدق »

فقــال عبد الرحمن : « وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسما ولا لقبا ؟ .. »

قالت : « أما لقبه ، فاننا نعرفه .. »

قال عبد الرحمن : « وما هو ؟ .. »

قالت : « يلقّب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف .. ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل »

***

ففهم عبد الرحمن انها تريده هو ، اذ لا يصدق ذلك اللّقب على سواه . ولذلك أراد أن يتحقق من ظنه ، فقال وهو يتجاهل مرادها : « ومتى يكون الزواج ؟ .. وأين ؟ .. »

قالت : « يجوز الزواج فى أى وقت يريده الخطيب ، ولكنه لا يكون الا وراء نهر لوار »

قالت ذلك وهى تنظر الى عبد الرحمن نظرة استفهام ، كأنها تقول له : « هل فهمت من هو ؟ .. »

- ١٢ -

نهر لوار

فأدرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الزواج بذلك المكان هو تعجيل الفتح حتى يقطع المسلمون نهر لوار ، وهو آخر حدود اكيتانيا من جهة الشمال ، فى الطريق الذى هم سائرون فيه . فثار فى خاطره حب الفتح ، وأحس من تلك الساعة بميل الى مريم بنت سالمة ، وكان قد استلطفها منذ شاهدها فى ذلك المساء ، وهو فى شاغل من أمر الحرب والنصر وتنظيم الشئون ، فلما سمع ما قالته سالمة وتذكّر الفتاة وما فى عينيها من الجاذبية ، شعر بميل اليها أحياه فيه الأمل فى الظفر بها .. وذلك أمر طبيعى فى مثل هذه الحال .. فقد يرى أحدهم الفتاة مرارا ويستلطفها ، ولكنه لسبب من الأسباب لا يرجو الظفر بها ، فاذا تنسم خبرا يثير فى نفسه الأمل فى الحصول عليها يشعر للحال بانعطاف ينمو فيه حتى يصبح شغفا . ولا تقتصر هذه القاعدة على الحب ونحوه ، بل انها تنطبق على سائر مطامع بنى الانسان باعتبار ميولهم .. فقد يكون أحدهم محبا للسلطة مثلا ، ولا يكون له مطمع فيها لاحساسه بالعجز عنها بضعفه أو فقره ، فاذا ظهر له من بعض ثقاته ان ذلك فى امكانه شغف بها ، وبذل نفسه فى سبيل الحصول عليها . وقد أصاب عبد الرحمن الغرضين معا لأن عبارة سالمة أثارت حماسته لاتمام الفتح ، وأحيت فيه الميل الى

مريم .. فاكتفى بما دار من هذا القبيل ، لئلا يبدو منه ما لايليق بمكانته .. فتجاهل وعاد الى مجاراتها فى كتمان اسم زوجها وهدفها من الاندفاع الى مساعدتهم ، على أمل أن يعرف ذلك فى فرصة أخرى ، وقال لها : « دعينا الآن من هذا .. واخبرينى ما الذي تنوين مساعدتنا فيه لتحقيق هذا الفتح ؟ »

قالت : « ليس لى سيف أناضل به عنكم أو أشترك فيه معكم ، ولكننى خبرت طبيعة هـذه البلاد وعرفت من أحوالها ما لو عرفه المسلمون لفتحوها على أهون سبيل »

فقال عبد الرحمن : « وما ذاك ؟ »

قالت : « هل يخفى على الأمير عبد الرحمن ان الغاليين أهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوكم منها ؟.. وان الدوق أود حاكم اكيتانيا هـذه وجنده ليسوا أقرب الى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله ؟ »

قال عبد الرحمن : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « ان سكان هذه البلاد أخلاط من الروم والغال .. ومعنى ذلك ان الغاليين أهل هـذه البلاد الأصليين كانوا أمة كبيرة ، وقد ظلوا فى حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم فى القرن الأول قبل الميـلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر القائد الشهير ، وما زالت فى حوزتهم نحو خمسة قرون ، وقد ضعفت دولة الروم فهاجمتها قبـائل الجرمان من الشمال كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب .. والافرنج احدى

قبائل الجرمان ففتحوا غاليا هـذه واستولوا عليهـا ، ويعرف حكامهم بعائلة ميروفى نسبة الى أول من تولاها منهم . وتوالى الحكم فى هذه العائلة الى الأمس ، وقد أفضى الأمر الى ملوك ضعفاء طمع فيهم وزراؤهم وأمراؤهم فاقتسموا البلاد بينهم . ومن أقسامها اكيتانيا التى نحن فيها ، وآخر حدودها من الشمال نهر لوار ويحكمها الدوق أود صاحبكم ، ثم أوستراسيا وراء هذا النهر وحاكمها شـارل (قارله) وزير آخر ملوك الميروفيـة وكلاهما من قبائل الفرنك . ولكن كلا منهما ينظر الى الآخر بعين الحذر ، والأهالى ينظرون الى كليهما بعين المقت لعلمهم انهما انما يرغبان فى فتح بلادهم للتمتع بها . ثم جئتم أنتم والفتح اما لكم واما لهما . فالغاليون محكومون فى الحالتين ، ولا يهمهم لمن تكون الغلبة من الجندين الا اذا رأوا فى أحدهما ميزة على الآخر تضمن لهم مصلحتهم وراحتهم »

فلم يتمالك عبد الرحمن أن قطع حديثها بقوله : « وبالطبع هم يفضلون الافرنج لأنهم نصارى مثلهم ؟ .. »

فابتسمت سالمة وقالت : « ليس الأمر كذلك يامولاى .. ان الدين لا دخل له فى هذه الحرب ، وانما ساق قبائل الافرنج الى هذا الفتح حب السلطة والطمع فى الكسب ، ولذلك فانهم انقسموا فيما بينهم ، فان أود حاكم اكيتانيا التى نحن فيها الآن يحاذر من شارل حاكم اوستراسيا كما قدمت ، ويخشى سلطانه ، وكل منهما يجتهد فى الانتقـاص من الآخر فى عين الأهالى ..

وهؤلاء يبغضون كليهما لأنهم لم يروا فى معاملتهما ما يبشرهم بخير لما تعلمونه من عادتهم فى استعباد الرعية وابتزاز أموالهم وسائر قواهم .. خلافا للعرب عند أول الفتح ، فانهم لما فتحوا أسبانيا تركوا لأهلها الحرية فى كل معاملاتهم ، ولم يتعرضوا لهم فى شىء من دينهم ، وأفضل أمراء المسلمين فى ذلك موسى ابن نصير وابنه عبد العزيز .. وخصوصا هذا الأخير ، ولو لم يعجلوا عليه ـــ رحمه الله ـــ لفتحت هذه البلاد على يده .. اذ أحسَّ الأسبان فىأيامه أنهم انتقلوا منالضيق الىالفرج ، ولكنهم ما لبثوا أن ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من أمراء المسلمين ، ثم أفضت الامارة اليكم . وبلغنى انكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم فى محاسنة الناس وانصاف أهل الذمة ، ورعاية العهود معهم فيما يتعلق بكنائسهم وديانتهم ، وقد تحقق لى ذلك الآن .. فالغاليون اذا ضمنوا سلامتهم وسلامة أهلهم ومعايشهم على يد المسلمين ، فانهم يكونون عونا لهم على الفتح ولا تنس اليهود فانهم أنصاركم فى كل فتوحاتكم من أول ظهور الاسلام .. فهؤلاء انما نصروكم حينما تحققوا مما تنوونه من أسباب الراحة لهم ، وكذلك النصارى وغيرهم من أهل هـــذه البلاد . وأما ما يبدو لكم من شارات النصرانية والغيرة عليها فمحصور فى طائفة الاكليروس ، ومن يهمهم نصرة الكنيسة من بقايا الرومان ، ومن انتمى اليهم من الغاليين . أما قبائل الافرنج ، فبينهم من اتخذ الدين ذريعة للسلطة وكسب الأموال كما فعل

بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم »

فلما سمع عبد الرحمن قولها ، تحقق من سداد رأيه فيما شرع فيه من محاسنة أهل الذمة وتوخى العدل والانصاف ، وقال : « أنت تعلمين انى فاعل ذلك من تلقاء نفسى ، فما الذى تفعلينه أنت فى هذا السبيل ؟ »

قالت : « انى أقدم نفسى للذهاب فى أية مهمة تفرضونها ، والأفضل على ما أرى أن أتقدمكم فى البلاد التى تنوون المسير لفتحها ، فأغرس فى قلوب أهلها الاطمئنان للمسلمين وسلطانهم ، ويساعدنى على ذلك مبالغتكم فى اكرام نصارى بوردو وطمأنة قلوبهم ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم والمحافظة على أعراضهم وأرواحهم ، فاذا فعلتهم ذلك هان علىّ اقناع أولئك بأن المسلمين الفاتحين أهل حرمة وذمام ، يخافون الله ويعملون بالعدل ، وليس كما يتوهم بعض ذوى الأغراض ان المسلمين قساة القلوب لا دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا حنان فى قلوبهم يمنعهم من الظلم والعسف (١) . وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافقون جند المسلمين لمجرد الرغبة فى النهب والقتل ، ولم يكن أميرهم حكيما عاقلا مثل عبد الرحمن ليصلح ما يفسدونه مما رأيناه منه فى هذا المساء » .

فازداد عبد الرحمن اعجابا بتفكير تلك المرأة وغيرتها على المسلمين ، وقال : « افعلى ما يتراءى لك وانى فاعل بنصارى

(١) رومى — الجزء الثالث : رينو

يوردو ما تريدينه ، فما الذى يرضيهم ؟ »

فقالت : « انما يرضيهم المحافظة على شعائرهم الدينية واستبقاء كنائسهم ومعابدهم ثم رد أسراهم بالفدية مثلما جرت العادة . وهناك أمر ذو بال أوجه نظركم اليه ، وذلك ان بيع أسرى النصارى الى اليهود مما يسىء الى النصارى لما تعلمه من الضغائن بين الطائفتين ، وخصوصا بعد ما ظهر من ممالأة اليهود لكم وتسهيل الفتح عليكم »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلا : « ولكن اليهود تجار نبيعهم الأسرى بالمال ، فمن أراد من أهل البلاد أن يفتدى أسيره افتداه منهم بالمال »

قالت : « ولكن بعض اليهود يبتاعون الأسرى للتنكيل بهم تشفيا مما كان النصارى يسومونهم اياه من قبل ، وكثيرا ما كان اليهود يبتاعون الأسرى النصارى ويذبحونهم (١) فاذا تجنبت هذا الأمر كان خيرا على كل حال »

— ١٣ —

الآنية

ولم تتم سالمة حديثها حتى سمعوا قرقعة وضوضاء خارج الفسطاط ، ثم دخل أحد الغلمان وهو يقول : « الأمير هانىء

(١) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الاول

بالباب ، ومعه أناس يحملون آكياسا »

ثم دخل هانيء ووراءه عبيد يحملون آكياسا وأدوات وهو يقول : « هــذه أدوات الكنيسة لم نستطع جمعها الا بشق الأنفس ، لأنها كانت قد وزعت بين أصحاب الغنائم » قال ذلك وأمر الرجال أن يفرغوا ما فى الأكياس بين يدى الأمير ، ولم تمض لحظة حتى امتــلأ البســاط بالشــمعدانات والصلبــان والكئوس وفيها الفضة والذهب ، فضلا عن أنواع من الملاعق والصحون والصور المذهبة والمفضضة وقطع من الذهب اقتلعوها من التماثيل الكبيرة التى لم يستطيعوا حملها من جدران الهيكل وأعمدته ..

فلما خرج الحمالون ولم يبق فى الخيمة الا عبد الرحمن وهانيء وسالمة ، التفت عبد الرحمن الى سالمة وقال لها : « هذه هى الآنية ، فماذا نفعل بها ؟ »

قالت : « أرى أن نرسلها الى أسقف الكنيسة فى بوردو مع رجل يخبره أن نهب هذه الكنيسة قد وقع بغير ارادتك .. ثم يعتذر له عن ذلك ويخبره بأن الأسرى باقون الى مساء الغد فى هذا المعسكر فمن أراد أن يفتدى أسيره افتداه ولا حرج عليه . وبعد رجوع الرســول أذهب أنا الى الأسقف ، فاغتنم فرصة اعجابه برفق المسلمين وعدلهم وأطلب اليه أن يحاول اقناع أهل البلاد الأخرى الواقعة فى طريقكم الى نهر لوار بالمراسلة بأن المسلمين أرفق بهم من الافرنج ، وانهم سيكونون تحت حكم

المسلمين أحرارا فى ديانتهم وعاداتهم وحكومتهم وقضائهم وسائر أحوالهم كما كان أهل الأندلس فى أول الفتح »

فلم يستطع عبد الرحمن أن يزيد على رأى سالمة كلمة واحدة ولم يزدد الا اعجابا بسداد رأيها وسعة اطلاعها فقال لها : « فليكن ما تقولين ، ويجب أن يبقى كل ما دار بيننا مكتوما عن كل انسان غيرنا ، لئلا يفسدوا سعينا ، والتفت الى هانىء وقال له : « اعهد الى رجل من خاصتك تثق برجاحة تفكيره وحسن أسلوبه أن يوصل هذه الآنية الى الأسقف ويبلغه هذه الرسالة » ..

ولم يكن هانىء أقل اعجابا بسالمة من عبد الرحمن . فلما سمع رأيها استحسنه ، وزاد احترامه لها وحبه لابنتها ، وبادر فى الحال الى رجال حمّلهم الآنية وخرج لانجاز تلك المهمة

ثم نهضت سالمة والتمست من عبد الرحمن أن يرسلها الى مقر ابنتها لتبيت هناك الى الصباح ، ثم تخرج لمهمتها .. فأراد عبد الرحمن المبالغة فى اكرامها فطلب هانئا مرة أخرى وقال : « ادع لى رجلا من خاصتك يصحب سالمة الى خباء النساء حيث تقيم ابنتها »

فاعتبر هانىء تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال : « ومثل هذه السيدة الفاضلة لا يليق لخدمتها غير الأمراء .. انى ذاهب الى قرب ذلك الخباء ، ولذلك فانى سأصحبها اليه »

فاستحسن عبد الرحمن شعور هانىء فى احترام سالمة تشجيعا

لها فابتسم وقال : « بورك فيك .. انها أهل لأكثر من ذلك »
فمشت سالمة فى اثر هانىء وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره ما شاهده فى ذلك المساء من الغرائب ، وتوسم خيرا فى نجاح حملته وزاد رغبة فى تفقد جنده والسهر على جمع كلمته

— ١٤ —

الخباء

أما مريم فانها خرجت مع خادمها حسان من خيمة الأمير عبد الرحمن والغلام دليلهما الى الخباء كما تقدم .. وكان الليل قد أسدل ستاره فمكثت مريم وحدها وقد شغلها حب هانىء

وأحست بجاذبية تجذبها نحوه لا تدرى ما هى .. وقد ذهب من خاطرها ما كانت تسمعه من والدتها عن أهمية مستقبلها ، والواقع انها لم تسمع منها شيئا صريحا بهذا الشأن .. ولكنها كانت تحملها على اتقان النطق باللغة العربية ، وتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية وسائر الألعاب الرياضية ، حتى خشنت عظامها وقوي عضلها وشبت على الحمية وعزة النفس والشجاعة ، ولكن رقة الجنس اللطيف ظلت غالبة على طبيعتها .. وانما زادتها تلك الرياضة صحة ، وأكسبت وجهها رونقا واشراقا

مشت فى اثر الغلام وبجانبها حسان يتوكأ على عكازه بنشاط وخفة ، وقد تزمل بقبائه وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من

كل أجزائها برأسه ، وكان رأسه حليقا فظهرت كأنها جلد ثان له ، فمروا فى أثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة ، بعضهم فى الخيام والبعض الآخر فيما بينها وقد علت الضوضاء . وأكثر ما يسمع من أصوات الرجال عبارات الاختصام على قسمة الغنائم ، وخصوصا ماكان ثمينا من الأثواب الموشاة أو الآنية الذهب أو الفضة أو الدروع أو الطنافس ، فربما أفضى الخصام فى بعضها الى تجزئتها الى قطع وتوزيعها بين المختصين على حين ان أجزاءها لا تفيدهم شيئا . وكانت مريم تسمع أصوات الأمراء يهددون رجالهم أو يوبخونهم ، ولا تسل عن قلبها حينما سمعت صوت هانىء فى خيمته على بعد بضع خطوات منها وهو يحاسن بعض الناس ، ليقنعهم بتسليم آنية الكنيسة عملا باشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اختلج قلبها فى صدرها ، وودت لو أنها وقفت هناك برهة لتسمع حديث حبيبها وتستأنس بصوته ، وتمنت لو أن الخباء كان على مقربة منها ليمر بها هانىء اذا خرج . فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال : « انه خارج هذا المعسكر يامولاتى »

قالت : « وهل هو بعيد عنا ؟ .. »

فمد الغلام عنقه وهو ينظر نحو الأفق ثم قال : « ان الخباء ياسيدتى بالقرب من هذه النار » وأشار بأصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر

فنظرت مريم فاذا هى لا تزال بعيدة عن المكان فقالت :

« ولماذا جعلوا الخباء بعيدا بهذا المقدار ؟ .. »

قال : « لأنه دار النساء ، والعادة فى هـذه الدور أن تقام خارج المعسكر .. ومتى وصلنا الى هناك ترين أخبية عديدة لنساء الأمراء والقواد وغيرهم من رجال الجند ، ولولا من يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسك فى مدينة من النساء » ..

فصبّرت مريم نفسها وسكتت وهى تجدّ فى المشى ، وحسان الى جانبها يمشى ساكتا ، وكأنه استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة ، حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم أصواتا آتية من أطراف المعسكر تشبه أن تكون تهديدا فأجفلت وتراجعت فطمأنها حسان قائلا : « لا تخافى يا بنية ان حراس الجند يطلبون منا شعار الليل ، فاذا لم نجبهم به اشتبهوا فى أمرنا »

فقالت : « وكيف ذلك ؟ .. وما هو الجواب ؟ .. »

قال : « هو عند هذا الغلام » والتفت اليه ليسأله فاذا به يقول بصوت عال جوابا على ما قاله الحراس : «طليطلة وقرطبة» فتحول حسان نحو مريم وقال : « هـذا هو شعارهم الذى يتعارفون به اليوم » . فسكت الحراس ، ومشت مريم وحسان على أثر الغلام حتى انتهوا الى الأخبية فسمعوا من حراسها مثل ذلك النداء فأجابوا عليه مثل ذلك الجواب . واتجه بهم الغلام الى خباء منفرد أمامه نار عظيمة فعلمت مريم انه الخباء الذى

تقصده . فلمـا دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون فى تلك البلاد والسود والزنوج الذين رافقوا الحملة من افريقيا وأكثرهم من الخصيان . ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت فيه ، فاذا هو يتكون من بناء من نسيج أحمر متين مربع الشكل قائم على أعمـدة من الخشب مخيَّطة بالقماش . وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعا فى خمسين ، يكتنفه سـور من ذلك النسيج مسند بالأعمدة ومشدود الى الأرض بالأوتاد والأمراس . وسـقف الخباء يشبه قبـة كبيرة صنعت من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة ، وقد قسم الخباء داخل السور الى غرف وأفنية يفصل بينها جدران من نسيج أخضر مسندة بالعمد أيضا

وبينما هى تتأمل فى ذلك البناء أقبل عليهم رجل من خصيان الخباء أبيض اللون ، عرفت مريم من سحنتـه انه صقلبى .. فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما . وكان الغلام قد أفهم الخصى المهمة التى قدم من أجلها فتركه وهو يقول بلسان عربى تخالطه عجمة : « انى ذاهب الى القهرمانة قيمـة الخباء أستقدمهـا لاستقبالها » ومضى حتى دخـل الخباء فوقفت مريم وحسـان والغلام فى انتظـاره ثم عاد وهو يقول : « تفضـلى يامولاتى بالدخول ويبقى خادمك معنا فى اكرام ورعاية »

فمشت مريم وقـد التفت بثوبها وأصلحت نقابها الأسـود وتعهـدت شعرها استعدادا لاستقبال القهرمانة قيمة الخباء .

فدخلت باب الخباء فى أثر الخصى ، فرأت نفسها فى دهليز انتهت منه الى شبه قاعة فيها مصباح أضىء بالزيت وقد علقوه بحبل فى سقف الخباء بين عمودين من أعمدته ، ولم تشك مريم فى انه من مصابيح احدى الكنائس فى البلاد التى فتحوها . وكانت أرض الخباء مفروشة بأبسطة ثمينة ، وكان بالخباء معظم ما يحتاجون اليه من الآنية الضرورية كأن أهله مقيمون هناك منذ أعوام ..

فلما دخلت القاعة سبقها الخصى وأخبر القهرمانة ، فتقدمت لاستقبال ضيفتها . وكانت القهرمانة مفرطة فى البدانة ، ثقيلة الحركة ، عريضة الوجه ، كبيرة العينين ، خشنة الصوت ، متدلية الخذين ، غليظة الشفتين ، قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر متفرق مستطيل ، وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع ، وحول زنديها الأساور والدمالج ، وفى أذنيها الأقراط وفى رجليها الخلاخل ، حتى ليكاد الناظر اليها وهى تمشى وتتوكأ على فخذيها يتوهم انها تنوء تحت أثقال تلك الحلى ، مع ان دلائل القوة ظاهرة فى ضخامة وجهها ووضوح تقاطيعها . وكان بينها وبين عبد الرحمن قرابة نسائية ، وقد ألقى اليها مقاليد خبائه وفوض اليها تدبير شئون نسائه وجواريه ، وفيهن القوطيات والصقلبيات والروميات والبربريات وغيرهن . فلما رأت مريم وما هى فيه من الجمال والهيبة وخفة الروح أحبتها ، فاستقبلتها ورحبت بها وخصوصا

بعد أن علمت برغبة عبد الرحمن فى اكرامها . وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة ، فلما سمعت ترحابها إستأنست بها ، وهمت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها : « أهلا بك ياحبيبتى .. ما اسمك ؟ .. »

قالت : « اسمى مريم » ولفظت الراء غينا

فاستلطفت تلك اللثغة منها ودعتها الى الجلوس على البساط ، ثم نادت بعض الخدم فجاءوها بالطعام ، وكانت لم تذق طعاما من صباح ذلك اليوم ، فأكلت ثم جلست والقهرمانة تحادثها وتسألها أسئلة كثيرة ومريم تجيبها وهى فى شغل بما جال فى خاطرها من أمر هانىء ، وكلما تذكرته خفق قلبها وأسرعت ضرباته .. فلما رأتها القهرمانة قلقة منقبضة ، حسبت ذلك من أثر الوحشة . وتذكرت ما أوصى به عبد الرحمن من اكرامها ، ففكرت فى طريقة تدخل البهجة فى نفسها . وبعد اعمال الفكرة مدة ومريم صامتة قالت العجوز : « يظهر ان حديث العجائز لم يرق لك وقد أوصانى الأمير باكرامك ورعايتك ، ولعل من أسباب شعورك بالوحشة قرب عهدك بالأسر ويسوءك انك أخذت من أهلك ، فاعلمى انك ستكونين عندنا كأنك بين أهلك . وانى سأدعو الك من نساء هذا الخباء امرأة أصلها من أهل هذه البلاد، وقد تعلمت العربية ، وهى بارعة الجمال ولها منزلة رفيعة عند الأمير فأظنك اذا لقيتها استأنست بها » . قالت ذلك وصفقت فدخل خصى من الصقالبة وتأدب فى موقفه فقالت له : « قل

لميمـونة ان القهرمانة تدعوك اليهـا » فخرج الخصى فالتفتت القهرمانة الى مريم وقالت : « أظنك تستأنسين بميمونة لأنها من أعز أهل هذا الخباء على الأمير وهى فى الأصل من جوارى لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذه البلاد . أظنك تعرفين حكايته مع المنيذر الافريقى أحد أمراء المسلمين الذى كان واليا فى الجبال على حدود اسبانيا وكان قد أبرم مع الدوق أود معاهدة لا تعرف فحواها ، ولكننا علمنا ان أود زوج ابنته للمنيذر المذكور، فخشى أميرنا عبد الرحمن مما ينطوى عليه ذلك الاتفاق ، فلما مر بالجبال وهو قادم لهذا الفتح قتل المنيذر واستولى الجند على أمواله ونسائه وأرسلوا امرأته لمباجة الى الخليفة فى دمشق . فكان من نصيب الأميرعبدالرحمن ميمونة هذه . ويقال انها كانت أعز جوارى لمباجة اليها وأشبههن بها جمالا وقدا وتعقلا ، وسترينها الساعة »

— ١٥ —

ميمونة

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصى ولم يتكلم فعلمت ان ميمونة قادمة فى اثره . ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجوانى واسع الكمين طويل الأردان ينسحب وراءها مع طول قامتها واعتدالها ، ولها شعر ذهبى طويل قد ضمتـه حزمة واحـدة وأرسلته على ظهرها ، ولو تأملته جيدا لرأيته ذهبيا ناصعا ، واذا

تفرست فيه وأنت الى جانبها رأيت فيه ميلا الى الشقرة اللامعة . ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتهما طويلة الأهداب سوداءها . وترى فى عينيها لمعانا يدل على الذكاء والدهاء أكثر مما يدل على الصدق والوفاء . وكانت صغيرة الأنف مطمئنة الفم ، رقيقة الشفتين ، بارزة الذقن ، بيضاء البشرة ، وخصوصا العنق مع صفاء اللون . فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها من الاعجاب بما يتجلى على وجهها من الهيبة والجمال ، ورأت نفسها مظلمة منقبضة بما التفت به من الكساء الأسود

فلما دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت ابتسامة انفتح لها قلب الفتاة ، وأحست للحال بأنس أنساها ما كانت فيه من القلق ، وأجابتها بابتسامة يتوسم المتفرس فيها غير ما يتوسمه فى ابتسامة تلك ، ولا يميز ذلك الا الناقد البصير . دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت على موعد من لقائها أو كأنها تعرفها من زمن طويل ، فازدادت مريم استئناسا وطمأنينة ونسيت ما سبق الى ذهنها من التهيب عند مقابلة القهرمانة . أما هذه فانها عندما دخلت ميمونة خاطبت مريم قائلة : « هذه هى ميمونة التى أخبرتك عنها الساعة فأرجو أن تستأنسى بها وترتاحى الى مجالستها » وأشارت الى ميمونة وقالت : « هـذه ضيفة الأمير عبد الرحمن قد بعث بها الينا وأوصانا برعايتها »

فجلست ميمونة الى جانب مريم وهى تقول : « أهلا بالضيفة

الكريمة ، من أين أتيت ياحبيبتى ؟ » . قالت ذلك بكلام عربى تخالطه لهجة افرنجية ، فأدركت مريم من ملامح وجهها ومن لهجتها انها افرنجية الأصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها :
« قد كنت فى جملة أهل بوردو الذين قضى عليهم بالوقوع فى أسر هذا الجند »
قالت : « هل قبضوا عليك وحدك وليس معك أحد من أهلك ؟ .. »
قالت : « كلا .. ولكنهم قبضوا على والدتى أيضا وخادم شيخ تركته مع خدم هذا الخباء خارجا »
قالت : « أراك تتكلمين العربية جيدا وتقولين انك من أهل بوردو فكيف ذلك ؟ .. »
قالت : « لا أدرى السبب ولكن هذا هو الواقع » . قالت ذلك وهى تعلم ان والدتها لا تريد التصريح بأكثر منه

فقالت : « وهل قتل أبوك فى هذا الفتح ؟ .. »
قالت : « كلا .. »
فقالت : « وهل أسر ؟ .. أو فر ؟ .. »
فسكتت وأومأت برأسها أن : « لا هذا ولا ذاك .. »
فأدركت ميمونة أن والدها توفى من قبل ، ولكنها لم تكتف بذلك فقالت : « وما اسم والدتك ، لعلى أعرفها ؟ .. »
قالت : « اسمها سالمة .. »
قالت : « هى اذن عربية .. »

قالت : « لا أدرى .. »

وكانت ميمونة فى أثنـاء تلك المحادثة تتفرس فى وجه تلك الفتاة وتستحث ذاكرتها لتستحضر صورة مثل صورتها ، اذ خيل لها انها تعرفها من قبل .. وأطالت السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها ، فلما رأتها قطعت الحديث بقولها : « لا أدرى » عدلت عن زيادة البحث ، والتفتت الى القهرمانة فرأتها قد أدلت رأسها على صدرها ونامت وأخذت فى الشخير ، فقالت لمريم : « هلمَّ بنا الى غرفتى فتمكثين عندى أثناء هذه الضيافة »

فأطاعتها مريم ونهضت معها ، وتحولت الى غرفة من غرف الخباء فجلستا هناك ، وقـد عادت ميمونة تستنجد بذاكرتها لعلها تستحضر صـورة ذلك الوجه وأين شاهدته ، ومريم فى غفلة عن ذلك وفى شاغل مما عاد الى ذهنها من الهواجس بشأن هانىء وما تركه فى فؤادها من لواعج الحب ، فغلب الانقباض عليها وبدت فى وجهها ملامح الاضطراب

وظلتا صامتتين مدة وكل منهما تضطرب فى أحلامها ، واذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهى تنادى : « ميمونة .. مريم »

— ١٦ —

سرّان

فذعرتا وخافت ميمونة من غضب القهرمانة لئلا تعد خروجها

من عندها على تلك الصورة ذنبا ، فتشكوها الى الأمير أو تسيء معاملتها لأنها الآمرة الناهية فى أهل ذلك الخباء .. وللقهرمانات نفوذ عظيم فى بيوت الأمراء والخلفاء والسلاطين فى كل العصور، واذا كان الأمير أو الخليفة ضعيفا أصبحت القهرمانة صاحبة الأمر والنهى حتى فى أعمال الحكومة ، تعزل وتولى وتسجن وتطلق كما تشاء .. فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال ، فنهضت مريم معها ومشيتا نحو القاعة ودخلتا ، واذا هناك امرأة بلباس أسود يجللها من رأسها الى قدمها .. فلما رأتها علمت انها والدتها فتقدمت اليها وسلمت عليها فقبّلتها سالمة ، أما ميمونة فلم تكد تتفرس فى وجه سالمة حتى انجلت لها الصورة التى كانت تستحث الذاكرة فى استحضارها ، فبدت فى وجهها امارات الاضطراب والبغتة ولكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهى تهش لها وترحب بها . أما سالمة فحين وقع نظرها على ميمونة عرفتها فخفق قلبها دهشة لأنها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا فى أوربا ، فردت السلام عليها ببرود وهى تتفرس فى وجهها لتحقق ظنها فيها ، وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كقولها : « لقد سرنى انك هنا سرورا مزدوجا لسببين : الأول اننى استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتى مريم برؤيتك ، وان لم يسبق لى شرف التعرف اليك ، والثانى لأن نداء خالتى القهرمانة لم يكن نتيجة غضب عليّ » . قالت ذلك وضحكت وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ،

ثم عادت الى الكلام وهى تعبث بكم ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان ، وقالت : « مرحبا بك ، لقد أتيت أهلا فعسى أن نقضى مدة اقامتنا هنا معا بسرور »

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها اليهـا ، وقالت : « ولا تلومينى اذا أحببت ابنتـك من أول نظرة فانها تعشق لما خصتها به العناية الالهية من اللطف والجمال، فلا غرو اذا لاقت من الأمير عبد الرحمن هذه العناية والاكرام »

وكانت ميمونة تتكلم وهى تضحك فى ظرف ، وسالمة تحدق فيها وتتبين لهجة كلامها ونغمة صوتها لتحقق ظنها فى معرفتها ؛ واستغرقت فى التفكير ، وتحيرت فيما تعمله بعد أن علمت حقيقة تلك المرأة التى سمَّت نفسها ميمونة وما هى ميمونة ، وتظاهرت بأنها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعوة المسلمين ، وقد تكون بلاء كبيرا على الجند وأهله .. فتحيرت سالمة بين أن تكشف أمرها أو أن تكتم خبرها وتتجاهل .. على انها لاحظت من ناحية أخرى ان ميمونة عرفتها وعرفت حقيقتها ، فخشيت ان تبوح بها الى أحد وهى تود بقاء أمرها مكتوما كما علمت ، فعزمت على التجاهل مؤقتا لترى ما يكون فقالت : « انه ليسرنى أيضا أن تلازم ابنتى أختا حنونة مثلك ، وأن تكون فى رعاية الخالة . أيدها الله». قالت ذلك وأشارت الىالقهرمانة فضحكت العجوز حتى بانت لثتها وليس فيهـا من الأسنان القواطع الا اثنتان ، واحدة فى الفك العلوى ، والأخرى فى الفك الأسفل ،

وبينهما ثغرة مربعة الشكل ثم قالت : « ان ابنتك يا سالمة ضيفة عندي وما للضيف غير الكرامة ، وليست هى من نساء هذا الخباء أو سراريه أو جواريه ليجرى عليها الأمر والنهى »

فقطعت سالمة كلامها قائلة : « لا أعدها الا تحت أمرك ، واذا شئت أن تعتبريها ابنة لك كان ذلك من بعض فضلك » . فهمَّت القهرمانة بالوقوف وهى لبداتنها لا تستطيع النهوض الا بالاعتماد على يديها والتوكؤ كأنها تحمل حملا أثقل كاهلها . فلما قاربت الوقوف ، قالت : « هى ابنتى وأعز من ابنتى ، ولذلك فانى عهدت برعايتها الى أحب أهل هذا الخباء للأمير عبد الرحمن » وأشارت الى ميمونة

فأتمت ميمونة عبارتها قائلة : « كونى مطمئنة يا سالمة ، فان مريم عندنا كأنها فى رعايتك ... ومن يستطيع أن يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه . ولا يغرك مجيئها الينا باسم الضيفة ، فان الأمير لايلبث أن يراها حتى يتعلق بها ويود استبقاءها عنده ، فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا » . قالت ذلك ونظرت الى مريم وابتسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغتة فى وجهها ، وخشيت أن يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها .. فتصاعد الدم الى وجهها حتى اصطبغ وأطرقت ، فظنت ميمونة انها أطرقت حياء على عادة الفتيات اذا خوطبن بمثل ذلك

فقطعت القهرمانة الحديث بقولها : « هلمَّ بنا الآن الى النوم ،

فقد مضى معظم الليـــل » وصفقت فخالط صـــوت التصفيق خشخشة الأساور والدمالج ، وجاء أحد الخصيان فقالت له : « أعد غرفة خاصة بالضيفتين »

فقالت ميمونة للقهرمانة : « اجعليها بقرب غرفتى ان لم تكن هى نفسها ، لأنى قد استأنست بالحبيبة مريم وهى استأنست بى » فأشارت القهرمانة الى الخصى أن يفعل ..

— ١٧ —

العقد

وبعد قليل عاد الغلام وقال انه أعد كل شىء ، فانصرفن جميعا وسارت سالمة ومريم فى اثر الغلام نحو الغرفة ، وقبل أن تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجا سريعا لأنه يشبه صهيل جواد هانىء ، فلم تتمالك أن سألت والدتها قائلة : « كأنى أسمع صهيل فرس الأمير هانىء ، فهل هو هنا ؟ .. »

قالت : « لقد جاء معى الى هذا المكان ، وكنت أحسبه قد عاد فور وصوله لأنه ســائر فى مهمة ذات بال تتعلق بأسقف بوردو ، فالظاهر انه فى شغل مؤقت هنا ، ثم ينصرف »

فتوسمت مريم من بقائه هناك خيرا ، ودلّها قلبهـا على انه انما بقى لمشاهـدتها ، فانشغل خاطرها فى ذلك الأمر ، وظهر الارتباك على وجهها .. ولو تفرست أمها فيها لرأت فى عينيها

ارتباكا وتفكيرا وقلقا ، ولكنها لم تنتبه لشيء من ذلك لانشغالها بأمر نفسها واستعدادها للمسير فى الغد الى بوردو

أما القهرمانة ، فلما خلت بنفسها أخرجت من جيبها منديلا مطويا على شيء فى داخله ، ومشت نحو المصباح وفتحت المنديل ، وأخرجت منه عقدا من اللؤلؤ بسلاسل من الذهب ، وفى وسط العقد صليب من الذهب مرصع بالياقوت والماس على شكل بديع ، فوضعت العقد على كفها تقلبه وهى تبتسم وتقول فى نفسها : « لابد من غرض لهانىء فى اهدائه هذا العقد لى ، والا فليس فى وجهى ولا فى قامتى ما يدعو الى الشغف أو العشق ، ولا هو يحتاج الى وساطتى لدى عبد الرحمن لأنه صاحب الكلمة النافذة عنده » ثم أمسكت العقد بأحد طرفيه بين اصبعيها ورفعته أمام المصباح فأبرق بما فيه من الحجارة الكريمة ، فقالت : لاشك ان هذا العقد من جملة ما أصاب هانىء من الغنائم فى وقعة اليوم ، فلا يهمه أن يتنازل عنه.. ولكن لابد له من غرض فى اهدائه » ثم تنبهت بغتة وقالت فى نفسها : « عرفت غرضه .. ولا بأس به » ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له : « قل للأمير هانىء أن يوافينى الى غرفتى من بابها الخارجى .. خذ بيده الى هناك » قالت ذلك وأعادت العقد الى جيبها ، ومشت نحو الغرفة وهى تتوكأ وتترجرج فوصلت اليها قبل هانىء بقليل ، فجلست على وسادة بجانب جدار الخباء ، ثم أقبل هانىء وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ ، وقد أرخى العباءة فانفتحت عن

صدره فبانت الدرع من تحتها ، وحول خصره حمائل يتـدلى منها سيفه المعهود .. دخل مسرعا حتى اقترب من القهرمانة وهى جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له : « مرحبا بالأمير هانىء .. تفضل اجلس »

قال : « لا صبر لى على الجلوس يا خالة لأنى ذاهب فى مهمة عاجلة وقد أحببت أن أراك قبل ذهابى »

قالت : « بورك فيك يا بنى ، هل من حاجة أقضيها لك ؟ »

فتبسم هانىء وقال : « لى حاجة سهلة جدا لا أظنك تضنين بها علىَّ » ..

قالت : « وما هى ؟ .. »

قال : « أرأيت مريم ؟.. احب أن أراها وأخاطبها ســاعة بحضورك حتى تكونى على بينة من سلامة نيتى »

قالت : « أتراها الآن ؟ .. »

قال : « كلا .. غدا صباحا بعد ذهاب والدتها .. ولست أشك فى انك ستجيبين سؤالى ، وليس فيه ما يخشى منه عليك »

فتنحنحت القهرمانة وضحكت ، وأشارت بعينيها انها ستفعل ما يريده ، فهمَّ بيدها ليقبلها ، فمنعته .. فخرج وانصرف

أما مريم فقد تركناها مع والدتها فى طريقهما الى مكان النوم ، وهى غارقة فى بحار الهواجس ووالدتها لا تخاطبها ، فوصلت الى غرفة جدرانها الأربعة من القماش السميك .. وفى أرضـها بساط عليه فراش . وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء

معلقة بخيط ، فجلستا على الفراش ومريم لا تزال ساكتة . فلما استقر بهما الجلوس قالت سالمة : « نحمد الله يا بنية على نجاتنا من هذه الوقعة ونجاحنا فى اقناع أمير هذا الجند بما نريده وفيه خيره وخير هذه البلاد .. واعلمى يا مريم انى ذاهبة فى صباح الغد الى أسقف بوردو ، وربما أبقى عنده يوما أو يومين لقضاء بعض المهام ، فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ .. »

فقالت مريم : « ولماذا هذا الغياب ؟.. وما هى تلك المهام التى تقتضى أياما للفراغ منها ؟ .. وأنا لم أفارقك قبل اليوم مطلقا ، فهل أستطيع البقاء وحدى بين أناس لا أعرفهم .. اتركى اذن عندى حسانا فانى أستأنس به »

قالت : « انى فى حاجة اليه فى هذه المهمة .. والا فان غيابى يطول كثيرا »

قالت : « لقد شغلت بالى .. هل تكشفين لى عن سبب ذلك الغياب ؟ .. »

قالت : « لا أخفى عليك يا بنيـة انى اتفقت مع الأمير عبد الرحمن على أن أكون واسطة بينه وبين الغاليين سكان هـذه البلاد الأصليين ، على شرط أن يعاملهم بالرفق والاحسان كما عامل موسى بن نصير وابنه عبد العزيز نصارى الأندلس عند فتحها ، وأنا ذاهبة فى صباح الغد الى أسقف بوردو فألاقيه بعد أن تكون الآنية قد وصلته وتأكد من صـدق أمير المسلمين ، فأستعين به وأستعين بسواه من سراة هذه المدينة فى اقناع سراة

البلاد الأخرى ، وأساقفتها وكهنتها بأن المسلمين خير لهم من أود وغيره من أمراء الافرنج ، وأنا أعتقد انهم اذا وافقونى على ذلك أفلحوا .. واعلمى يا مريم انى كاشـفتك بسر يجب أن يبقى مكتوما عن الجميع »

ولم تكن مريم تهتم بهذا الحديث مع أهميته لمـا جاش فى خاطرها من أمر هانىء ، وودت لو انها تعود الى ذكره لعلها تستطلع شيئا من أمره . ولكنها لم تستطع ذلك لأن والدتهـا نهضت لتبديل ثيابها التماسا للنوم .. فسايرتها مريم وذهبت الى فراشها ، ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليـل ، وهى تتوقع أن يناديها هانىء أو يناديها أحد عنه ، فلما طال انتظارها يئست من ذلك ..

— ١٨ —

دسيسة

أما ميمونة فانها ذهبت الى مضجعها بازاء مضجع سـالمة لا يفصل بينهما الا الجدار ، وكانت مضطربة الخاطر لما شاهدته من سالمة ، فلقد بدا لها انها لم تدخل ذلك المعسكر الا لأمر هام فتظاهرت بالسكون وأصغت لما عساه أن يدور من الحديث بين سالمة وابنتها ، فسمعت ما دار بينهما .. فلما اطلعت على السر أهمها أمره كثيرا لأنه يحول دون الغرض الذى من أجله رافقت

تلك الحملة فباتت وهى تدبر الحيل وتهيىء الشراك

وقبل أن ينبلج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الأمير ، وكانت على موعد فى كل صباح مع رجل من الجند تزعم أنه كان من غلمانها يوم كانت بمعية لمباجة فى أيام المنيذر الافريقى ، فرأت فى أثناء خروجها فارسا قادما من المعسكر عرفت من زيّه ولون جواده انه هانىء ، فاستغربت قدومه فى ذلك الصباح ، فلما توارى عن بصرها ذهبت الى موعدها ، فمكثت هناك حتى جاءها الرجل وهو بربرى عليه ثياب الجند قصير القامة خفيف الشعر خفيف العضل ، فى الثلاثين من عمره ، وفى عينه حول شديد فاذا نظر اليك يوهمك انه ينظر الى رجل على مسافة بعيدة منك . فلما أقبل عليها تبسم وأشار بحاجبيه وبعينه الشاردة انه فى شوق شديد الى رؤيتها وانه قتيل هواها

فابتسمت ميمونة له وأظهرت الدلال وقالت له : « يظهر ياعدلان انك نسيت سيدتك وتغافلت عن وعدك ، فان الغنائم شغلتك عن ميمونة وظننتها تنسى مثلك »

فأعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ما له من المنزلة عند تلك الحورية ربة الجمال . وقد كان يعلم ان بينه وبينها فارقا كبيرا ، ولكنه كان يطمع فى حبها .. وكان يقنعه من ذلك الحب أن يسمع مثل تلك العبارة ، فهو ممن يسمونهم « أذناب العشاق » لأن العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل

الذى يملأ القلبين ، وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الأزهار أو عقدا من الجوهر ، ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك ، و « ذنب العشاق » وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها ، كايصال كتاب ، أو ابتياع بعض حاجات الطعام ، أو نحو ذلك . وكان عدلان من النوع الثالث ، وقد جعله يعشقها ويتفانى فى خدمتها ما كانت تبديه له من التلطف ، حتى أطلعته على بعض سرها ، ووعدته بالرضا التام حين يتمم لها خدمة وعدها باتمامها منذ تشتت شملها بقتل المنيذر الافريقى الذى ذكرناه فى غير هذا المكان . فلما سمعها تعاتبه وتستعطفه ابتدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الولهان وقال : « كيف تقولين ذلك يامولاتى وأنت تعلمين اندفاعى الى خدمتك منذ أعوام . وأما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه أولئك العرب منها خصوصا اليوم ، فانهم بعد أن وزعوا الغنائم بيننا عادوا فاسترجعوها وأهانوا الأمير بسطاما اهانة ليس بعدها اهانة »

قالت : « الأمير بسطام ؟.. وكيف تركته يقبل ذلك ، ولماذا لم تحرضه على المطالبة بحقه .. الى متى هذا الذل ؟ .. »

قال : « لقد حرضته ولكن غريمه صعب لاينال .. »

قالت : « ومن هو غريمه ؟ »

قال : « هو الأمير هانىء نفسه وأظنك رأيته قادما فى هذا الصباح الى هذا الخباء .. »

قالت : « نعم رأيته .. ولماذا قدم ؟ »

قال: « قدم لتلك الفتاة الجميلة التى بعثها الأمير عبد الرحمن اليكم بالأمس فانها غنيمة الأمير بسطام ، وقد أخـذها الأمير هانىء رغم أنفه وساعده الأمير عبد الرحمن على ذلك »

فقالت : « وهل رضيت هي بهذا العربى وفضلته على ذلك الأمير ؟ » ..

قال : « يظهر انها أحبت هانئا وتعلقت به »

فأدركت ميمونة ان الحب قد تمكن بين مريم وهانىء وان هانئا انما جاء فى ذلك الصباح لمقابلتها ، فرأت أن تغتنم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الأميرين فقالت : « وهل رضى بسطام بهذا الذل ؟ وكيف يرضى أن تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان ؟.. اذا قبل هو ذلك فأنا لاأقبل. هل لك أن تخبره انى سأبذل غاية جهدى لأرجع هذه الفتاة اليه؟ قل له ذلك دون أن تشعره بما دار بينى وبينـك . هل فهمت ياعدلان ؟ .. انه يسوءنى أن يستأثر هؤلاء العرب بالطيبـات ويحملونكم الأثقال والأخطار فتفتحون لهم الحصون وتجمعون لهم الغنائم ، ثم لا تنالون غير التعب والشقاء . ولكن لا بأس ، سوف ترى منى ما يسرك » ثم رأت وهى تخاطبه فارسا خارجا من خباء الأمير عرفت من سواد ثيابه انها سالمة تنطلق فى مهمتها ، وثبت لها ذلك من مسير حسان فى ركابها وهو يعدو خلفها ، فعلمت ان هانئـا سيظفر بعد ذهاب سـالمة بلقاء مريم فقطعت ميمونة حديثها مع عدلان بقولها : « اذهب انت الآن فى حراسة

الله » . قالت ذلك وتحولت نحو الخباء على عجل ، وظل هو واقفا ينظر الى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل حتى اذا كادت تتوارى التفتت نحوه وابتسمت ، فأحس كأنها ملَّكته الأرض وما عليها .. وخفق قلبه ابتهاجا ، وعاد ..

أما هى فلما أيقنت بوقوع التنافر بين هانىء وبسطام ، عادت الى التفكير فى وسيلة للايقاع بين هانىء وعبد الرحمن ، ليتم لها افساد أمر ذلك الجيش الكبير لعلمها ان فوزه انما يقوم على اتحاد هذين الأميرين . وكانت قد علمت ان عبد الرحمن انما أرسل مريم الى الخباء لتكون فى مأمن من سواه ، وعلمت أن « حب » هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن ، فعزمت على اشعال نيران الغيرة بينهما ، فسارت توا الى غرفة مريم فلم تجدها وبحثت عن القهرمانة فقيل لها انها فى غرفتها ، فتحقق ظنها .. فعادت الى غرفتها مسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تنال بها مأربها ، فنادت غلاما من غلمان الخباء كان فى الأصل من غلمان المنيذر الافريقى ، وأُخذ فى جملة من أُخذ من الأسرى ، وأصله من الافرنج الذين أتوا مع لمباجة بنت أود يوم زواجها بالمنيذر ، ولما أخذت ميمونة ظل هو فى جملة الخدم ، وقد استبقته هى لخدمتها والاستعانة به عند الحاجة ، فلما جاء الغلام قالت له : « أسرع يا داود الى الأمير عبد الرحمن ، هل لك أجنحة لتطير بها اليه ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى .. »

قالت : « طِر اليه على عجل ، وقل له ان ميمونة تقرئك

السلام وتقول لك بادر اليها الآن لأمر هام تريد أن تطلعك عليه فى هذه الساعة »

فقال : « حبا وكرامة » وتحول وسار وهو يثب كالغـزال النافر متجها نحو المعسكر ، وجلست ميمونة فى مكان ترى منه كل من يخرج من الخباء ..

— ١٩ —

لقاء الحبيبين

أما هانىء فانه جاء الى الخباء مبكرا ــ كما رأيت ــ لشدة شوقه الى لقاء مريم ، ولا نظنه قد نام كثيرا فى تلك الليلة . ولما وصـل الى غرفة القهرمانة اسـتقبلته واستمهلته ريثما تنصرف سالمة ، وسارت الى سالمة حتىتهيأت للخروج فودعتها .. فأوصتها سالمة بابنتها خيرا وركبت وسـار حسان فى ركابهـا ، فعادت القهرمانة وقد سرها أن لا تكون ميمونة فى الخباء لئلا تطلع على سر تلك المقابلة . فلما مضت سالمة صحبت مريم الىغرفتها فمشت معها وهى تفكر فى هانىء وبعده عنها ، فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت وتصاعد الدم الى وجنتيها ، وغلب عليها الحياء .. فأرسلت خمارها على عينيها ، وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها .. فأضفى عليها ذلك مزيدا من الجمال والجاذبية فى عينى هانىء . أما هو فقد كان أثناء انتظاره فى الغرفة على مثل الجمر ، وقد خيل

اليه أن الساعة التى مضت فى أثناء انتظارها بضعة شهور ، فلما سمع وسوسة الخلاخل والدمالج وراء جـدار الغرفة علم أن القهرمانة قادمة ، ثم ما لبث أن رآها تدخل ومريم فى أثرها ، فلما رأى اصطباغ وجه مريم بالحياء زاد هياما بها فنهض لاستقبالها ، فسمع القهرمانة تقول وهى تتظاهر بأن وجوده كان هناك اتفاقا :
« ما الذى جاء بك فى هذا الصباح ياحضرة الأمير ؟ »
قال : « لقد جئت لأرى وجهك يا خالة .. »
فضحكت القهرمانة وقالت : « لا أظن ان وجهى تعجبـك تجعداته ، وكأنى قد علمت بقدومك فأتيت اليك بهذا الوجه ، فهل تعرفه ؟ » ..
فابتسم هانىء وقد غلب عليه الغرام وقال : « لقد عرفتـه وكلفت به .. ولكن هل هو يعرفنى ؟ .. لست أدرى .. »
وكانت مريم مطرقة ، فلما سمعت كلامه رفعت بصرها ونظرت اليه ــ بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألأ فيهما ماء الحب ــ نظرة تغنى عن خطاب ، فلم يتمالك هانىء عند ذلك ان قال : « فهمت الجواب » ..
فضحكت القهرمانة وأمسكت بيد مريم وأجلستها وقالت وهى تحاول الجلوس : « ما أسرع ما فهمت جوابها وهى لم تتكلم ..»
فجلس هانىء وهو يلتف بعبـاءته ويصلح عمامته وكان قد أبدلها بالخوذة فى ذلك الصباح وقال : « لقد دلنى قلبى ياخالة..»
ثم التفت الى مريم وقال : « لا تخافى يا مريم ، انى لم آت

لأزعجك وانما جئت لأتحقق مما حدثتني نفسي به ، حتى اذا صدق ظني وخدمني حظي وقفت نفسي لخدمتك وجعلتك أسعد الناس ، الا اذا كان هذا الخبر يسوءك » ..

فتنهدت مريم تسكينا لما جاش فى صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل ، وهمت بالكلام فمنعها الحياء ، وكانت لا تبالى ان لقيت الرجال فى ساحة الوغى ، فكيف تلعثم لسانها بين يدى رجل يتمنى رضاها ويتوقع كلمة منها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة له .. ولكن هو الحب يذل النفوس ويلعثم ألسنة الفصحاء . وظهر من خلال شفتى مريم مع ذلك انها تكتم أمرا تود التصريح به لولا الحياء . فأدرك هانىء ذلك فيها فتوجه بكليته نحوها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذا عظيما : « قولى ، يا مريم ، لا تخافى ولا تكتمى عنى شيئا .. فان خالتى القهرمانة لا يستحى منها ، بل هى خزانة أسرارنا ، قولى .. هل تحبيننى ؟ »

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت : « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلا ، وأنتم معشر الأمراء قد تعودتم اقتنـاء النسـاء بالعشرات ، والحب لا يكون صحيحا الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث » ..

فبغت هانىء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلا وقال : «لست من هؤلاء يامريم . وهذه الخالة تعلم انى بلغت هذه السن ولم أتخذ زوجة ولا جارية ولا سرية .. اسأليها تنبئك فانها مطلعة على أحوال سائر الأمراء فى هذا الجند ، فان لكل واحد منهم

خباء لنسائه وجواريه ، وأما أنا فلا خباء لى ولا أحببت امرأة ولا فتاة ، ولم يكن يخطر ذلك ببالى قبل أن رأيتك فى صباح الأمس فعزمت على أن تكونى نصيبى فى هذه الدنيا ، وتأكيدا لذلك فانى أعاهدك من هذه الساعة على انى لا أميل الى سواك .. فهل تعاهديننى أنت أيضا ؟ .. »

فأبرقت أسارير مريم وأشرق وجهها ، وتجلت فى عينيها وحول فمها ابتســامة طار عقل هانىء لها ، وخفق قلبه سرورا وقال : « ولكن لى شرطا واحدا عليك وعلى نفسى وهو انى لن أتمم شيئا قبل الفراغ من هذه الحرب .. فاذا عدنا منها فائزين ، ونحن فائزون باذن الله ، كان ما تتمناه .. فهل تعاهديننى على ذلك ؟ »

فقالت وهى مطرقة حياء : « وذلك هو الشرط الذى أشرطه أنا أيضا لأنى اذا فزت بك ، أكون عند ذلك قد نلت السعادتين.. »

فقال : « فلنتعاهد اذن على هذا الشرط » ومد يده نحوها ببطء وهى ترتجف من شدة التأثر ، فأمسكها بيده وضغط عليها فأحس كلاهما بتيار كهربائى ارتعدت له فرائصهما ، ثم نهض هانىء وهو يقول : « لا بد لى من الذهاب الساعة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو ، وأعدك انى سأبلو فى ســاحة القتال بلاء الأبطال لعلمى ان ذلك يسرك .. فادعى لى بالنصر .. »

ثم مد يده الى كمه وأخرج قارورة تفوح منها رائحة الطيب قوية ، وقدمها الى مريم وهو يقول : « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد فى هذا الخباء .. تطيّبى بها وحدك ؛

حتى اذا أتيت لزيارتك تنسّمت ريحك قبل وصولى اليك فأستدل على وجودك قبل أن أراك ، وأنت أيضا كلما شممت رائحة هذا الطيب تتذكرين قتيل هواك .. » . قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ، ونظر اليها نظر المحب الولهان ..

فمدت يدها وتناولت القارورة وهى تبتسم ، ثم تذكرت فراقه لها فى تلك الساعة فانقبضت نفسها ، فالتفتت نحو السماء وترقرقت فى عينيها العبرات

وكانت القهرمانة فى أثناء ذلك الحديث قد استغرقت فى النوم وهى جالسة ، لأنه لا يهمها فى هذا الاجتماع الا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينما هى غارقة فى أحلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هانىء ومريم . وقبل أن تنهض سالمة سمعت أحد الغلمان يصيح فى الخارج : « أين السيدة القهرمانة ؟ .. »

فنهضت القهرمانة وصاحت : « من ينادينى ؟ » وخرجت فاستقبلها أحد الغلمان وهو يقول : « ان الأمير عبد الرحمن يدعوك اليه .. »

فقالت وقد علتها الدهشة : « وأين هو ؟ .. » وهرولت نحو القاعة ، فقال الغلام : « هو ينتظرك فى القاعة » فعادت الى هانىء وقالت : « أسرع يامولاى الى جوادك وامض قبل أن يراك الأمير هنا فلربما شك فى أمرك » ..

فأكبر هانىء أن يخرج خروج الهارب فتجلد ، وقال : «اذهبى أنت اليه ولا تخافى فانى خارج على مهل .. »

– ٢٠ –

البغتة

فدخلت القهرمانة وقد أرادت أن ترسل مريم من باب آخر يؤدى الى غرفتها وتسير هى توا الى القاعة لمقابلة الأمير عبد الرحمن ..

وخرج هانىء من الباب الخارجى وهو رابط الجأش حتى وصل الى جواده ، وهمّ بأن يركبه فلقى بجانب الجواد رجلا من ملازمى الأمير عبد الرحمن وقد أمسك بشكيمته . فلما دنا هانىء منه قال له : « ان الأمير يطلب اليك أن توافيه الى خيمته فى المعسكر فانه عائد اليها على عجل »

فقال : « ومن أنبأه انى هنا ؟.. »

قال : « عرف ذلك من جوادك »

أما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن ، وكانت مريم قد ازدادت بتلك البغتة احمرارا وتجلت دلائل الحب فى عينيها مع ما يغشاهما من الدمع . فلما رأت الأمير عبد الرحمن استردت جأشها ووقفت للسلام عليه

أما هو فحالما رآها ، تذكر والدتها فخاطبها أولا ولم يلتفت الى

القهرمانة وقال : « مريم .. أين والدتك ؟ هل سافرت ؟.. »

قالت : « نعم يامولاى سافرت فى الصباح الباكر » . قالت ذلك بلغتها المعهودة ولم يكن عبد الرحمن قد سمعها تتكلم بعد ، فأعجبته تلك اللثغة ، وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة وتذكر انه رأى جواد هانىء بباب القهرمانة من الخارج ، فأدرك ان هانئا كان هناك معها . فتظاهر عبد الرحمن بعدم المبالاة ، وليثبت عدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلا : « وهل رجع الأمير هانىء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتج عليها لو لم يتدارك الأمر هو بقوله : « ولكن لا بأس من ذهابه فانى سألقاه بعد رجوعى » ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلا : « قد أوصيتك ياخالة باكرام هذه الضيفة ، وأعيد التوصية الآن بأن تبالغى فى رعايتها واكرامها ولا تمنعى عنها شيئا ولا تدعيها تستوحش فى هذا الخباء فانها أعز نسائه عندى » ..

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها ، وتبادر الى ذهنها ان عبد الرحمن غافل عما حدث من أمر هانىء ومريم وقالت : « انى فاعلة حسب أمر مولاى .. والحقيقة ان مريم لا يراها أحد الا أحبها وأكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلا : « أين ميمونة ؟ .. هل هى فى غرفتها ؟ »

قالت : « أظنها هناك » ومشت لتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن : « امكثي هنا مع مريم أو امض بها الى حيث تشائين ، وأنا أذهب الى ميمونة فاني أعرف مكانها .. »

وكانت ميمونة قد رأت الأمير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك ، وعلمت انه رأى جواد هانيء ، ورأته يخاطب أحد غلمانه ويشير الى ذلك الجواد ، فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن يكون من أمره بعد أن يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانيء ، فشعرت انه لقيهما خارجين من تلك الحجرة ، وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك

أما عبد الرحمن فمشي يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيبا ، أو يقفون له وقارا ، حتى اقترب من باب الحجرة فتظاهرت ميمونة أنها قلقت لابطائه فى الوصول اليها ، فأسرعت الى الباب وهى تبدو كأنها كانت فى انتظاره على مثل الجمر . فلما أقبل حيته وتأدبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق بلا تصنع مع أنها غير عاشقة ، وانما كان ذلك منظر عينيهـا لما فيهما من اللمعان مع ما تتكلفه من اظهـار الوجد بالابتسـام والاطراق فينخدع الناظر اليها ويحسبها متفانية فى حبه ، ولا سيما اذا كان هو يحبها . أما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة كثيرا ويحب قربها ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه ، وكان من جهة أخرى قد عاهد نفسه على ألا يقرب النسـاء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار ، فضلا عن اشتغال

خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ومسامرتهن . ولذلك قلما كان يأتى الى الخباء ، واذا أتاه خص ميمونة بلطفه ومداعبته وذلك لغرض فى نفسه لم يكاشف به أحدا . وربما كانت قد أدركت غرضه ثم تجاهلته ، أو انها تظاهرت بأنها تفعل ما يريده هو وتبتغى من ورائه مأربا لو تصوره عبد الرحمن لعجل بها الى الفناء ..

– ٢١ –

المكر المتبادل

علمت مما تقدم ان ميمونة سبية افرنجية كانت فى جملة خدم لمباجة بنت الكونت أود حاكم تلك المقاطعة فى فرنسا ، وقد سبيت فى جملة غنائم المنيذر الافريقى زوج لمباجة المذكورة . وكان أهل الخباء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة وأقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك فى بعض المخابرات مع أود أو بعض قواده ولكنه كتم هذا الأمر فى نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانىء . فلما بعثت ميمونة اليه فى ذلك الصباح أسرع اليها على عجل يتوقع منها خبرا يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلما رآها على تلك الصورة خيل له انها تعشقه وتتفانى فى خدمته فسرّه ذلك على أمل الاستعانة بها فى تحقيق غرضه ، فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول :

« ما الذى تريدينه منى يا ميمونة ؟ »

فقالت وهى تحاول الجلوس بتأدب : « أريد أمورا كثيرة ، يا مولاى ، لا أدرى أيها أقوله أولا » . قالت ذلك وتنهدت وأنزلت دمعتين رآهما عبد الرحمن تتساقطان على خديها وهى مطرقة تظهر انها استحيت من افتضاح سرها بهما

فانخدع عبد الرحمن ، ولكنه أجابها على الفور : « لا أرى حاجة الى ذلك وأنت تعلمين ما عاهدت عليه ربى منذ عزمت على هذه الحرب »

فأسرعت فى الجواب كأنها تريد اصلاح ما تبادر الى ذهنه مما عسى أن يكون قد فهمه خطأ فقالت : « لايتوهم مولاى انى أطمع فى غير رؤية هذا الوجه الصبوح . ولكنى مخطئة فى التطاول الى ما لا أستحقه ، فان فى خباء مولاى الأمير عشرات من أمثالى وليس بينهن من تجرؤ على هذه الكلمة . أما أنا فلا أدرى ما الذى جرأنى عليها . فهل دلنى قلبى على الصواب أو لعله خدعنى ؟ لا أدرى .. وعلى كل حال يكفينى أن يكون الأمير عالما بما له فى القلب من الحب الشديد ، على انى لا أكلفه مثله أو جانبا منه لأن الحب لا يكون قهرا » . قالت ذلك وغصت بريقها وسكتت ..

وكان عبد الرحمن يعتقد أن ميمونة تحبه ، ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلا ، فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيرة عليه من مريم ، والغيرة تفعل العجائب .. فأراد أن

يتأكد من ذلك ، فقطع حديثها قائلا : « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ » ..

فسرَّت ميمونة لأن عبد الرحمن بدأ بذكرها ، فأجابت على الفور : « كيف لم أرها وقد وقفت نفسى لخدمتها منذ أن وصلت ، لعلمى أن ذلك يرضى الأمير .. ولم أفارقها الا ساعة فى هذا الصباح لاشتغالها فى غرفة القهرمانة مع الأمير هانىء ! » . قالت ذلك وهى تتظاهر أنها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير ، وأصغت بكل جوارحها لما عساه أن يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

أما هو فأحس بشىء من الغيرة وتذكر أن والدة مريم انما ادخرتها له ، وفكر فى اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة ، فلم ير سببا غير الحب المتبادل بينهما ، فحدثته نفسه لأول وهلة أن يمنع هانئا من ذلك ، ولكن حبه لهانىء ورغبته فى أن يستمر الوفاق معه الى نهاية تلك الحرب ــ كما شرطاه على نفسيهما ــ غلب على ذلك الشعور ، وتصور ما هم فيه من الأمر العظيم والخطر الشديد ، فأسرَّ فى نفسه أنهم اذا فرغوا من هذه الحرب فائزين وظل هانىء على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعده على الظفر بها . فتجلد عبد الرحمن وأجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالاة : « لكن هانئا خرج الآن من عندها ، وشاهدت مريم مع القهرمانة . وقد سرَّنى ارتياحها للاقامة فى الخباء ، فأرجو أن تعيريها اهتمامك لأنى موص باكرامها .. ولى فى ذلك

غرض أرجو أن تساعدينى على تحقيقه »

فلما سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من أمر هـذه الفتاة ، وتأسفت لذهاب سعيها هباء منثورا ، ولكنها أرادت أن تتحقق من الأمر ، فبالغت فى التجاهل واظهار السذاجة ، وقالت « أؤكد يامولاى انى فاعلة ما تريده ، وفى الحقيقة ان هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالا وعقلا ورزانة وهى قريبة الى كل قلب ، لا يستطيع جليسها الا أن يحبهـا فاذا كنت لا أكرمها اكراما لمولاى الأمير فانى أفعل ذلك حبا لها .. ولا بأس اذا أحبهـا الأمير أكثر من سائر نسائه لأنها أهل لذلك »

فخشى عبد الرحمن اذا طال الحديث أن يبدو منه ما لا يريد التصريح به ، فابتدرها قائلا : « لقـد خرج بنا الحديث عن الموضوع ، ما الذى دعوتنى من أجله الآن ؟ »

فأظهرت الاهتمام وقالت : « دعوتك لأمر هام ، وكان يجب ألا أتحدث عنه .. وربما كان فيه وحده ما يغنينى عن الأدلة على حبى للأمير عبد الرحمن وتفانى فى خدمته .. فاعلم يا مولاى انى بثثت العيون من بعض الأفراد الذين تركتهم لخدمتى لاستطلاع أحوال العدو بعد سـقوط بوردو ، فعلمت ان الكونت أود ورجاله متربصون لكم فى مضيق دردون (١) على مقربة من هذا المكان . والمضيق فى طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن غافلا عن أخبار عدوه لأن جواسيسه

(١) دينو

كانت فى كل الأنحاء .. وأكثرهم من أهل البــلاد الأصليين وخصوصا اليهود فانهم كانوا يبذلون كل رخيص وغال فى سبيل مساعدة المسلمين انتقاما من المسيحيين ، وطمعا فى الغنائم كما تقدم . فلم يكن خبر أود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولا كانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه .. ولكنها تجاهلت وأظهــرت الاهتمام بأمر الجند ، وأوهمته أنها اطلعت على السر بسعيها الخاص .. ولو علمت انه يجهل ذلك الخبر لبالغت فى كتمــانه . فسايرها عبد الرحمن وأظهر انه فرح بذلك الخبر كى يحفزها على مصارحته بأخبار أخرى ، فقال لها : « بورك فيك يا ميمونة .. قد تحققت الآن من حبك لنا وسعيك لنصرنا ، وأرجو ألا تغفلى عن مثل هذه الأخبار »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ، ولكنها تجاهلت التماسا لما يبرر لها استقدامه فى ذلك الصباح لتطلعه على حب هانىء لمريم ايقاعا للفتنة بين الأميرين ، وقد ساءها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة ، ونسبت اخفاق مسعاها الى سعة صدر عبد الرحمن وطول اناته ، فأضمرت أن تحول سهام مساعيها نحو هانىء لأنه شاب لايصبر على الغيظ . وغرضها الأول ايقاع الفتنة بين القائدين .. وفى خصومتهما فشل الجند الكبير ، فعزمت على تدبير الحيلة فى وقت آخر . ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها فى خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة عتاب ودلال واســتعطاف .. ولولا رزانة عبد الرحمن وقوة

ارادته لخرقت تلك النظرة صدره الى قلبه ، ولهاجت فيه لواعج الغرام وأنسته الجند والنصر الذى يسعى اليه ، لما فى عينيها من عوامل الجاذبية وما حول فمها من الملامح الفتانة وما فى مجمل ذلك من السحر الآخذ بالألباب . ولا غرو اذا عبَّر الشعراء عن تلك الجاذبية بالسحر لأن أثرها لا يمكن تعليله بغير السحر . وربما عبَّر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالكهربائية ، فمن كان حسنه جذابا قالوا ان كهربائيته قوية .

– ٢٢ –

من شق الحائط

فلما نظرت ميمونة الى عبد الرحمن تلك النظرة فهم أنها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له : « انى قتيلة هواك ، متفانية فى خدمتك » فسرَّه افتتانها به رغبة فى الافادة منها لما ينفع الجيش، فابتسم لها وهشَّ.. وفى ظنه انه بذلك يزيدها تفانيا فى خدمته ، وهى كلما رأت منه عطفا بالغت فى اظهار الافتتان به . فلما علم عبد الرحمن انها فرغت من التصريح بالخبر الذى استقدمته لأجله نهض وهمَّ بالخروج ، فنهضت ميمونة وهى تقول : « لولا علمى بالمهام الكثيرة التى تتعلق بذهابك أيها الأمير لتوسلت اليك أن تبقى هنيهة أخرى .. فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريبا ؟ .. واذا ذهبت فهل تتركنى هنا ؟.. »

فأدرك انها تقول ذلك تدللا فلم يجبها بغير الابتسام ، وخرج مسرعا يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر ، فمشت ميمونة فى أثره حتى إذا أوشك على الوصول الى باب الخباء سمعته يقول : « مرحبا بالأمير هانىء .. ألا تزال هنا ؟.. لماذا لم تدخل الى الخباء ؟.. » فازدادت ميمونة استغرابا من ذلك الترحاب

***

فتقدم هانىء وهو يلتف بعباءته وليس فى وجهه وجل ولا خجل ، وقد أكبر أن يرجع الى المعسكر رجوع الهارب بعد أن علم عبد الرحمن بوجوده هناك .. شق عليه أن يفعل ذلك انفة وكبرا وخصوصا بعد أن علمت مريم به . فلما أوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله فى الركاب لا يتكلم ولا ينتقل . وخيل له ان مريم تنظر اليه تراقب حركاته ، فلبث حينا واقفا ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى نحو باب الخباء يلتمس لقاء عبد الرحمن ، فقيل له انه فى خلوة لا يراه فيها أحد .. فعزم على انتظاره ، فجعل يخطر أمام الخباء وعيناه تراقبه

***

وكانت مريم لما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التفكير فى هانىء وخروجه على تلك الحالة ، فأرادت أن تستطلع أمره فتحولت الى جدار الخباء ، ونظرت من شق فرأت هانئا يتمشى خارجا وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربه ولحيته ويتمايل بمشيته كالأسد . فاختلج قلبها فى صدرها سرورا

برؤيته ، وودت لو أنها تخاطبه ولكنها خافت من القهرمانة ، فاكتفت بالنظر اليه وتأمل حركاته على غفلة منها . وبعد قليل سمعت ضجة فى الخباء فعلمت ان عبد الرحمن خارج ، فأحبَّت أن تعلم ماذا يكون من أمره اذا لقى هانئا ، فتحولت بحيث تراهما ولا يراها أحد لاشتغال القهرمانة وسائر أهل الخباء بوداع الأمير . فرأت هانئا يمشى نحو عبد الرحمن حتى التقيا ، وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الأخ ويعاتبه على تخلفه ، وهانىء يدل عليه دلال الابن على أبيه ، وعبد الرحمن يبتسم له ويرحب به ، وسمعت هانئا يقول وهو يخطر نحوه : « بلغنى انك سألت عنى .. »

فأجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه : « وهل يسأل المرء الا عن أخيه أو حبيبه ؟ » . قال ذلك وابتسم وأهل الخباء يسمعون ، وأكثرهم سرورا بذلك مريم وأشدهم غيظا ميمونة ، ثم مشى عبد الرحمن ويده بيد هانىء فقدموا لهما الأفراس فركبا الى المعسكر وحولهما الخدم والأعوان

***

وظلت ميمونة ومريم تنظران الى ذلك الركب وكل منهما فى ناحية وقلبها فى ناحية أخرى حتى تواروا ، فعادت ميمونة الى خلوتها وأعملت فكرتها فى حيلة أخرى وقد أسفت أسفا لا مزيد عليه لفشلها وذهاب سعيها هباء

- ٢٣ -

المكاشفة

أما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد شبت نيران الحب فى قلبها ، والتمست الخلوة لتسترجع ما دار بينها وبين حبيبها استئناسا بذكراه ، ومخافة أن يكون قد بدر منها ما تؤاخذ عليه . جلست فى غرفتها هنيهة كأنها فى عالم الخيال ، ثم انتبهت للقارورة وكانت لا تزال فى قبضتها ، فنظرت اليها وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لها واستأنست بها لأنها من هانىء ، وصبت قليلا من الطيب على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها ففاحت رائحة ملأت الخباء بطيبها

وبينما هى فى خلوتها دخلت ميمونة وهى تبتسم ابتسام محب معجب بحبيبه ، فقابلتها مريم بمثل ابتسامتها وقد ارتاحت اليها وتاقت الى مكاشفتها بما شغل خاطرها من الحب ، ولكنها أمسكت لئلا يكون فى ذلك ما يغضب حبيبها ، على أنها رحّبت بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها .. فسبقتها ميمونة الى الحديث ، فقالت وهى تهش لها : « أراك عدت من غرفة القهرمانة وقد زدت طيبا »

وكانت القارورة لا تزال فى قبضتها ، فضحكت وبدا الحياء فى وجهها ، وبادرت الى القارورة فخبأتها فى جيبها ولم تحر جوابا

فأدركت ميمونة أن بين تلك القارورة وهانىء علاقة ، فعمدت الى اكتشاف سرها منها ، فقالت : « لقد زادك الحيـاء طيبا ياحبيبتى .. لعل هذا الطيب من ضيفك البطل الصـنديد الأمير هانىء . أرجو ألا يكون من سواه لأنه يليق بك . ولو خيرت أن تنتقى لك حبيبا من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خيرٍ منه » ..

فأدركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السر ، ولكنها تجاهلت وقالت : « كيف تحكمين على الأمر قبل التثبت منه ؟.. من أين عرفت ذلك ؟ »

قالت وهى تضحك وتقترب من مريم : « عرفته من مصـدر وثيق ، وتحققت منه بقرائن الأحوال .. واذا كنت تنكرين ذلك علىّ فان ملامحك تشهد عليك ، على أننى لا ألومك على التستر ، لأن الحب يحلو بالكتمان .. وقد كان يجدر بى أن أسايرك وأظهر اقتناعى بانكارك ، ولكننى لم أرض بذلك شفقة عليك وحبا لك »

فلما سمعت مريم قولها استغربت تلميحها بالشفقة ، ولم تفهم مرادها ، فرفعت بصرها اليها وقالت : « لم أفهم مرادك من الاشفاق .. هل فى حالتى ما يبعث على الشفقة ؟.. افصحى .. »

قالت ميمـونة : « لا أقول شيئا قبـل أن تثقى بحبى لك وغيرتى على مصلحتك .. »

فقالت مريم : « أنت تعلمين انى أحببتك وقد وثقت بك من أول نظرة ، وخصوصا بعد ما شاهدته من مظاهر حبك ، فلا حاجة

بعد ذلك الى برهان »

قالت ميمونة . « صـدقت يا حبيبة ، انى أشـعر من قلبى باخلاصك .. ولكننى أخشى أن أقول لك قولا تحملينه على غير محمله ، ومع ذلك فانى أفعل ما تدعونى اليه محبتك . نعم ليس هناك ما يدعو الى القلق الكثير ، ولكننى اختبرت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم ـ وفى جملتها انهم يغارون على أعراضهم غيرةً شديدة ـ وأنت تعلمين انك هنا فى خباء الأمير عبدالرحمن، وكل مَنْ فى هذا الخباء من نسائه .. فيجدر بك أن تحاذرى من التظاهر بشدة ميلك الى الأمير هانىء فى حضرته ، وأظن أن الأمير هانئا نفسه يتوقع ذلك .. لا تُظنى اننى أقول هذا بناء على قول سمعته ، فانى واثقة من حب الأمير عبد الرحمن لهانىء فهو لا يمنع عنه شيئا يريده لأنه يعتمد عليه فى هذه الحرب ، وهو يمينه التى يناضل بها ، ولكنى أردت أن أنبهك لعلمى ان هانئا يريد ذلك منك وان كان لا يظهره لك أنفةً وترفعا ، وأما أنا فقد خبرت عادات القوم وآدابهم فى هذا الشأن . ولعلك سمعت عن منزلتى عند الأمير عبد الرحمن ، والا فانى أخبرك انى أقرب نسائه اليه وهو يعتمد علىّ فى كثير من المهام ، فاذا علمت ذلك فكونى على يقين من أن الأمير عبد الرحمن لا يفعل الا ما يرضيك »

فقبلت مريم تلك النصيحة باخلاص وازدادت ثقة بميمونة بعد ما عرضت من مساعدتها ، وهان عليها مكاشفتها بما فى قلبها فالتفتت اليها وقد انبسطت نفسها ، وقالت : « أشكرك على ذلك

ياسيدتى ، وسأعمل حسب اشارتك .. ولا ريب انك تعلمين بذلك كله ، وأنت من أكثر نساء هذا الخباء ذكاء وفطنة »

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه ، وأرادت الانتقال الى موضوع آخر فقالت : « ذكرت لك الطيب فلم تجيبينى عليه .. أين القارورة ؟ »

فمدت مريم يدها وأخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة ففتحتها واشتمت رائحتها ، وهى تقول : « لم أصادف فى حياتى مثل رائحة هذا الطيب ، انه طيب خاص ليس عند أحد من أهل هذا الخباء مثله » . قالت ذلك وأرجعت القارورة ولم تمس مافيها

فقالت مريم : « تطيَّبى بشىء من هذا الطيب ، فانك أهل لذلك » ..

فامتنعت ميمونة وهى تسد القارورة وتقول : « لا يجوز لأحد سواك أن يمس هذا الطيب لأنه هدية لك خاصة » ودفعت اليها القارورة وهى تبالغ فى الامتناع

فاستحسنت مريم تمنعها وازدادت ثقة بصدق مودتها ، ففتحت لها قلبها وصارت لا تستأنس الا بقربها مع ميل الى مكاشفتها بعواطفها ، وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة

– ٢٤ –

الاطمئنان

أما عبد الرحمن وهانيء ، فانهما ركبا وسارا نحو المعسكر وحولهما الفرسان فى موكب ، وكل منهما يفكر فى جهة ، ومرجع التفكير الى مريم .. فكان هانيء يتذكر ما دار بينه وبينها ، وما آنسه من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين انه كان يتوقع امتعاضه .. فاذا تذكر ذلك انشرح صدره لأنه كان يخشى اذا بدا له من عبد الرحمن برود أن يؤول ذلك الى نفور ضار .. وكان عبد الرحمن يفكر فى سالمة وما دار بينه وبينها فى أمر مريم وتلميحها بأنها ستكون له بعد الفراغ من تلك الحرب لسر لم تصرح له به ، وتذكر استلطافه مريم .. وتصور ما هى عليه من الجمال والهيبة ، ثم ماظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانيء فلما بلغت تصوراته الى ذلك الحد شعر بغيرة شديدة ، ولكنه تذكر ما هم فيه من الحرب وشدة احتياجه الى هانيء حتى ان النجاح يتوقف على اتفاقهما . وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانيء ، وارتياحه لايكون الا بتيسير ظفره بمريم .. فلما تمثل له ذلك ، عاد الى عقله وسعة صـدره ، فهان عليه ارضاء هانيء وخشى أن يكون فى سكوته فى أثناء الطريق باب للشك ، ففتح الحديث قائلا : « ألم تحمد الله على انتصارنا فى هذه الحرب يا هانيء ؟ .. »

قال : « لقد حمدته كثيرا على ذلك ، والفضل فيه يرجع الى بسالة الأمير عبد الرحمن وتدبيره »

فقال الأمير عبد الرحمن : « بل الفضل فيه للأمير هانىء قائد فرساننا .. بل أرى الفضل فيه لما وفقنا اليه من الوفاق المتبادل ، وأرجو أن يبقى ذلك الى نهاية هذه الحرب »

قال : « وأنا أرجو ذلك أيضا ، واذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة ، لأننا فتحنا لهم بلادا واسعة يحكمون أهلها ويجبون خراجها وينشرون الاسلام فيها »

فقال الأمير عبد الرحمن : « وأظن سرورك بفتح بوردو يعادل سرورنا جميعا بما فتحناه وسنفتحه من البلاد ؟ » .. قال ذلك وابتسم ..

فأدرك هانىء تلميحه الى مريم ، فضحك وقد انشرح صدره ، وقال : « لا أستطيع انكار ذلك أيها الأمير لأنه يبدو فى كل حركة من حركاتى ، وأرجو أن يكون أخى مسرورا معى »

قال : « انى أسر بكل ما يسرك .. وثق انى عون لك فى كل ما تريده . ولكنك تعلم ما عاهدت نفسى عليه مذ ركبت هذا المركب الخشن »

فلم يفهم هانىء مراده ، فقال : « وأى عهد تعنى ؟ »

قال : « انى عاهدت الله ألا أقرب النساء قبل أن أفرغ من هذه الحروب أو أن نقطع نهر لوار على الأقل .. فهل أنت على هذا الرأى ؟ »

ففهم هانىء مراده ، فقال : « نعم انى أعاهد الله على هــذا أيضا ، وقد كان اهتمامى بالنساء كما تعلم ضعيفا فلم أتزوج امرأة ولا اقتنيت جارية .. ولولا وقوع هذه الفتاة من نفسى موقعا عظيما ما غيرت رأيى . أما الآن ، فأعترف لك انى قد تعلقت بمريم وهى كما ترى أهل لذلك »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلا : « انها من خيرة النســاء جمالا ، واذا وفقنا الى ما نرجوه من النصر كنت أول من يُسَر بظفرك بهــا .. غير انى أرجو أن يبقى ذلك مكتوما عن كل انسان لأسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ، ولا تكلفنى التصريح بأكثر من ذلك »

فأحس هانىء من تلك الساعة بثقل أزيح عن صدره وارتاح باله ، وان كانت اشارة عبد الرحمن الى الأسباب التى لا يعلمها قد شغلت خاطره قليلا . على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة مريم بما دار بشأنها مع عبد الرحمن .. وذلك طبيعى فى المحبين ، فانهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضا بأخبار الناس .. فكيف بما يتعلق بهم ولا سيما ما كان مرجعه الى تحقيق أمانيهم ، وعلى الأخص اذا اؤتمن أحدهم على سر وطلب اليه كتمانه ، فانه يزداد ميلا الى مشــاركة حبيبه الاطلاع عليه ، كأنه يعد ذلك اكراما له بشىء ثمين اؤتمن هو عليه

ثم عاد الأميران الى السكوت مدة ، والركب ماش ، حتى دخلوا المعسكر .. وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم

وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصا البرابرة لما علمت من مطامعهم .. وظل الأميران سائرين حتى وصلا خيمة الأمير عبد الرحمن فدخلاها ، ثم صفق عبد الرحمن فجاءه أحد الغلمان فقال له : « ادع الأمراء الىّ هنا الساعة »

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانیء ، وقال له : « قد علمت من أخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية اكتانيا الكونت أود معسكر بجنده فى مضيق دردون على بضع ساعات من هذا المكان (١) ، فينبغى لنا أن نبادر بالهجوم قبل أن يتأهبوا للدفاع .. فاذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف العناء فى هذا الفتح أو هو العناء كله ، ولم يبق من يقف فى سبيلها الى نهر لوار .. فماذا ترى ؟ »

قال هانیء : « أرى أن نبادر الى الحرب ، وروح الجند المعنوية ما تزال عالية من أثر النصر »

قال عبد الرحمن : « متى حضر الأمراء استشرناهم ، ولا أظنهم الا موافقين على الزحف ، فنرحل برجالنا ونترك الأخبية فى مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم .. فاذا هزمنا الافرنج باذن الله حملنا نساءنا وغنائمنا ، وسرنا الى تورس على نهر لوار »

وبعد قليل جاء الأمراء وهم بضعة عشر أميرا ، وفيهم العربى والبربرى والشامى والمصرى والنبطى وغيرهم ، وفى جملتهم

---

(١) دردنو ــ والمسافة اطول من ذلك

الأمير بسطام . فعرض عبد الرحمن عليهم رأيه ، وساعده هانيء على تنفيذه فوافقوا جميعا على الرحيل فى صباح الغد على أن يتركوا النساء فى الأخبية حيث أقيمت . فلما أجمعوا على ذلك ، التفت عبد الرحمن اليهم وقال لهم : « أنتم تعلمون اننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج فى معسكرهم ، والمسافة بيننا قريبة وهم متحصنون فى جبالهم فينبغى لنا أن نسير اليهم خفافا . ولا يخفى عليكم ما أصابه رجالنا من الغنائم فى أثناء الفتوح التى وفقنا اليها منذ خروجنا من الأندلس وهى ثقيلة ، حتى لقد ثقل على الرجل حمل غنائمه وحدها بلا حرب (١) .. فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض ، فالرأى على ما أرى أن يتركوا غنائمهم فى هذا المعسكر بقرب الأخبية ، فتبقى هناك هى والنساء ونجعل معها حامية من رجالنا .. فاذا بلغنا من عدونا ما نريده أضفنا اليها ما نغتنمه منهم .. » . قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لعلمه بحرص أولئك القوم على حطام الدنيا ؛ وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب الا رغبـة فى الأموال .. فاستدرك هانيء ما خشيه عبد الرحمن قائلا : « ان الأمير مصيب فى رأيه ولا أظنكم الا موافقين عليه ، لأننا نخشى اذا جاهـد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم أن يعجزهم حملها فينوءون تحت أثقالها ، ولا يقاتلون كما ينبغى فى ساحة الوغى .. ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل »

(١) رومى — الجزء الثانى

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصا من الأمير بسطام لحرص رجاله على الأموال لسبب تقدم ذكره ، وكان عبد الرحمن فى أثناء كلام هانىء يتفرس فى وجوه الأمراء .. فوجد التردد ظاهرا وخاصة فى وجه بسطام ، فاستأنف الكلام قائلا : « والذى أراه أن نعهد بحراسة تلك الغنائم الى الأمير بسطام ومن يختارهم من رجاله ، ومعهم جماعة من رجال سائر الأمراء .. »

***

فوقع ذلك الرأى موقع الاستحسان عند الجميع ، فوافقوا عليه وخرجوا لتنفيذه وليأمروا رجالهم بالتأهب للرحيل فى صباح الغد ..

فذهب هانىء الى خيمته ، ولم ينم تلك الليلة لما خالج أفكاره من الهواجس بمريم على أثر ما سمعه من عبد الرحمن ، حتى حدثته نفسه أن يطير اليها فى ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينه وبين عبد الرحمن بشأنها ، ويخبرها بعزمهم على الرحيل الى محاربة الافرنج ، ويصبرها حتى ساعة الرجوع . وقد زاده رغبة فى الذهاب اليها انه فارقها ولم يتمكن من وداعها كما يريد ، ولكنه تذكر أهمية وجوده فى الصباح هناك وخشى أن يغضب عبد الرحمن فرجع عن عزمه

- ٢٥ -

المنديل

وفى الصبـاح ، قام المسلمون للصـلاة .. ثم نفخ فى النفير فتأهبوا للسير ، وسـاروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة .. وقائد الفرسان العام هانىء ، وقـد ركب جواده ولبس خوذته والتف بعبـاءته ، وقوضوا الخيام ، ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ، ومعها الأمير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الأخرى

وبعد المسـير بضع سـاعات ، أشرفوا على جبال أخبرهم الجواسيس ان أود ورجاله متحصنون فيها .. فنزل المسلمون فى سهل بالقرب من ذلك المضيق ، وترجّل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة ، على أن يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم .. وقد أقاموا الحراس حول المعسكر ، وبثوا سراياهم يستطلعون أحوال أعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلمـوا من أين يهاجمونهم ، وذهب هانىء للاستراحة فى خيمته . وفى المسـاء جاءت الطلائع فأخبروا ان الافرنج مقيمون فى الجبال ــ وهم كثيرون ــ وقد تحصنوا وأقاموا لايبدون حراكا . فاجتمع أمراء المسلمين وتفاوضوا فى الأمر ، فرأوا ان الهجوم على حصـون الافرنج شديد الخطر ، فتمهلوا ليروا ما يبدو منهم .. فاذا لم

« فنزل المسلمون فى سهل بالقرب من المضيق ، على ان يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم..وقد أقاموا الحراس حول المعسكر . وبثوا سراياهم يستطلعون احوال اعدائهم »

يخرجوا من حصونهم فكروا فى الهجوم عليهم

فبات هانىء تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه ، وعاد الى التفكير فى مفارقة المعسكر بضع ساعات ، ولا خطر على الجند فى غيابه للأسباب التى قدمناها .. على انه ظل مترددا فى الذهاب خشية الفشل ، وحياءً من عبد الرحمن ..

فأصبح فى اليوم التالى وخرج على قدميه ، وقد تراكمت عليه الهواجس ، وهو يفكر فى حاله وحال مريم وحال الجند . وبينما هو يتمشى فى سهل خارج المعسكر ، رأى رجلاً بلباس عربى قادما من عرض البر يهرول نحوه ويشير اليه ، فوقف .. فلما دنا الرجل منه تفرس هانىء فيه فاذا هو ملثم ، فناداه فمد الرجل يده الى جيبه وأخرج منديلا وسلّمه الى هانىء . فلم يكد هانىء يتسلم المنديل حتى شمّ منه رائحة مريم .. عرف ذلك من طيبها الذى أعطاه لها بالأمس ، فصاح فى الرجل : « من أنت ؟ وما خبرك ؟ »

فقال : « ان هذا المنديل ينبئك نيابة عنى ان صاحبه فى حاجة اليك على عجل » . قال ذلك وسار يعدو فى عرض البر.. فبهت هانىء ثم انتبه لنفسه وصاح فى الرجل أن يقف فلم يلتفت اليه . فوقف هنيهة وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة المستعجلة ، ولم يشك فى ان المنديل مرسل من مريم وان الطيب طيبها ، فلم ير بدا من المبادرة الى اجابة الدعوة وهو مطمئن البال على المعسكر ، وأسرع الى خيمته فركب جواده

والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء ، ولم ينبىء أحدا بمسيره لعلمه انه سيعود قبل انقضاء النهار ، فلا بأس من غيابه ، وخشى اذا شاور عبد الرحمن أن يستخف بعمله أو أن يمنعه من الذهاب

سار هانىء وهو يستحث جواده لايلتفت يمينا ولا شمالا حتى وصل الى الخباء ، وقد مالت الشمس على خط الهاجرة وتبلّل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجّل ودخل توا الى خباء الأمير عبد الرحمن ، واستدعى القهرمانة فجاءت وهى تتوكأ على فخذيها وتمشى الهوينى .. وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة : « أين مريم ؟ .. »

فبغت لسؤالها ، وقال لها : « أتسألينني عن مريم وأنا انما جئت لأسألك عنها .. أين هى ؟ .. »

قالت : « هى عندك .. ألم تبعث فى طلبها هذا الصباح ؟ »

قال هانىء : « أنا ؟ .. بعثت فى طلبها ؟ .. أين هى ؟ .. قولى .. ان الوقت لايساعدنا على المزاح .. »

فقالت وقد ظهرت علامات الدهشة على وجهها الكالح وامتقع لونها : « أظنك أنت الذى تمزح ، ألم تبعث اليها فى هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك وخوذتك ؟ . »

فصاح فيها وقد اشتد غضبه : « كلا لم أبعث أحدا ، وهذا جوادى معى ، وهذه عباءتى .. فكرى فيما تقولين . قولى الحق والا قطعت رأسك بهذا السيف» . قال ذلك ويده تمسك بسيفه..

فخافت القهرمانة وتحيرت بماذا تجيبه ، وقد ارتج عليها من

الخوف والدهشة ، وقالت : « تمهل يابنى لأقص عليك الخبر .. جاءنا فى هذا الصباح رجل أظنه من رجالك ، وقد ركب جوادا ومعه جواد آخر أدهم لم تشــك أنه جوادك .. عليه عبــاءة وخوذة ، وقال لى انك تطلب مريم حالا بأمر الأمير عبد الرحمن لأمر ضرورى يتعلق بوالدتها ، ودفع الىَّ هذا الكيس (ومدت يدها وأخرجت كيسا فيه دراهم) فامتنعت فى بادىء الأمر ولم أطعه ، فألح علىَّ وأرانى الجواد والعباءة ، وقال لى انك تطلب مريم لغرض عاجــل يتعلق بالحرب ، وانك بعثت لها جوادك لتركب عليه فرفضت طلبه .. فذكر لى علامة لايعرفها أحد سوانا وهى قارورة الطيب . وذكر أيضا تدليلا على صدقه انك اجتمعت بمريم عندى وأعطيتها قارورة الطيب فلم أستطع الا تصديقه ، ومع ذلك فانى لم أسلم بارسالها الا بعد أن أتى بعلامة من الأمير عبد الرحمن لايعرفها سواى ، وأخيرا سلمته اياها وأنا خائفة عليها ، ولشدة خوفى أخرجت معها أكثر نساء الأمير عبد الرحمن حظوة عنده وأوصيتها بها »

وكان هانىء يســمع كلام القهرمانة وهو يرتعد من شــدة الغضب .. فلما تحقق من ذهاب مريم ، قال : « ومن هى تلك الحظية ؟ .. »

قالت : « هى ميمونة الافرنجية .. أظنك تعرفها .. »

فقال : « نعم أعرفها ، والى أين ذهبا ؟ .. وكيف ؟ .. »

قالت : « حينما توهمت صدق ذلك الرسول ، ورأيت مريم

راغبة فى الذهاب أذنت لها فيه ، فركبت الجواد الأدهم وركبت ميمونة جوادا آخر ، ومضوا نحو المعسكر .. »

– ٢٦ –

البحث عن مريم

فوقف هانىء وهو ينتفض انتفاضا شديدا من شدة التأثر ، والقهرمانة واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفا ، وقد أخـذت تخفف من غضبه قائلة : « لابأس عليها يابنى .. ان ميمونة تحبها حبا شديدا ، وأظنها تحرص عليها كثيرا .. اجلس وخفف عنك .. لا بأس عليها .. »

فلم يلتفت هانىء الى كلامها ولكنه ثاب الى رشده وفكّر فيما سمعه ، فتذكّر ان القهرمانة ذكرت والدة مريم ، فظن ان للأمر سببا متصلا بسر تلك الوالدة منذ رأوها لأول مرة بعد فتح بوردو ، وخيل له ان سالمة احتالت تلك الحيلة لاسترجاع ابنتها . ولكنه تذكّر القارورة ، فرأى ان ذكرها لاينطبق على ذلك الظن ، فلم يدر ماذا يقول . فلما تشابه الأمر عليه ، رأى أن يسرع الى المعسكر للبحث عنها ، فتذكّر للحال ان الأمير بسطاما هناك ، فتبادر الى ذهنه ان الأمير المذكور هو الذى احتال هذه الحيلة لاختطاف مريم منه ، لأنه لم يزل عالقا بها منذ يوم الفتح . فالتفت هانىء الى القهرمانة وقال : « تقولين انهما

سارا نحو هذا المعسكر ؟ » وأشار الى معسكرهم بالأمس

قالت : « نعم يامولاى .. »

فأسرع الى جواده فركبه وحوّل وجهته نحو ذلك المعسكر ، وهمز الجواد وأطلق له العنان

وقد عزم على أن يقتل بسطاما اذا رأى مريم عنده ، ومع سرعة عدو الجواد فقد كان يحسبه واقفا

وكان فى المعسكر مضارب قليلة للغنائم ، وحولها الحراس من رجال بسطام وغيرهم .. ولما أشرف عليهم هانىء رآهم يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم ، فلما رأوه تقدم بعضهم وهم يستغيثون . فصاح فيهم : « ما الخبر ؟ .. »

فقال أحدهم : « نشكو اليك ظلم الأمير بسطام ، فانه أوصى رجاله فاستأثروا بالغنائم ، وأخذوا من أنصبة رجالنا فأضافوها الى أنصبتهم .. ولم يسمع هو لصراخنا »

فازداد هانىء غيظا من بسطام ، وصاح : « أين بسطام ؟.. أين هو ؟ .. »

ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يمشى الهوينى ، ويترنح ترنح السكران .. فلما رآه هانىء لم يتمالك أن صاح فيه : « ما هذه الجرأة على اغتصاب أموال المسلمين ؟ .. قد أمنك الأمير على الغنائم فاستأثرت بها وسطوت على حقوق المسلمين .. لقد صدق القائلون انك لست مسلما .. »

فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من بقايا طعام تساقط عليها

كأنه كان على المائدة ، وقال : « مالك وللغنائم .. ألم تشغلك تلك النصرانية عنها ؟ دع الحرب واذهب الى الخباء فانك أولى بمعاشرة النساء .. ولكنك ستذوق عاقبة غيّك قريبا » . قال ذلك وهو يضحك كأنه قد ضمن فوزه

فحمى غضب هانىء من تلك العبارة حتى غاب عن رشده ، فاستل حسامه وساق جواده نحوه وأطلق الحسام وهو يتعمد قطع رأسه ، فخلا بسطام من الضربة فهوى هانىء حتى كاد يقع عن جواده فازداد حنقا وحوّل الشكيمة نحوه ، وانقضّ عليه انقضاض الصاعقة ، فتوسط بعض الرجال بينهما وهانىء لايبالى بهم ، ولم يعد يصبر عن قتل بسطام .. ففرّ بسطام الى احدى الخيام واختبأ فيها ، فهمّ هانىء أن يترجّل ويتبعه .. فأحاط بعض الرجال بجواد هانىء وتوسلوا اليه أن يغمد سيفه حبا للاسلام والمسلمين ، فرجع هانىء الى رشده ووقف وهو يرتجف من شدة الغضب ، كأن ذكر الاسلام خفّف من غضبه وسكن من روعه ، وخاصة حينما تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخصام بين فرق الجند . فأمسك نفسه وتجلد واكتفى بفرار بسطام .. وعاد الى الأمر الذى جاء من أجله ، فعمد الى البحث عن مريم هناك .. فجعل ينظر فى الخيول الواقفة حول الخيام ، فلم ير بينها جوادا أدهم ولا رأى هناك نساء ، فسأل بعض الوقوف ممن يثق بهم من رجاله عمن فى الخيام ، فقالوا له : « ليس فيها غير الغنائم »

فخلا بنفر يعرفهم ، وسألهم : « هل مرَّ بكم ركب على أفراس ومعهم نساء ؟ » فقالوا : « كلا .. اننا هنا منذ الأمس ، ولم ترَ أحدا » ..

فوقف فى حيرة ، وقد عادت اليه هواجسه عن مريم وذهابها ، والتفت الى ما يحيط به من السهل وأكثره عار من الأشجار الا بعض التلال ، عليها الدالية من الكرم وبعض أغراس الزيتون .. فلم ير أشباحا ، فتحير فى أمره وحدثته نفسه أن يعود الى دردون لعلهم ذهبوا بمريم الى هناك .

وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة والجواد قد أنهكه التعب فخشى اذا بالغ فى سوقه وهو فى تلك الحال أن يعجز عن مواصلة السير ، وهو اذا لم يستحثه لا يصل الى المعسكر قبل العشاء .. على انه لم يجد بدا من مراعاة حال الجواد ، فحوَّل شكيمته وتوجَّه نحو دردون ..

— ٢٧ —

المنزل الخالى

أما مريم ، فانها خرجت فى ذلك الصباح مع ميمونة — كما تقدم — وقد ركبت على ذلك الجواد الأدهم ، وتزملت بالعباءة ، وعلقت الخوذة بالسرج ، وساقت الجواد فى أثر الرسول .. وميمونة على جواد آخر بجانبها وهى تنظر الى مريم على

الجواد ، منتصبة القامة كأفرس الفرسان . وكانت ميمونة تظهر دهشتها لذلك الطلب العاجل ، وأنها انما رافقتها لحمايتها مما قد يكون من بواعث الخطر على أثر ذلك . أما مريم فكانت تستحث جوادها وأفكارها تائهة فى عالم التصورات ، وصورة هانىء تتخلل كل خيال يمر فى ذهنها

ساروا ساعة ثم أدركوا المعسكر القديم الى يسارهم عن بعد ، وكانت مريم تحسب انها ستذهب الى ذلك المعسكر لأنها لم تكن تعلم بانتقال الجند الى دردون .. فلما رأت الخيام قليلة سألت الرسول عن مقر الجند وعن المكان الذى يقصدونه ، فقال : « ان الجند انتقلوا الى دردون لملاقاة الافرنج هناك ، وسيعودون الى هنا .. وأما نحن فاننا سائرون الى مكان على مقربة من دردون ، أمرنى مولاى والأمير أن أوصلك اليه ، فاما أن يكون هو فى انتظارك هناك أو انه يأتى بعد وصولك » فصدقته مريم وامتلأت نفسها شوقا الى لقاء الحبيب ، وساروا على تلك الصورة بضع ساعات ، وقد تركوا بوردو الى يسارهم أيضا حتى وصلوا الى بناء منفرد قد تداعت جدران سوره ، فدخل الرسول أمامهم من باب السور الى حديقة قد غشيها الاهمال ، ولايخفى على المتأمل فيها انها من مساكن أهل اليسار وانهم غادروها منذ بضعة أسابيع .. فترجلتا ودخلتا الحديقة ، فتصدت ميمونة للاعتراض على الرسول غيرة على مريم ، فقالت له : « الى أين أنت سائر بنا ؟.. اننا على مقربة من دردون على

ما أظن.. وماهذا البيت الذىأدخلتنا فيه ؟ احذر أن تكون مخطئا»

فوقف الرجل متأدبا ، وقال : « لست مخطئا يامولاتى ، اننا فى قصر أحد أمراء اكيتانيا وقد هجره أهله فرارا من جند المسلمين . وفى هذه المزارع قصور كثيرة هجرها أهلها وبقيت غنيمة للمسلمين »

فقالت : « وأين الأمير هانىء ؟ .. »

قال : « يبدو انه لم يأت بعد لأنى لم أر أثرا يدل على مجيئه ، ولكنه لايلبث أن يأتى سريعا » . قال ذلك ومشى بهما حتى أدخلهما البيت من باب كبير كان مفتوحا ، وليس فى المنزل الا بعض المقاعد أو الكراسى الضخمة مما لايستطاع حمله فى أثناء الفرار . وقد استولى السكون على المكان الا ما كان يتردد من صدى خطواتهم وصهيل الجوادين .. أما مريم ، فلما وصلت ولم تجد هانئا ولا أثرا يدل عليه بدأت تشك فيما احتوته تلك الرسالة ، ولكنها سكتت لترى ماذا يكون ، وألقت معظم الهم على ميمونة لأنها أكبر منها سنا وأوسع علما بتلك البلاد وبأحوال ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهل ما يخالج أفكار مريم من هذا القبيل ، فكانت تتظاهر بالدهشة أيضا ، وتسأل الرسول مثل أسئلة مريم ، حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان قديمان .. فجلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهى تتفرس فى المكان وتنظر الى ميمونة ، وميمونة تشاركها فى الارتباك .. قضتا برهة وهما ساكتتان ، ومريم تتوقع قدوم هانىء

وقد شاعت عيناها وهى تنظر الى الخارج من نافذة تطل على الحديقــة ، وميمونة بجانبها والمــكان هادىء والخادم الذى أوصلهما لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف ، وقالت : « ويلاه .. أين نحن ؟ ما الذى جرى لنا ؟ أين ذلك الرسول ؟ يا ليتنا اصطحبنا بعض الصقالبة من خصياذ الخباء » ثم صفقت كأنها تستقدم الرجل ، فلم تسمع جوابا غير الصدى ..

أما مريم فلما رأت ميمونة خائفة ، خافت هى أيضا ووقفت وقد ظهر الاهتمام فى وجهها ، وقالت : « هل خدعونا ؟.. أين ذلك الرجل ؟ كيف يتركنا هنا ويذهب ؟ الى أين ذهب ؟ » وكانت الشمس قد أدركت الأصيل ولم يتناولا طعاما من الصباح

— ٢٨ —

المكيدة

وبينما هما كذلك اذ سمعتا صوت صهيل وقرقعة لجام .. فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارسا وفى ركابه رجلان ملثمان ، وهو يركض جواده ركضا عنيفا حتى وصل الى باب البستان فترجّل .. فظنت مريم لأول وهلة انه هانىء فخفق قلبها ، ولم تتمالك عن الوثوب نحو الحديقة ، ولم تبال باختلاف ملابس ذلك الفارس وجواده عن لباس هانىء وجواده لاعتقادها انه أرسل اليها العباءة والجواد وقد جاء متنكرا . ولكنها لم تكد

تفكر فى ذلك حتى تطلعت الى القادم فوجدته رجلا بدينا يترنح فى مشيته ، وسيفه يجر الى جانبه وعباءته مسترخية وراءه . ولا تسل عن اضطرابها حينما عرفت انه بسطام ، فسيطرت عليها رعدة ، واصطكت ركبتاها ، وكاد الدم يجمد فى عروقها ، والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغتة وقد تصدرت لمقابلة ذلك القادم بالنيابة عن مريم ، فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهى تقول : « ما الذى تريده أيها الأمير ؟ .. »

فأجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه : « وما الذى يعنيك من هذا الأمر ؟ .. »

قالت : « ليس فى هذا المكان رجال ، ولا أحد يهمكم أمره ، فلا حاجة الى دخولكم اليه .. »

قال : « ونحن انما جئنا لأجل النساء .. أليست مريم النصرانية هنا ؟.. » . قال ذلك وهو يضحك ، ومد يده الى وجه مريم .. فنفرت وتباعدت ، فأمسكت ميمونة بيد بسطام وقالت : « لا تفعل أيها الأمير ما لايليق بالأمراء .. واعلم انك اذا مسستها عرّضت نفسك لغضب أمير جند المسلمين .. »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة ، وقال : « من أقامك ناصحا أو نذيرا ؟.. وما هو شأنك ؟.. انى لا أخاطبك .. » قال ذلك وحوّل وجهه ومشى نحو مريم ، فبالغت ميمونة فى ممانعته وقبضت على زنده فتخلص منها بعنف ، فوقعت على الأرض ، فالتفت الى الرجلين وقال : « قيّدا هذه المرأة بيديها

ورجليها واحبساها فى هذه الغرفة ، واقفلا الباب عليها »

ولم يتم قوله حتى انقض الرجلان على ميمونة بالأمراس ، وقيَّدا يديها ورجليها وهى تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ، ومريم تهم بانقاذها وبسطام يمنعها بدون أن يمسها بيده ، وهو يقول لها : « لا تخافى يا جميلة ، اننا لن نصيبها بسوء .. وانما أردنا ايقافها عند حدها » . فلما فرغا من تقييدها ، جرَّاها الرجلان نحو تلك الغرفة .. فالتفتت نحو بسطام وهى تقول : « لا بأس علىَّ مما فعلتموه بى ، ولكننى أتوسل اليكم ألا تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجلان بميمونة الى بعض حجرات ذلك البيت وأغلقا الباب . فلما خلوا هناك تركاها وشأنها .. فقالت بصوت خافت : « من هو عدلان منكما ؟ .. »

فتقدم أحدهما وأزاح اللثام عن وجهه ، فبانت ملامحه ونظر اليها بعينه الحولاء نظر المحب الولهان ، وقال : « أنا عبدك عدلان ، أرجو أن أكون قد أديت مهمتك كما تشائين .. »

قالت : « بورك فيك » وابتسمت ، ثم أردفت : « قل لى أين هو هانىء ؟ .. وماذا فعلت به ؟ .. »

قال : « فعلت ما أمرتنى به ياسيدة النساء .. وانما أرجو أن تكونى راضية عن عبدك وأسير هواك ، وتتحققى انك لا تجدين من يذعن لأمرك وينفذ مآربك سواى »

فابتسمت ابتسامة أخرى وحركت أجفانها حركة الدلال

والرضا ، وقالت : « اذا كنت قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فانى راضية .. قل لى أين هو هانىء ؟ .. »

قال : « أظنه لايزال تائها فى هــذه الصــحراء يفتش عن حبيبته .. »

قالت : « وكيف أوصلت اليه المنديل ؟ .. »

قال : « بعد أن أتيتك بالجواد الأدهم أمس ، وعهدت به لهذا البطل (وأشار الى رفيقه) وأفهمته كيف يخدع القهرمانة .. وكل ذلك بارشادك ، ذهبت بالمنديل الى معسكر المسلمين فوصلت اليهم صباحا . ومن حسن حظ مولاتى وتوفيقها أن رأيت الرجل خارجا يتمشى ، فأسرعت نحوه ودفعت اليه المنديل وأنا ملثم . فسألنى عما أهدف اليه ، فأخبرته ان صاحبة المنديل تدعوه اليها حالا ، وتركته وفررت الى مكان أراه منه ولا يرانى ، فرأيتــه قد أسرع الى جواده فركبه وساقه نحو الخباء . فلما تحققت من ذهابه أسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاى الكونت أود وأخبرته بالواقع كما أمرت ، وحرضته على مباغتة المسلمين حالا وقائد فرسانهم غائب .. فاقتنع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم فى غفلة . وقد رأيتهم فى فشل عظيم ، ولا أظنهم الا قد ذعروا وتقهقروا .. والغالب ان الافرنج قد استولوا على معسكرهم الآن .. »

وكان عدلان يتكلم وميمونة ترمق حركاته ، وكلما قال عبارة تبتسم له وتبدى ارتياحها ، وهو يتكلم بحماسة وسرور . فلما

قال ذلك ، قالت : « ثم كيف فعلت ببسطام هذا؟ .. »

قال : « ذهبت اليه فى المعسكر القديم وأظهرت انى أخدمه خدمة تسره ، وانى فاعل ذلك من تلقاء نفسى .. وأخبرته أن مريم خرجت من الخباء الى هذا المكان ، وانى سأذهب به اليها فيبلغ منها ما يشاء على شرط أن يحافظ عليك .. فأثنى على غيرتى ودفع الىَّ هدية ثمينة ، وكنت أتوقع أن يلتقى هانىء به فيقتتلا فيقضى أحدهما على الآخر .. فيكمل توفيقك ، وتتم رغبتنا بانقسام هذا الجند ، وقد جاء هانىء بعد ذهابه الى الخباء ولم يجد مريم فيه .. فظن ان بسطاما اختطفها، فلما لقيه فى الخيام تشاجرا ، وكاد هانىء أن يفتك به لو لم يجبن هذا ويدخل خيمته . وبعد ذهاب هانىء حرضت بسطاما على الركوب سريعا ، فركب وسرت فى ركابه .. والتقينا فى أثناء الطريق بأخى هذا وكان قد جاء يستعجلنا ، فبدلت عباءته بعباءتى وغيرت قيافته ، وجئنا فى ركاب بسطام كما رأيتنا » ..

فقالت ميمونة : « بورك فيك من خادم أمين .. واذا تحققت أمنيتنا بفشل جند العرب دعوتك بلقب آخر » . قالت ذلك وأشارت بحاجبيها ..

فأشرق وجهه وجعل ينظر اليها وقلبه يكاد يطفح سرورا لما شاهده من أنسها وتلطفها

- ٢٩ -

الخنجر

أما مريم ، فلما رأت ميمونة مسوقة الى تلك الحجرة وهى مقيدة الأطراف ، وسمعت تضرعها الى بسطام بشأنها .. امنت بأنها تحبها ، ولكنها كانت فى شغل من أمر نفسها لأنها لم تتوقع بعد ما رأته الا الفتك الذريع من بسطـام . وهو مع غلظتـه وخشونته كانت رائحة الخمر تفوح من فمه ، وقد احمرت عيناه واربد لون وجهه ، وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجرا ضخما وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف ، فبدا لعينى مريم شيطانا رجيما .. فاستعـاذت بالله من ذلك الشيطـان ، وتضرعت اليه تعالى أن ينجيها منه .. على انها لم تتمالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر ، وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التى تعتقد انها عباءة هانىء فوق ردائها الأسود ، وعلى رأسها خمار أسـود يغطى جبينها الى الحاجبين ، وقد تلثمت به من أسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديرا ، وقد تلألأت عيناها وزادهما الانقباض هيبة . ومع كل ما شاهدته من أسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت عند لقاء بسطام لأول وهلة أكثر اضطرابا منها بعد ظهور تلك الفظاعة بتقييد ميمونة وحبسها ، وقد أصبحت وهى معه

وحيدين فى ذلك البيت الواسع ..

أما بسطام ، فلما اختلى بمريم على تلك الصورة دعاها الى الجلوس على كرسى هناك ، كأنه يريد أن يخاطبها بلطف على سبيل الاقناع . فجلست ، وجلس هو على كرسى آخر ، والتف بعباءته حتى غطّت السيف والخنجر ، وهو يقول بلغة عربية مستعجمة فى نغمة بربرية : « لا تخافى يا مريم .. انى لا أريد بك سوءا لأنى أحبك حبا شديدا (وبالغ فى تشديد الدال) وأنت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربى ، فانخدعت بأقواله .. على انك نصيبى وحدى من هذه الحرب ، ولو شئت أن أمنعه منك لمنعته من أول ساعة ، ولكننى تلطفت بك وأشفقت على مزاجك .. والآن قد وقعت بين يدى ، فلا مفر لك .. فأطيعينى»

وكانت مريم تسمع كلامه وأطرافها ترتعد من شدة التأثر وهى تفكر فى مجيئه الى هناك : هل كان على موعد أو كان ذلك مصادفة .. وأحبت أن تماطله فى الحديث ريثما يأتى هانىء لاعتقادها انه قادم اليها فقالت : « دع عنك ذلك يا أمير فان لكل شىء وقتا ، وأنتم الآن فى حرب فبعد انقضائها يأخذ كل ذى حق حقه .. »

فقال : « لاتماطلينى بالمحال ، ولا تظنى ان هانئا سيبلغ منك شعرة ، فقد صرت فى قبضة يدى ولن يخلصك منها أحد ، فالأفضل لك أن تطيعينى والا فانى بالغ منك ما أريد قهرا »

فلما سمعت تهديده عظم عليها الأمر .. ولكنها ظلت تحاول

مماطلته ريثما يأتى هانىء لثقتها بأن هانئا آت لامحالة ، فقالت : « لا أرى باعثا الى التهديد أيها الأمير ، فان من يعد نفسه أميرا ويفتخر بشجاعته وشدة بأسه لا يليق به أن يهدد فتاة بمثل هذه العبارات ، وخصوصا فى مثل ما أنتم فيه من الجهاد »

فضحك بسطام ضحكة استخفاف ، وقال : « نعم انى أمير شجاع وساحة الوغى تشهد لى بذلك .. ولولاى لم يكن لذلك الغلام ذكر بين الرجال ، ولا كان لأولئك العرب راية تخفق فى هذه البلاد ، فاذا علمت ذلك فاقلعى عن ذكر سواى »

فلما سمعت تعريضه بهانىء وبالعرب ، ورأت ان اللين لايجدى معه نفعا ، عادت الى ما شبّت عليه من الأنفة ، وقالت : « دع عنك التعريض والتلميح فانك لست من رجال الأمير هانىء ، ولو حضر الآن ما تجاسرت على التحدث فى حضرته بمثل هذا الكلام»

فحملق بسطام بعينيه ، ووقف بغتة وأمسك بذراع مريم ، وضغط بكل قوته كأنه يريد أن يبغتها لعلها تلين .. فشعر بصلابة عضلها كأنه قابض على حديد ، ثم جذبت يدها من قبضته ، فلم يستطع منعها ، ووقفت وهى تقول : « ابعد عنى ولا تمسنى ، فقد بالغت فى الاستخفاف حتى نفد صبرى »

فلما شاهد منها هذا الاصرار ، ورأى فيها تلك القوة اشتد غيظه وقال لها غاضبا : « لا تعللى نفسك بالمحال ، فانى ضاربك بهذا السيف ضربة أقضى بها على حياتك .. هل أنت الا سبية تباعين ببضعة دراهم ، وقد أخطـأت فى محاسنتك فظننت ان

المحاسنة ضعف .. وأنت تعلمين ان فى خبائى عشرات من أمثالك يتمنَّين رضائى »

— ٣٠ —

المعركة

وهمَّت مريم بأن تجيب بسطاما ، فسمعت ضجيجا فى البستان وقد علت الضوضاء ، وسمعت رجلا يقول : « ان الأمير هانئا هنا » ..

فلما سمعت اسم هانىء بغتت واشتغلت عن بسطام باستطلاع الخبر ، فأسرعت الى الباب وأسرع هو أيضا .. فرأت جماعة من العرب قد وقفوا حول الجواد الأدهم ، وهم يقولون : « أليس هذا جواد الأمير هانىء ؟ .. فأين هو ؟ »

فأجابهم بسطام : « ليس هانىء هنا .. ماذا تريدون منه ؟ »

فتقدم أحدهم وقد غشيه الغبار وتجلت البغتة فى وجهه وتصبب العرق من جبينه ، وقد عرف الأمير بسطاما فقال : « ان الافرنج هاجمونا واشتبك القتال بيننا وبينهم ، والأمير هانىء غائب من الصباح ، وقد فشل فرساننا وكادت الدائرة تدور علينا .. فخرجنا للبحث عنه ، فاذا لم يدركنا لم تقم لنا قائمة . والأمير عبد الرحمن لم يستطع قيادة الفرسان لاشتغاله بسائر الجند .. فلما رأينا هذا الجواد الأدهم ظنناه هنا »

فقال بسطام : « ليس هذا جواده .. والظاهر انه طلب النجاة بنفسه .. ابحثوا عنه فى غير هذا المكان » . قال ذلك ، وتحوّل الى الداخل ..

فرجع الرجل ورفاقه الى الجواد ، وتأملوه جيدا ، فتحققوا انه ليس جواد هانىء ، فرجعوا

وكان جند العرب قد ضعف لغياب هانىء ، لأنهم لم يكونوا يتوقعون نشوب الحرب فى ذلك اليوم ، وانما خرج اليهم الافرنج بغتة وهم فى خيامهم لأسباب تقدم بيانها فى أثناء حديث ميمونة . وكان عبد الرحمن فى صباح ذلك اليوم فى خيمته يصرّف بعض الشئون منتظرا مجىء هانىء اليه للمداولة فى أمر الجند ، فأبطأ هانىء عليه فانشغل خاطره وهمّ باستقدامه ، واذا ببعض الرجال قد جاءوه مسرعين ينادون : « ان الافرنج قد خرجوا الينا كالسيل الجارف » وعلت ضوضاء الجند ، فخرج عبد الرحمن الى فرسه وبعث رسولا الى الأمير هانىء وسائر الأمراء ليجمعوا رجالهم ويتأهبوا للهجوم على عادتهم . ولم يكد يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته ، فتطلّع الى ميدان المعركة فرأى الافرنج يهجمون وقد تصاعد غبارهم ، فركب جواده ونادى رجاله ووقف فى انتظار هانىء ليقود الفرسان ويرتبهم ، فعاد الرسول وهو يقول : « لم نجد هانئا فى خيمته ولا رأينا جواده فى مربطه »

فارتبك عبد الرحمن فى أمره ، وقد كان يعتمد كثيرا على هانىء فى تنظيم الهجوم لأنه قائد فرسانه ، والفرسان أقوى فرق

الجند عند العرب ، فغضب عبد الرحمن لتخلفه غضبا شديدا ، وأخذ على نفسه قيادة الفرسان فلم يستطع تنظيمهم لأنه لم يتعودهم ولا تعودوه والفرصة قصيرة . فالتحم الجيشان والعرب مرتبكون ، ولولا شجاعة عبد الرحمن وحسن تدبيره فى ذلك المركز الحرج لتشتت رجاله منذ الصباح .. لكنه ظل رابط الجأش ، وأخذ يستحث الرجال ويمنيهم ويسير أمامهم الى صفوف الأعداء لا يبالى بما يتساقط عليه من النبال ، لأن موته فى ساحة الحرب كان أيسر عليه من الفشل

فلما مالت الشمس عن خط الهاجرة ولم يأت هانىء ، بعث جماعة للبحث عنه ، وظل هو يدبر أمور الجند ويصبِّرهم ويحثهم ويشجعهم حتى كادت الشمس تدنو من المغيب ، وكاد الافرنج ينتصرون على العرب .. وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة فى عرض البر يتوقعون قدوم قائدهم أو سماع خبر عنه . وكان الأمراء كلما التقى اثنان أو ثلاثة منهم ولو تحت خطر الموت ، تساءلوا عن هانىء وسبب غيابه ، وشعروا بأهميته فى حروبهم أكثر مما كانوا يظنون

أما عبد الرحمن ، فمع سعة صدره وشدة حبه للأمير هانىء ، فقد حقد عليه وتوهَّم أن الحب حمله على المسير الى حبيبته على اثر ما سمعه من رضائه عن حبهما . ولكنه كان فى شغل عن التوسع فى هذا الشأن بما يحيط به من المشاغل الهامة خشية الفشل .. على انه أضمر اذا صح ظنه فى هانىء ان يحرمه من

مريم . كانت تلك الأفكار تتوارد على ذهنه متقطعة يتخللها ارتباكه فى كيف يتدارك الخطر المحدق به وبجنده . وكان مع ذلك لا يفتر عن التلفت والتطلع لعله يرى هانئا قادما ، ولكنه لم يكن يرى الا ما يزيده اضطرابا بزيادة اضطراب الجند ، وخاصة الفرسان ، حتى كاد الافرنج أن يصلوا الى خيمته

— ٣١ —

هانئان

وفيما هو يستحث رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات ، لاحت منه التفاتة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارسا على جواد أدهم عليه عباءة حمراء ، وعلى رأسه خوذة ، وقد أشرع سيفه وأطلق لفرسه العنان ، فبذل الفرس أقصى ما عنده من العدو حتى اعتدل عنقه وتطاير عرفه وانتصب ذيله وامتدت قوائمه ، فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره .. ولولا ذلك التناثر ما علمت مواقعها ، وتصاعد الغبار خلفه وهو منطلق بالفرس الذى بدا كأنه سابح فى الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه . والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منه لايبالى بالسهام المتطايرة ولا بالرجال المهاجمين . فلما رآه عبد الرحمن خفق قلبه سرورا لاعتقاده انه هانىء ، فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع أن يقف له ، ولكنه

ظل هاجما نحو الافرنج وهو يقول: «أتاكم هانىء.. لاتفشلوا ، ولا تخافوا من غلمان الافرنج انهم غنيمتكم فى هذا اليوم »

فلم يشك عبد الرحمن انه الأمير هانىء نفسه وأراد أحدهم أن يستقدمه الى عبد الرحمن فلم يصغ اليه ، وساق جواده الى معسكر الافرنج من جهة لم يكن الافرنج يظنون ان العرب يأتونهم منها .. فاشتدت عزائم العرب وخاصة الفرسان وساروا فى أثره كأنهم الأسود الكاسرة . فبغت الافرنج وأرادوا أن يحوّلوا قوتهم الى الجهة التى هاجمهم منها ذلك الفارس ، واذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة على جواد أدهم أيضا ، وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول : « جاءكم الأمير هانىء » فتبعه من بقى من الفرسان فانقسم الافرنج شطرين لملاقاة الفريقين ، فضعفت قوتهم ، وازداد المسلمون ثباتا وشجاعة ، ولم يمس المساء حتى فرّ الافرنج على بكرة أبيهم وأصبح معسكرهم غنيمة للمسلمين ، فاستولى المسلمون على ما هناك من الخيام والأسلحة والأطعمة والذخائر. وكان الأمير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الأمير الآخر من الناحية الأخرى وهو يشبه الأمير هانئا لأن كليهما بملابس متشابهة وعلى فرسين متشابهين

فلما فرّ الافرنج كانت الشمس قد غابت واكفهر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى خيمته حيث كان يتوقع أن يلاقى الأمراء وهانىء فى جملتهم ليعهد اليه بأمر الغنائم على عادتهم .

وبعد قليل جاء أحد الفارسين صاحبى الأدهمين ، فاذا هو هانىء نفسه ، فرحب به .. فابتدره هانىء قائلا : « لقد غدر بنا هؤلاء الافرنج وتوسموا ان فى الغدر خيرا وقد دمرهم الله ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة »

فقال عبد الرحمن وهو يتحول عن جواده ويتشاغل باصلاح ركابه : « لقد شغلت خاطرنا فى غيابك ، فنحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلهفة وقال : « ومن هو هذا الفارس الذى تقدمك وتسمَّى باسمك ؟ .. »

فقال هانىء : « لم يكن معى أحد .. »

قال عبد الرحمن : « أما رأيت فارسا على جواد أدهم مثل جوادك ويلبس عباءة مثل عباءتك ؟.. لقد رأيته بعينى وسط المعركة قبل وصولك ، وسمعته يتسمى باسمك »

قال ذلك ونظر الى أحد الرجال حوله ، وقال : « أين ذلك الفارس الذى كان على الجواد الأدهم ؟ .. »

فأجاب أحدهم : « رأيناه هاجما وقد أوغل فى الصفوف ، ثم توارى .. وربما جاء بعد قليل »

فصاح عبد الرحمن : « اذهبوا فى أثره واستقدموه » وتحول عبد الرحمن وهانىء الى الخيمة ، وجاء فى أثرهما بعض الأمراء ثم جلسوا يتحدثون فى أمر ذلك اليوم العجيب ، وماكان يهددهم من الخطر .. وكلهم يذكرون هانئا الآخر ويتعجبون ، على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبير أمر الغنائم والأسرى . ولم

يكن فى معسكر الافرنج نساء لأنهم لايحملون معهم نساءهم ولا أولادهم . أما الرجـال ، فانهم ركنوا الى الفرار .. وفى مقدمتهم الكونت أود صاحب اكيتانيا ورجال حاشيته

فتباحث الأمراء فى أمر الغنائم من الأسلحة والخيام والفرش وغير ذلك ، وعهدوا الى كتّاب الجيش بالعمـل على تقسيمها وحفظ حق بيت المال على عادتهم . ولم تكن الغنائم فى هـذه الوقعة كثيرة فاقتسموها على عجل ، وقضوا تلك الجلسة وكل منهم يفكر فى أمر ذلك الفارس ، ثم تفرقوا الى خيامهم الا هانئا فانه بقى عند عبد الرحمن يقص عليه حديثه باختصـار ، ولم يكتمه شيئا بعد ما آنسه من مجاراته فى حبه لمريم . فلما بلغ الى حديث بسطام وما كان من حاله فى مستودع الغنائم ، هز عبد الرحمن رأسه وقال : « انا لله وانا اليه راجعون .. ان أمر هؤلاء البرابرة يقلقنى ، فاننى أخشى عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا فى استرضائهم ، وأخشى — من جهة أخرى — اذا جافيناهم ان يفسدوا علينا سعينا »

وكان هانىء حينما ذكر الجواد الأدهم الذى أخذت مريم به ، تذكّر ما قالته القهرمانة عن العبـاءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباءته وخوذته ، فتبادر الى ذهنه أن ثمة علاقة بين ذلك الجواد وهذا الفارس

وبينما هما فى ذلك اذ عاد الذين ذهبوا للبحث عن هانىء الآخر ، وقالوا : « لقد بحثنا عنه فى المعسكرين فلم تقف له على

أثر » فعاد هانیء الى هواجسه وهو فى قلق على مريم ، ولم يفهم تلك الأسرار .. وخشى أن يكون قد أصابها سوء أو لعلها فى ضيق أو تكون قد فرّت من معسكر العرب بتلك الحيلة . أما عبد الرحمن فانه حينما سمع ما قصه عليه هانیء من أمر مريم وخروجها ، وتذكر والدتها والمهمة التى ذهبت لأجلها ، أوحى اليه سوء ظنه ــ والعاقل سیء الظن ــ باتهام سالمة فى الأمر ، وانها انما تظاهرت بما تظاهرت به احتيالا للفرار من الأسر . ثم راجع ما حفظه من حديثها ، وما كان يبدو فى وجهها من امارات الجد ، فغلب عليه الاعتقاد فى صدقها ..

- ٣٢ -

هانیء الآخر

ولبثا برهة صامتين لا يتكلمان ، وكل منهما فى خواطره يتنازعهما التفكير فى مريم وفى ذلك الفارس . وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فأصغيا ، فاذا بغلام دخل مسرعا وهو يقول : « ان فارسين بالباب يلتمسان الدخول » فقال عبد الرحمن : « ليدخلا » . فخرج الغلام ثم عاد وفى أثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء ، فلما وقع نظرهما عليه علما انه الفارس الذى سمّى نفسه هانئا . فلما رآه هانیء وقف وأقبل نحوه وتفرس فى وجهه ، فرآه قد تلثم تحت الخوذة

بلثام أسود ، ورأى من خلال العباءة ثوبا أسود فصاح فيه : « يا أهلا بالفارس الذى يسمِّى نفسه هانئا » . قال ذلك وتقدم نحوه وهو يتوقع جوابه . فظل الفارس ساكتا ينظر من خلال اللثام ، فابتدره الأمير عبد الرحمن قائلا : « انك لذو فضل على هذا الجند .. بالله الا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك »

فرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعها ، فبان من تحتها خمار أسود ، وألقى العباءة عن كتفيه فبان من تحتها ثوب أسود ، فعرف هانىء للحال انه ثوب مريم ، فلم يتمالك أن صاح : « مريم .. مريم .. »

فمد الفارس يده الى الخمار فأزاحه ، فبان من تحته وجه فتاة يتدفق حيوية وجمالا ، وقد زاده التلثم دفئا فتورد وأبرقت العينان . ولا تسل عن هانىء حينما علم بما أظهرته مريم من البسالة التى تندر بين النساء ، فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه : « مريم .. أهذه الفعال فعالك ياحبيبة ؟.. عهدناك ربة الجمال واللطف ، ولم يخطر لنا انك ربة الجواد والسيف .. حبيبتى ، ما الذى جرى ؟.. أين كنت ؟.. ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ »

قالت : « انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدى الأمير عبد الرحمن ، ولم أفعل أمرا يستحق هذا الثناء .. واذا كنت قد فعلت شيئا ، فما هو الا لأنى تسميت باسم الأمير هانىء ، فالأمير هانىء هو الذى فعل ذلك » . قالت ذلك بلثغتها المعهودة ، وقد تجلى على محياها شىء هو غير البسالة والانفة .. تجلت على

وجهها ملامح الحب ، فذهب كل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجولة ، ثم تنبهت الى انها قالت ذلك بين يدى الأمير عبد الرحمن ، فغلب عليها الحياء فأطرقت فابتدرها عبد الرحمن قائلا : « بورك فيك ، وبورك فى الأمير هانىء .. انكما متكافئان ، ولولاكما لأصاب هذا الجيش ضيق تعصف بنا عاقبته . تفضلى يابنية اجلسى وقصى علينا خبرك ، وما الذى دعاك الى اقتحام هذا الخطر العظيم .. فقد سمعت من أخى هانىء انك خرجت من الخباء فى هذا الصباح بخديعة ، وذهب هو من الصباح للبحث عنك ولم يعد الا بعد مجيئك .. عاد وهو يائس من العثور عليك .. فما هو خبرك ؟ .. »

قالت : « أرجو قبل الشروع فى الحديث أن تأمر باستقدام رفيقتى وصديقتى ميمونة التى تحملت العذاب من أجلى ، فانها خارج هذا الفسطاط » . وأشارت بأصبعها الى الخارج

وكان الأميران قد علما بأنهما ضلا معا ، فلم يستغربا كلامها ، فصفق عبد الرحمن فدخل الغلام .. فأمره أن يدخل المرأة الواقفة فى الخارج ، وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهى تتظاهر بالحياء والدعة . فأشار اليها عبد الرحمن أن تجلس على طنفسة فى أحد جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعترافا بحسن صنيعها ، ثم حوّل وجهه الى مريم للاستماع الى حديثها.. وكان هانىء لايزال واقفا ، فأشار اليه عبد الرحمن أن يجلس بجانبه فجلس ، وأصاخ الأميران بأذنيهما لسماع القصة

فبدأت مريم تقص حديثها منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الأمير هانىء ، وكيف ان ميمونة عرضت نفسها لخدمتها ، وكيف آنستها وأعانتها حتى وصلتا معا الى القصر المهجور .. وما كان من مجىء بسطام وما أبداه من الوحشية ، وكيف عرضت ميمونة نفسها للخطر دفاعا عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الأنظار الى ميمونة ، فتظاهرت بالحياء والاطراق . أما هانىء فانه أحس منذ سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة ، والتفت الى الأمير عبد الرحمن وهمس فى أذنه قائلا : « ياليتنى قتلته فى هذا الصباح .. »

أما مريم فانها استمرت فى حديثها ، فقالت : « فلما سمع بسطام دفاع هذه الصديقة عنى أمر رجاله فقبضوا عليها ، وأوثقوها وساقوها الى احدى الغرف وهى تصيح وتستغيث . فلما يئست من نجاتها توسلت الى ذلك الوحش الكاسر أن يرفق بى . انى لا أنسى تلك الاستغاثة .. وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بى فى ذلك القصر المهجور حدثته نفسه بأمور كثيرة وطال الجدال بينى وبينه ، وفيما نحن فى ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الأمير هانىء هناك ، فعلمت منهم ان الافرنج هاجموكم وهانىء غائب ، وان العرب فى ضعف بسبب ذلك .. فأصبحت فى قلق لأسباب لا تجهلونها . أما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله ، ولما سمع توبيخى له على ذلك انتهرنى وعرض بذكر الأمير (وأشارت الى هانىء) واتهمه

بالجبن وأنه فرّ من المعركة خوفا من الموت ، لأنى قلت له : « ألا تزال تزعم ان هانئا غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لايستطيعون شيئا بدونه ولم نسمعهم يذكرون بسطاما ولا سواه ؟.. » . فلما سمع هانىء ذلك الثناء حوّل نظره عن مريم حياء

أما مريم فأتمت حديثها قائلة : « فوقع كلامى على بسطام وقوع الصاعقة ، ولم يتمالك أن هجم علىّ ويده على قبضة سيفه يهمّ أن يجرده وأن يضربنى به ، فصحت فيه : « اخسأ يا نذل الرجال ان مثلك لا يليق أن يسمى أميرا ، فبدلا من أن تجرد حسامك على فتاة ، اذهب لنجدة اخوانك ، وقد علمت ما هم فيه من الضنك ، وجرده على أعدائك .. ولو كان هانىء فى مكانك ما فعل غير ذلك ..

فلم يزده هذا الكلام الا حنقا ، وكنت أظنه يخجل من نفسه ويرتد عن غيّه ، فقال ويده لاتزال على قبضة السيف : « لو كان هانىء رجلا ما تخلف عن ميدان الحرب فى مثل هذا اليوم ، ولكنه جبان » . ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه ، وهمّ باطلاقه علىّ .. فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر فى عينيه تناسيت ضعف النساء وشددت عزيمتى ، وعزمت على الفتك به التماسا للسرعة فى الخروج من بين يديه لأنظر فى أمر هذا الجند ، لأن نجاحه يهمنى كثيرا كما تعلمون . ثم أمسكت نفسى وعدت الى الملاطفة ، فقلت له : « لا تخيفنى بسيفك ، ولا يغرنك انى فتاة فانى لا أخشى السيوف .. ارجع عن عزمك واتركنى وشأنى ، وذلك خير لك »

وقبضت على زنده وهززته ، فأكبر أن يصغى لنصحى فتخلص من يدى ، وكان قد أنزل السيف فعاد وشهره ، وأوهمنى انه مطلقه على عنقى فتراجعت لأخلو من الضربة ، فظن اننى خفت فتبعنى وسيفه يكاد يقع على رأسى ، فلم أعد أستطيع صبرا على ذلك فصحت فيه : « نصحتك فاقبل نصيحتى يا بسطام .. » . قلت له ذلك وهو يحاول أن يقبض على ثوبى ليتمكن من ضربى لأنه كان يتوقع فرارى .. ولكننى بدلا من الفرار هجمت عليه وأمسكت يمناه بيسراى ومددت يمناى الى منطقته ، واستللت خنجره وغمدته فى صدره ، وقلت له : « أبيت الا أن تموت قتيلا وأن تدنس يدى بدمك .. » فغاص الخنجر الى قبضته فخرّ على الأرض وسقط السيف من يده ، فالتقطت السيف ولم أنظر الى وجهه لأنى قتلته مكرهة ، وأسرعت الى الجواد الأدهم فركبته والتففت بالعباءة ، وجعلت الخوذة على رأسى ، وهمزت الجواد نحو المعركة لأوهم الناس انى الأمير هانىء تشجيعا لفرسانه ، فاذا ترتب على عملى هذا نجاح فانما الفضل لذلك الاسم المبارك »

— ٣٣ —

الاخلاص

فلما ذكرت مريم انها قتلت بسطاما ، صاح الأمير عبد الرحمن : « بسطاما ؟ »

قالت : « نعم .. قتلته وقد قصصت عليك السبب الذى دعانى الى قتله ، فاما أن تعذرنى فيه أو تقتلنى بسببه فانى بين يديك .. »

فتصدى هانىء للجواب قائلا : « ان قتله مقدَّر منذ أيام ، ولو لم تقتليه أنت لقتلته أنا ، واذا رأى الأمير عبد الرحمن أن ينتقم له ، فلينتقم منى .. »

فقال الأمير عبد الرحمن : « لا أريد الانتقام له ، ولكننى أخشى أن يترتب على مقتله اضطراب فى صفوف الجند لما تعلمون من .. » ثم انتبه لوجود ميمونة هناك ، فتوقف عن اتمام الحديث وحوَّل الموضوع فقال : «سنعود الى البحث فى ذلك ، والآن أخبرينا عن سبب تأخرك عن القدوم الى الآن مع أن المعركة انقضت منذ بضع ساعات ؟ .. »

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن أشارت بيدها الى ميمونة ، وقالت : « قد كنت فى شغل من أمر هذه الصديقة لأنى تركتها أسيرة فى ذلك القصر المهجور حين أسرعت الى ساحة الوغى . فلما فرغت من ذلك واطمأن بالى على الجند تذكرت ما هى فيه من الضيق بسببى ، فلم أتمالك عن الذهاب لانقاذها .. فأسرعت الى القصر قبل المجىء الى هذا المعسكر ، فوجدتها لاتزال مغلولة وقد غادرها الحارسان ، فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان لايزال هناك . ولو لم أستطع انقاذها لتنغص عيشى لأنها انما أسرت وأهينت بسببى .. فلما رجعت كان الليل

قد أظلم فاهتديت الى معسكركم بنيرانه ، وعرفت خيمة الأمير من العَلَم الذى ببابها فجئت كما ترون » ..

وكانت مريم تتكلم والهيبة تتدفق من محياها والصدق يتجلى فى كل لفظ من ألفاظها ، فازداد عبد الرحمن اعجابا بها والأمير هانىء هياما بحبها فصاح هانىء : « بورك فى بطن حملك ، ووالله لأنت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند .. »

فوقفت ميمونة عند ذلك وهى تتظاهر بالامتنان واللطف والحياء ، وقالت : « لا غرو أن أعجب بها الأمير وهو فى ابان الشباب فقد عشقتها النساء قبله ، وأعترف انى لم تقع عينى فى هذه البلاد ولا فى غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة من لطف النساء وبسالة الرجال وانفة الأمراء وحنو الأمهات ، عدا ما فى خصالها من صدق اللهجة وعزة النفس ، فهى جديرة برضاء الأميرين . وأما أنا فقد كنت أعدها صديقتى ، وأصبحت أنظر اليها — بعد ما غمرتنى به من جميل — نظرى الى مَنْ هو فوق مرتبتى .. »

وكانت مريم فى أثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلا ، وقد كلَّل العرق جبينها حتى تقطَّر فوق خدين توردا من شدة الحياء ، ولم تستطع جوابا فلاذت بالسكوت والاطراق

وأدرك عبد الرحمن ذلك فيها فأشفق على عواطفها ، فعمد الى تغيير الحديث فقال : « أرى مريم أهلا لأكثر من ذلك ، وأما الآن فقد آن لها أن تستريح بعد هذا العناء .. » ثم صفق فدخل

الغلام ، فقال له : « اعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها ، وأحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من وسائل الراحة .. وخذ الفرسين الى الاسطبل .. »

فأشار اشارة الطاعة وخرج، وخرجت مريم وميمونة فى أثرها ، وهانىء يراقب مريم فى أثناء خروجها وقد تضاعف هيامه بها ، وتذكر ما عاهدها عليه من أمر الزواج بعد أن يقطعوا نهر لوار . فلما تذكر ذلك هان عليه أن يقتحم جند الافرنج وحده اذا حالوا بينه وبين ذلك النهر .. فلما خرجت المرأتان وبقى الأميران على انفراد ، لاحظ عبد الرحمن ما بدا فى وجه هانىء من دلائل الهيام فسرّه تعلقه بمريم ، وتغلب هذا الخاطر على ما عساه أن يكون قد خطر فى باله من الاستئثار بها دونه لما آنسه من الشبه الشديد بين الحبيبين فى البسالة والحماسة والانفة مع ما بينهما من المحبة المتبادلة .. على انه ما لبث أن غلب على فكره أمر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجند والاحتفاظ باتحاده على أثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الأمير بسطام . وأصبح لايشك فى انه اذا بلغ خبر مقتله الى رجاله فانهم يثورون ويطالبون بدمه ، فاذا علموا ان مريم قد قتلته فربما أساءوا اليها فيستاء هانىء ، وتكون البلية الثانية شرا من الأولى .. فلبث الأمير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق ، وأصابعه تداعب لحيته ، وقد استغرق فى التفكير حتى غلب عليه الجمود ..

وكان هانىء مطرقا مثل اطراقه .. ولم ينتقل فكره من مريم الا

الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

- ٣٤ -

حيلة جديدة

انتبه عبد الرحمن بغتة ونظر الى هانىء ، فلما رآه مطرقا أدرك أنه يفكر فى أمر غير الذى يفكر فيه ، فعذره فى استغراقه فى التفكير فى مريم بعد ما شاهده منها ، ولكنه خاطبه بلطف وايناس قائلا : « بورك لك فى هذه الفتاة ، فانك والله جدير بها ، ولكننى لا أزال أتوقع منك رأيا لايتم لنا أمر بدونه »

فلما سمع هانىء كلامه عاد الى رشده وفاته لأول وهلة ادراك مراد عبد الرحمن ، فقال : « وأى أمر تعنى أيها الأمير ؟ .. »

قال عبد الرحمن : « أعنى بسطاما وقتله .. لا أنكر انه نال ما يستحقه ، ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقائه اذا لم يكن للاستعانة بسيفه فللاحتفاظ بولاء قبيلته . وانت تعلم شأن أولئك البرابرة معنا ، وخصوصا رجال بسطام فانهم انما أعانونا طمعا فى الغنائم ولم يذعنوا لأوامرنا الا وفى نفوسهم ضغائن علينا ، لاعتقادهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والأموال دونهم . فاذا علموا بمقتل أميرهم أخشى أن يبدو منهم ما يفسد أمرنا ويفرق كلمتنا ، ونحن فى أشد الحاجة الى الاتحاد .. فما رأيك ؟ » ..

فبادر هانىء بالجواب كأنه شغل بتنميقه واعداده منذ أيام ، وقال : « ليس أهون علىّ من ارضاء أولئك البرابرة ، فقد قلت انهم لم يعاونونا فى هذه الحرب نصرة للاسلام ، وانما أرادوا كسب الأموال ، وأقول لك انهم لم يطيعوا بسطاما الا لمثل هذه الغاية لأنه واسطة بيننا وبينهم ، فاذا تحققوا من ذلك الكسب ظلوا على الطاعة .. وزد على ذلك اننا نستطيع أن نوهمهم بأن ذهابه سيدعو الى زيادة أنصبتهم من الغنائم لأنه كان كثير الطمع لنفسه ، ثم نمنح أولئك الأمراء هدايا خاصة ونطلب اليهم أن يختاروا رئيسا منهم بدل بسطام .. واذا عهدت الىّ بتدبير ذلك فعلته وأنا ضامن السلامة باذن الله ، فان من كانت مطامعه الأموال لا يصعب ارضاؤه »

فأعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأى ، وعهد اليه بتدبير الأمر بحكمة ، وفوّض اليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعبا عليه ..

وفى صباح اليوم التالى ، تفاوض الأمراء فى أمر الأخبية فأجمعوا على حملها الى هناك ، فبعثوا جندا لنقل المضارب وخيام الغنائم التى كانت باقية فى المعسكر القديم . وأتمّ هانىء مهمته على نحو ما قال ، ومكثوا هناك يتأهبون للمسير نحو نهر لوار بعد رجوع سالمة من مهمتها ليعلموا كيف يتصرفون .. لأن عبد الرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعى سالمة ، لعلمه ان اتحاد جنده لايبقى طويلا لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد

أمرائه ، فاذا لم يتخذ وسائل أخرى خشى العاقبة فضلا عما يترتب على مشروع سالمة من حقن الدماء وسهولة الفتح

أما ميمونة ، فقد علمتَ ما كان من حيلتها ، وما دبرته لفشل جند المسلمين ، وكيف انها لم تنجح لأسباب تقدم ذكرها .. ولكنها كانت بدهائها ومكرها قد حفظت لنفسها خط الرجوع ، فأظهرت أنها أسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل بسطام لأنه مطلع على بعض أسرارها ، وفى مقتله أمان من افشائها .. فلما خرجت مريم على الجواد الأدهم فى ذلك اليوم أرسلت ميمونة أحد الرجلين فى أثرها ، فلما عاد من المعركة وأنبأها بهزيمة جند الافرنج أمرت الرجلين بالفرار ، وظلت هى فى أغلالها هناك على أمل أن تبعث مريم من يخلصها ، ولم يخطر لها أن تأتى هى بنفسها . فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة ، فحلت قيودها وسارت بها الى معسكر العرب ..

وقد رأيت مبالغة ميمونة فى امتداح شهامة مريم ، لأنها رأت الأميرين معجبين بها .. فأرادت مجاراتهما تمويها لما قد يظنان ، وفى الواقع لم يخطر لهما شىء من سوء الظن بها من هذا القبيل . أما هى فقد كظمت ما فى نفسها وعزمت على اتخاذ وسيلة ناجحة كانت قد ادخرتها فى ذهنها لحين الاضطرار . فلما ذهبت مع مريم الى الخيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والاشادة بما شاهدته من سجاياها ، حتى اذا خلت بنفسها لبثت تنتظر عدلان الأحول لتفاوضه فى الحيلة التى دبرتها وهى لاتشك فى نجاحها

- ٣٥ -

سالمة فى بوردو

فلندعهم يدبرون وينتظرون ، ولنعد الى سالمة ومهمتها فقد طال بنا السكوت عنها .. تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتمس بوردو وحسان العجوز فى ركابها ، فلما بعدا عن الخباء وأطلا على بوردو التفتت سالمة الى حسان وقالت : « هل كان يخطر لك ياحسان أن نوفق الى مثل الأمير عبد الرحمن بعد طول انتظار ، عملا بالوصية ؟ » ..

فقال : « أما وقد ذكرتنى بالوصية يامولاتى ، فهل لى أن أسأل اذا كنت ما تزالين محتفظة بتلك المحفظة .. فقد رأيتها بين يديك ، وكان عهدى انك تحفظينها فى مكان لايراها فيه أحد »

قالت : « صدقت يا عماه انها كانت فى يدى فى أثناء خروجنا من الأسر لأنى كنت قد أخرجتها من مخبئها ساعة يئست من الحياة ، وحسبت اذ هؤلاء العرب سيقتلوننى .. فهممت قبل أن تفيض روحى أن أضم هذه الوصية الىّ وأتنسم ريح صاحبها منها ، ثم أعهد اليك أو الى سواك أن يوصلها الى صاحب هذا الجند .. أما الآن فلا تقلق لأنى تأبطتها تحت أثوابى . وما ظنك فى مريم وهى وحدها فى خباء العرب ؟ »

قال : « لا بأس عليها يامولاتى .. والعرب شديدو العناية

بنزلائهم وخصوصا من كان منهم فى ضيافة الأمير الكبير . وقد لحظت من أهل ذلك الخباء ترحيبا كبيرا بمريم ، فالنساء أحببنها واحتفلن بها وخصوصا ميمونة ، وقد سمعت من الخصيان الصقالبة الذين يخدمونها انها أحبت مريم وبذلت كل ما فى وسعها لراحتها » وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدوا خفيفا بجانب ركاب سالمة ، وهى تسمع كلامه ممتزجا بشخير الفرس وطقطقة حوافره ، فلما قال ذلك جذبت لجام الفرس ليسير بها الهوينى ، والتفتت الى حسان وقالت : « لا أخفى عليك ياحسان انى أخاف على مريم من هذه المرأة أكثر من سائر أهل هذا الجند نساء ورجالا .. »

فبغت الرجل وكان يتكلم وهو يتفرس فى الأرض ليتقى الحجارة والأشواك ، فلما سمع قولها رفع بصره اليها ، وقال : « وما هو سبب خوفك يامولاتى ؟ »

قالت : « لأنى شاهدت هذه المرأة التى تسمى ميمونة فاذا هى داهية دهياء ، وأظننى عرفتها وأخشى أن تكون قد عرفتنى ، ولذلك فانى لم أطل الكلام معها .. ولا شك ان بقاءها فى هذا المعسكر خطر ، فاذا انتهيت من مهمتى هذه فى بوردو وما وراءها فسأعود الى الأمير وأطلعه على حقيقة هذه المرأة لئلا تخدعهم وتفسد شئونهم لأنها ذات شأن عند الافرنج ويهمها أن يكون النصر لهؤلاء ، وانى أعجب أن تكون فى خباء الأمير عبدالرحمن، وعهدى بها فى غير هذه البلاد .. وسننظر فى شأنها عند رجوعنا »

فلما سمع حسان قولها مال بكليته الى استطلاع الحقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على السؤال عن اسمها فقال : « وهل أعرفها أنا ؟ » ..

قالت : « لا شك فى ذلك .. دعنا من هذا الآن »

فسكت حسان ، وكانا قد أشرفا على أسوار بوردو .. فرأيا الناس خارج السور زرافات ووحدانا وقد خرجوا لافتداء أسرارهم ، وكلهم فرحون بما أوتوه من الرفق . وأكثر الناس غيظا من ذلك الرفق اليهود ، وخصوصا الذين كانوا قد ابتاعوا الأسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم ، فلما جاءهم أمر الأمير بالتخلى عنهم غضبوا واستغربوا ذلك وأرادوا الامتناع عن التسليم ثم أذعنوا ، فلما رأت سالمة تزاحم الناس هناك تحولت الى باب من أبواب المدينة بعيدا عن ذلك الزحام ، وسارت توا الى أسقف بوردو فترجلت بباب القلاية ، وتركت حسانا عند الفرس ، ودخلت تلتمس الأسقف ، فرأت أهل ذلك المكان من القسس والرهبان وغيرهم فى حركة ، وقد تجلت فى وجوههم امارات السرور لما جاءهم به هانىء فى مساء الأمس من آنية الكنيسة مع الأمر بافتداء الأسرى . وكان أكثر القسس يعرفونها فرحبوا بها وبشروها بما كان ، فهنأتهم وطلبت اليهم أن يستأذنوا الاسقف فى مقابلة خاصة ، فالتمسوا لها الاذن .. فلما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام ، مع انه لم يكن يعرف حقيقة أمرها .. ولكنه كان يحترمها لحكمتها وسداد رأيها

فلما دخلت قبّلت يده فباركها ، وجلست الى جانبه فسألها عما تريد ، فقصت عليه مختصر ما جرى لها حتى انتهت الى أمر الأسرى .. فاكّدت له ان العرب أكثر الأمم رفقا برعاياهم وأسراهم ، وانهم انما امتد سلطانهم فى الشرق والغرب لما آنسه أهل البلاد على اختلاف مذاهبهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند أمم الافرنج فى ذلك العصر ، وان ما أصاب كنيسة بوردو من النهب انما وقع سهوا من بعض ذوى المطامع من أتباع جند المسلمين غير العرب

فلما سمع الأسقف كلامها تذكر انه كثيرا ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق ما يسمع ، وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللغة العربية وهى مقيمة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية . فلما سمع قولها بعد ما شاهده من الرفق آمن بصدقها ، فجاراها فى الاطراء ، فاغتنمت تلك الفرصة وانتقلت الى الحديث المقصود فقالت : « لا أنسى ياسيادة الأسقف ما كنت ألقاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد ، ولو أتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لزدت ارتياحا لهم ، ولذلك فانى أستغرب محاربة أهل هذه البلاد لهم والوقوف فى سبيلهم »

فقال الأسقف : « صدقت يا ابنتى ، اننا كثيرا ما سمعنا بعدلهم .. غير اننا رأينا من بعضهم من القسوة ما يشيب لهوله الأطفال حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون

الأوثان ولا يعرفون عبادة الله .. » (١)

- ٣٦ -

رأى الافرنج فى المسلمين

فابتسمت سالمة ابتسام الاستغراب ، وقالت : « يعبدون الأوثان ؟.. ان ذلك من الأراجيف التى يشيعها أعداؤهم ، فانهم يعبدون الاله الواحد ، ويحترمون الديانة النصرانية احتراما كبيرا ويكرمون السيد المسيح كثيرا . ولا يعقل أن تنسب اليهم الوثنية ونبيهم انما قام لابادة الأصنام التى كان العرب يعبدونها من قبله فكسرها ومحا الصورة التى كانت فى معبد الوثنية فى مكة ، وبغّض الوثنية الى أتباعه حتى حرّم عليهم التصوير ونحت التماثيل .. فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث مقصود لغرض من الأغراض . ولا أنكر عليك ما قد يبديه بعضهم من سوء التصرف أو الطمع أو نحو ذلك ، فهذا لايصح القياس عليه كما لا يصح أن نقيس كل أعمال الأساقفة بعمل واحد منهم شذ عن المنهج القويم . وزد على ذلك ان العرب مهما يكن من أمرهم فهم أرفق بأهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاءوا بقبائلهم واستبدوا بهم واستعبدوا الناس واستخدموهم فى أشق الأعمال ولم يقلدوا واحدا من أهل البلاد وظيفة من وظائفها .

(١) رينو

فهم القابضون على زمام الحكومة ، وهم المغتصبون لخيرات البلاد ، وما الغاليون الا مثل العبيد أو الاقنان الذين يشتغلون فى الحقول . هل رأيت غاليا تقلد منصبا كبيرا ، أو هل رأى الغاليون راحة منذ وطىء هؤلاء الافرنج بلادهم ؟.. أما العرب فاذا فتحوا بلدا أطلقوا حرية الأديان والمذاهب والمعاملات ، حتى الحكومة والقضاء فانهم يتركونهما لأهله ويقتصرون هم على قيادة الجند وحماية الأهالى من الأعداء ، لا يلتمسون أجرا على ذلك الا مالا يسمونه الجزية وهى لاتساوى بعض ما يقتضيه أولئك الافرنج من الضرائب الفادحة ، ناهيك بالحرية التى يتمتع بها الأهلون تحت عنايتهم . وسيادتكم تعلمون حال أهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين فانها أصعب مما كانت تحت سلطان الرومان قبلهم . أليس معظم الناس هنا عبيدا ، فحكامهم يتصرفون فيهم تصرف المالك فيما يملك ؟ نعم ان العرب عندهم العبيد والموالى ولكنهم أشد رفقا بهم من أولئك ، فان الرق عند المسلمين غير مستحسن ، وكان الاسلام يدعو الى ابطاله (١) ولو لم ير نصارى الشرق والغرب ما رأوه من الرفق والعدل تحت ظل المسلمين ما فضلوهم على الروم والفرس .. لقد أطلت عليك الشرح ؛ ان غرضى أن تسعى فى حقن الدماء ، فهل تساعدنى على ذلك ؟ ان المسلمين فاتحون هذه البلاد لا محالة ، فبدلا من أن يفتحوها عنوة ويسفكوا فيها الدماء ويهدموا المنازل والقصور ،

---

(١) تبرئة الاسلام

فليكن فتحها صلحا ويحفظ لكل واحد ماله وعرضه .. والسعى فى هذا السبيل من واجبات سيادتكم أكثر مما هو من واجبات أمثالى .. » وكانت سالمة تتكلم وامارات الجد والاهتمام ظاهرة فى كل كلمة وكل حركة

وكان الأسقف يسمع أقوالها ويعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكنتهم زمنا طويلا ، وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم ، ومع كل ما فى أقوالها من المخالفة للاعتقاد الذى كان متسلطا على عقول أهل تلك البلاد يومئذ فانه أحس بالاقتناع بقولها ، ونبهه ضميره الى واجب يقضى عليه بالسعى فى حقن الدماء على ما سمعه من سالمة فقال لها : « جزاك الله يا ابنتى على سعيك فى مصلحة شعب الله ، ونطلب اليه تعالى وتتضرع الى السيد المسيح أن يقدم ما فيه الخير »

فلما آنست منه اقتناعا ، عمدت الى تحقيق هدفها بلباقة وحسن سياسة فقالت : « لا أريد من سيادة الاسقف أن يكلف اخواننا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفوا ، ولا أن يساعدوهم على أخذها بالسيف .. وانما أرى أن يتركوا الأمر لمن غلب بغير أن يساعدوا أحد الفريقين على الآخر . فاذا غلب الافرنج فهم أصحاب السيادة والبلاد فى أيديهم ، واذا انتصر العرب فلا يضرنا انتصارهم بل هم خير لنا من أولئك »

فارتاح الأسقف الى قولها وكان رومانى الأصل ، وقد رأى من الافرنج استبدادا فى دائرة نفوذه حتى كادت السلطة أن

تخرج من يده ، فقال لها : « أود أن يعلم اخوانى الأساقفة بهذه النصيحة فى البـلاد الأخرى ، ولكننى أخشى أن يطّلع الحكام الافرنج على ذلك فيعود وبالا علينا »

قالت : « علىّ ابلاغ ذلك الى من شئت ، وانما أطلب منك كتابا ترسله معى الى أسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئا غير التعريف البسيط وانى من أبنائك المخلصين ، فاذا أنا لقيته أطلعته على ما أراه من هذا الموضوع . وأتوسل الى مولاى أن يبث هذه الروح فى رجال بطانته على ما يراه ، ولا أظن واحدا من أهل بوردو لا يشـهد هذه الشـهادة عن العرب وقد أعادوا اليهم أسراهم وآنية كنيستهم »

فقال الأسقف : « صدقت يا ابنتى ، ولا يجوز لنا انكار هذا الجميل .. »

قالت : « لذلك أرجو اذا لقيت حاكم البلد أن تبث هـذه الروح فيه ، اذ ربما طلب اليه الكونت أود نجدة لمساعدته فى قطع الطريق على العرب لأنى علمت أن الكونت المذكور معسكر فى مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الأمر اليك وانى مسافرة الى بواتيه فى هذه الساعة ، فهل تأذن لى فى كتاب الى أسقفها ؟ »

قال : «نعم» .. ثم نهض وكتب على منديل من حرير سطرين للغرض المقصود ، فتناولت الكتاب وقبّلت يده فباركها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو وبواتيه ، وهى نحو مائة ميل

لا يمكن قطعها فى أقل من ثلاثة أيام أو اربعة ، وحسان لا يقدر على السير فى ركابها ماشيا كل هذه المسافة ، فطلبت الى الأسقف أن يأمر لها بفرس يركبه حسان فأمر لها بواحد ، فخرجت شاكرة وأهل القرية يتباحثون فيما عسى أن يكون من أمر هذه السيدة ومجيئها على تلك الصورة . أما هى فانها خرجت فرأت حسانا والفرسين فى انتظارها فركبت وركب حسان وخرجا من بوردو يلتمسان بواتيه

- ٣٧ -

الدير

وكان حسان يعرف أكثر من طريق يؤدى الى بواتيه ، فسار فى أسهل الطرق بحيث لايكون عليهما بأس .. وقد دبَّر أن يصلا كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهضان فى الصباح التالى .. فمشيا بقية ذلك اليوم ، وقلّما تكلمت سالمة لانشغال خاطرها بالمهمة التى تسعى اليها .. فلما أمسى المساء أشرفا على دير لايعد من الأديرة الكبرى . فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجرى مياهه فى معظم السنة ، وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها . وهو كسائر الأديرة فى تلك الأيام ، يتألف من بناء محاط بسور عال له باب صغير للدواب ونحوها . فلما أشرفا على

الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلّق فوقه . فأطل عليه راهب من كوة فوق الباب سأله عن غرضه فقال له : « نحن غرباء نبغى المبيت عندكم ، فهل من مكان ؟ » . قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ، ولكن ظهر من لهجته انه غريب عنها ففتحوا لهما ، فدخلت سالمة وتركت حسانا لينظر فى أمر الفرسين ثم يدخل فى جملة خدم الدير . فلما رآها الراهب البواب توسَّم فى منظرها وفى زيها هيأة الجلال والوقار فأسرع الى الرئيس فأخبره بذلك فأمر أن يدخلها اليه . فعاد وهو يقول : « تفضلى الى حضرة الرئيس وهو يأمر بغرفة تقيمين فيها ما شئت »

فمشت سالمة فى صحن الدير فرأته مزدحما بالناس من الرجال والنساء والأطفال ، وأكثرهم من أهل بوردو وضواحيها ، فأدركت انهم لجأوا الى الدير خوفا من العرب ، فظلت فى طريقها حتى أقبلت على غرفة الرئيس . فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها بالطعام ، وسألها عن مسيرها فى ذلك الطريق ، فقالت : « انها قادمة من بوردو ، وسائرة الى بواتيه »

فلما علم انها قادمة من بوردو قال : « لعلك فى جملة الذين فروا فى أثناء الحرب على أثر نهب الكنيسة والفتك بالأسرى ؟ »

قالت : « لقد أخطأ الذين فروا لأن نهب الكنيسة انما كان تعديا من بعض الغوغاء المرافقين لجند العرب . ولما علم الأمير بذلك أمر باعادة الآنية الى مكانها ورد الأسرى الى أهلهم بالفدية القليلة ، وأحاطوا أهل بوردو بكل وسائل الرفق .. »

فلما سمع الرئيس قولها ، بدا الاستغراب على وجهه وقال : « وهل يعرفون الرفق ؟ وما الذى يدعوهم اليه ، أو يردعهم عن الفتك والقتل ولا دين لهم ولا ذمام ؟ »

فقالت وهى تبتسم : « هل رأيت أحدا منهم يامولاى ؟ »

قال : « كلا .. ولكننى سمعت ذلك من كثيرين »

وأرادت سالمة أن تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء وصياحا فى بهو الدير ، فوقف الرئيس بغتة وصفق فجاءه أحد الرهبان يعدو ، فصاح فيه الرئيس : « ما هذه الضوضاء ؟.. »

قال الراهب وهو يضحك والبغتة ظاهرة فى وجهه : « هـذا داتوس ياسيدى »

قال الرئيس : « داتوس ؟.. وما الذى فعله ؟.. لقد عهدناه معتزلا لايخاطب أحدا ولا يقوم الى الطعام الا كرها ..! »

قال : « ذلك هو عهدنا به أيضا ، ولكننا نراه قد أصيب بجنون مؤقت فهجم على خادم الأميرة (وأشار الى سالمة) وأوسعه ضربا وصفعا ، وهو يصيح : يا أماه ..! يا أماه ..! حتى كاد أن يقتله لو لم نتدارك الأمر ونمسكه منه »

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت : « وأين هو حسان ؟.. وما الذى جرى له ؟.. هل عليه من بأس ؟ »

فقال الراهب : « هو فى خير وسلامة ، ولكننا لم نستطع منع داتوس من الهجوم عليه ، فبعد أن أرجعناه عنه هجم عليه ثانية بهراوة كانت بيده ، ولما أمسكناه عنه بالعنف رمى بالهراوة على

حسان وسقط هو على الأرض وقد أغمى عليه من شدة الغيظ . وقد تركته وهو يختلج ويرتعد ، ولا يزال يذكر أمه .. »

فنهض الرئيس وهو يهز رأسه كأنه يستعيذ من شر يخافه . وتبعته سالمة وقد استغربت ما سمعته عن ذلك الشاب ، وتبادر الى ذهنها انه مصاب بخبل فى عقله . وبعد هنيهة أشرف الرئيس وسالمة على مكان الحادثة ، وكانوا قد أدخلوا حسانا الى حجرته ليغسلوا جراحه ، فوقع نظرها على شاب فى عنفوان الشباب مطروح على الأرض ، وقد تطايرت قبعته واشتبك شعره ، وكان جميل الصورة واسع العينين شديد بياض الوجه أشقر الشعر . وكان قد فتح عينيه وتحفز للوقوف كأنه أفاق من سكرة ، وجعل يلتفت يمينا وشمالا كأنه يبحث عن شيء ضائع . فأشار الرئيس الى الرهبان أن ينقلوا حسانا الى مكان لايراه فيه داتوس : وأمسك بيد الشاب وخاطبه بلطف وباركه ودعا له وأشار اليه أن يمضى الى غرفته ، فمضى وهو لايزال يلتفت ولكنه أمسك عن الكلام ..

— ٣٨ —

داتوس

فلما رأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها انه أصيب بجنون أو سكنه شيطان لكنها أحبت أن تتحقق من ظنها ، فلما عاد

الرئيس عادت هي معه وقد توسمت فى وجهه تغيرا زادها رغبة فى السؤال عنه ، وأنساها البحث عن حسان ، على انها لم تكد تبدأه بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصــوت منخفض قائلا : « ألا تزالين تجادلينني فى شأن أولئك العرب وتزعمين انهم أهل ديانة ورفق ..؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا أكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت : « لم أفهم يا أبتى صــلة هــذا الحادث بالمسلمين أو العرب ؛ بل أرى ان هذا الافرنجى قد تعدى على خادمى لأنه عربى حتى كاد يقتله .. »

وكانا قد دخلا الغرفة فأغلق الرئيس بابها وأومأ الى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة ، وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال : « لو عرفت قصة هــذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتعديه لثبت لك صدق قولى فى العرب ، وأقلعت عن اعتقادك فيهم الخير .. »

فأصاخت بسمعها ولسان حالها يقول : « ما هى قصة هــذا الشاب ياترى ؟ »

فقال الرئيس : « اعلمى يا ابنتى ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجنّدوا لمحاربة أولئك العرب حين بلغهم اقدامهم على فتح هذه البلاد . وكانت له والدة لايعرف من الأهل سواها ولا هى ترجو سواه ، فتركها فى بيتها وسار الى الحرب .. فاتفق فى أثناء غيابه أن جاء المسلمون الى ذلك البلد ، ونهبوا بيت

المرأة وساقوها فى جملة السبايا الى قلعتهم فى تلك المنطقة .. فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه بما حدث لأمه ، ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق ، فأطل على القلعة وكانت موصدة ، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه ، فقال له : « أطلب والدتى فانها أسيرة عندكم » .. فأجابوه : « لانرد لك أمك الا اذا أعطيتنا الجواد الذى تركبه ، والا فاننا نذبحها أمام عينيك » . فغضب داتوس لذلك غضبا شديدا وقال لهم : « لا أعطيكم جوادى ، وافعلوا بوالدتى ما تشاءون » . قال ذلك وهو يظن انهم يخوفونه بتهديده بقتلها ، وانهم لاينوون اعدامها فعلا . ولكنه ما لبث أن رآهم اجتزوا رأسها ورموه اليه وهم يقولون : « هذه والدتك فاليك هى » . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى رأسه وغاب عن رشده . ولما عجز عن الوصول الى القاتلين لتحصنهم وراء الأسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكى ويركض فرسه يمينا وشمالا كالمجنون ، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا (١) وقد قص علىّ خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب أهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة أعوام لايتكلم ولا يجالس أحدا كأنه أصيب ببله .. ويبدو انه رأى خادمك واستنشق من مظهره أو كلامه انه عربى ، فهاج به الغضب وتذكر مصيبته ، فاندفع الى ما كان منه .. »

---

(١) دينو

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهى فى دهشة شديدة ، فلما أتم الرئيس رواية القصة أحست بضعف حجتها فى الدفاع عن العرب ولكنها تجلدت وقالت : « لا أنكر على مولاى الرئيس حدوث مثل ذلك من بعض العرب ، كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم .. ولكن المعول فى الأمر على أغراض الجند بجملته .. »

فقطع كلامها قائلا : « وما عسى أن تكون أغراضهم وقد شاهدنا من أعمالهم فى أثناء فتوحهم ما لم يبق معه حاجة الى دليل .. ألم ينهبوا الأديرة ويأخذوا آنيتها ؟.! ألم يأسروا الرهبان ويختاروا أجملهم خلقة ويبيعوهم بيع الأرقاء فى أسبانيا ، وعهدنا بذلك لا يزال قريبا ؟ » (١)

فسرت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذه الحجة ، وقالت : « نعم .. ان بعض العرب نهبوا بعض الكنائس والأديرة ولكن أمراءهم لم يكونوا يقبلون ذلك ، وكثيرا ما كانوا يعيدون الآنية الى أصحابها ويطلقون سراح الأسرى وخصوصا الرهبان لأن نبيهم أوصاهم بهم خيرا . وآخر ما حدث من هذا القبيل ان بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة ونحوهم نهبوا كنيسة بوردو فلما علم أميرهم بذلك رد ما أخذ واعتذر وأوعز الى جنده ان لايعودوا الى مثل ذلك . فالعرب أهل رفق وعدل ، وفى اعتقادى انهم خير لأهل هذه البلاد من أولئك الافرنج . أقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السرى وأرجو أن

(١) رومى — الجزء الثالث

لا يطلع عليه أحد ، فاذا قضت الأحوال بانتصار العرب تحققت من صدق قولى »

فبغت الرئيس لقولها وصاح : « ينتصر العرب !.. معاذ الله »

فضحكت سالمة لبغتته وقالت : « والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .. » وتحققت من ان الرئيس ممن لايرجى اقناعهم بفضل العرب فسكتت ، ولكنها خشيت أن يكون عليها بأس مما جاهرت به من ميلها إلى العرب ، فألحّت عليه أن يعتبر كلامها فى هذا الشأن من قبيل سر الاعتراف ، فوعدها بذلك وهو صادق فى وعده لأنهم شديدو المحافظة على ذلك السر

— ٣٩ —

الجرح

وأرادت سالمة — بعد خروجها من عند الرئيس — أن تفتقد حسانا لكنها ظنته قد نام ، فمضت الى الغرفة التى أعدوها لها فباتت تلك الليلة ، ونهضت فى الصباح وهى تعتزم المسير .. فبعثت الى حسان ، فقيل لها انه لايستطيع السفر لجرح أصابه فى رأسه فذهبت اليه بنفسها تتفقد شأنه ، فرأته راقدا وقد شدّ رأسه بمنديل والتعب ظاهر فى وجهه . فسألته عن حاله فقال : « لقد أصاب ذلك الشاب منى مقتلا بهراوته ، ولولا لطف الله لذهب بحياتى فورا.. ولست أدرى مع ذلك سببا لهذا التعدى..»

ولم تكن سالمة تخفى عن حسان أمرا وهو خزانة أسرارها ، فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك من مناقشات بينها وبين الرئيس الى أن قالت : « ولا بد من الاسراع فى المسير الى بواتيه ، ثم الى تورس ، قبل أن يفسد الأمر علينا ، والمسلمون فى انتظارنا على أحر من الجمر »

فقال : « لو استطعت الحركة ما أمسكت عن السفر ، ومع ذلك فاذا شئت المسير وحدك على أن ألحق بك حين أستطيع الركوب فعلت »

فأطرقت سالمة وأخذت تفاضل بين أن تمكث هناك بضعة أيام ريثما يشفى حسان فتفوتها الفرصة ، أو أن تذهب وحدها وتعرّض نفسها لأخطار الطريق... وبعد التفكير مدة ، رأت أن تتصرف تصرفا وسطا فقالت لحسان : « انى باقية فى انتظارك هنا الى الغد فاذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معا والا فانى أسير وحدى » فأثنى عليها وقال : « غدا ستظهر نتيجة الجرح.. فاذا لم تصبنى الحمى كان الشفاء قريبا باذن الله »

فعملت سالمة على الاهتمام بجرح حسان كأنه كان فى بدنها لأنها كانت تحترمه وتكرمه لانقطاعه لخدمتها أعواما ، ولأنها فى حاجة اليه ، خصوصا فى هذا السفر .. فذهبت الى الرئيس وطلبت اليه الاهتمام بحسان ، فأذعن لها لأنه شعر بأنه مظلوم ، فاستدعى راهبا كان قد تفقّه فى الطب ، وكان أهل الدير يرجعون اليه فى مثل هذه الحوادث ، وأوصاه بمعالجته والعناية به .

فذهب اليه ومعه سالمة ، فلما نزع الرباط وشاهد الجرح زمّ شفتيه وأبرزهما ورفع حاجبيه ، وكانت سالمة ترقب ما يبدو منه ، فلما لمست قلقه خفق قلبها خوفا على حسان ، ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فاذا به قد التفت الى راهب آخر كان فى خدمته ، وأومأ اليه أن يأتى بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكأس . وكان الطبيب فى أثناء ذلك قد قصّ شعر رأس الجريح ، وأكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتمت سالمة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئا كالخمر لونا ورائحة ، واستعان بالراهب الآخر على غسل الجرح به ، فوقع نظر سالمة على الجرح فاذا هو طويل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تجلدت لتسمع قول الطبيب على حدة ..

وبعد الغسيل شد الطبيب الجرح باللفافة وأشار الى حسان أن يستلقى ويستريح ليرى ما يكون من جرحه فى الغد ، وتركوه نائما وخرجوا . فلما صاروا خارجا تقدمت سالمة الى الطبيب تستطلع رأيه ، فقال : « لقد أبطأنا عليه فى العلاج ، وكان يجب علينا أن نعجل بتطهير الجرح حينما أصيب ، وعلى كل حال لايمكننا معرفة النتيجة الآن »

فاستعاذت سالمة بالله وصبّرت نفسها الى الغد . فجاءته فى الصباح فاذا هو لايزال نائما فنادته فلم يجبها فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت انه يعانى من شدة الحمى ، فاستدعت

الراهب الطبيب .. فلمـا جاء وفحصه ، قال : « ان الرجل فى غمرة الحمى وفى خطر حتى يفيق »

فقالت : « ومتى يفيق ؟.. »

قال : « لابد من الانتظار يوما أو يومين وعلى الله الشفاء » فارتبكت سالمة ، ووقعت فى حيرة من أمرها ، وخافت على حسان لأنه يسوؤها أن يصاب بسوء لما له من الأيادى البيضـاء فى خدمتها ، فضلا عن حاجتها اليه .. فقضت ذلك اليوم أيضا كأنها على جمر الغضا وهى تصلى وتتضرع الى الله أن يشفيه ، وقضت ليلها وهى تفكر فى هل تنتظر شفاءه أو تسير وحدها ؛ فرأت انها لو بقيت عند حسان لم تنفعه لأن أهل الدير أكثر عناية به منها ، فعزمت على السفر فى الغد على أى حال بعد أن توصى الرئيس والطبيب به ..

فلما أصبحت سارت توا الى حسان فرأت الراهبين فى خدمته وهو لايزال غائبا عن رشده فسألتهما عن حاله فقال أحدهما : « أراه قد تندى بالعرق قليلا ، وهذه علامة حسنة تبشر بالخير » فذهبت الى الرئيس وأخبرته عن اضطرارها للسفر العـاجل وأوصته بحسان فبعث الى الطبيب وبالغ فى توصيته .. فلما خرج الطبيب طلبت من الرئيس أن يرسل معها من يصحبهـا الى بواتيه ؛ وأخرجت من جيبها دنانير دفعتها اليه باسم الدير ، فأجابها الرئيس الى رغبتها وأمر راهبا من رهبانه أن يرافقها الى حيث تشاء . ولما تأهبت للمسير ذهبت الى حسان كى تراه قبل

سفرها ؛ فوجدته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير، فكررت على سمعه الوصية وقالت : « اذا منّ الله عليه بالشفاء فابقه عندك ريثما أعود ، فانى عائدة على عجل» فأجابها بالايجاب وقد نزلت من نفسه منزلا رفيعا لهيبتها وحكمتها وكرمها . وكان خدم الدير قد أعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير، عليها خُرج فيه بعض الأطعمة الجافة زادا لهما فى الطريق، وركبا وسارا والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لم تخطىء الطريق الى بواتيه ، ومنها الى تورس ، لكثرة مايركبونها الى تينك المدينتين لنقل لوازم الدير من الآنية والأطعمة وما اليها . وكانت بسالمة قبل خروجها من الدير قد التفّت برداء أسود فأصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شبها بهن اصطحابها ذلك الراهب ، وكان على رأس الراهب قبعة كالخمار تكسو كل رأسه الا وجهه وقد تجمعت لحيته بين جناحى الخمار وبرزت الى الأمام مع شاربه فأصبح فمه غائرا ..

— ٤٠ —

شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس فى الضحى وتوجها شمالا فى طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق ، وكانت

سالمة تعجب لما تراه من المنـازل المهجورة والكروم المتروكة ، وهى تعلم ان أهـل القرى اذا نشبت الحرب لجأوا الى المدن يحتمون بأسوارها ، ولكنها رأت ما يدل على الهجرة القريبـة كأن أهل تلك الحقول تركوها بالأمس ، فقالت فى نفسـها : « لابد أن حادثا طرأ على هذه البلاد » . فالتفتت الى الراهب وهو على بغلته بجانبها وقالت : « مالى أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة ؟ .. »

قال : « لا أظنك تجهلين ما نحن فيه من الضيق بسبب هجوم العرب على بلادنا ، وأهل القرى لا حصون تحميهم من السلب والنهب » ..

فقالت : « ولكن العرب لايزالون بعيدين عن هذه القرى ، وربما لايستطيعون الوصول اليها فكيف هجرها أهلها عفوا ؟»

قال : « ان خوف أهل القرى يا ابنتى ليس من جند العرب فقط ، بل هم يخافون جند الافرنج أنفسهم لأنهم اذا مروا بقرية نهبوها وأذلوا أهلها وخربوا منازلها وليس من يردعهم ، والظاهر انهم علموا بقرب مجىء ذلك الجند ففروا من وجوههم ، لا أدرى الى أين .. ولعلهم لجأوا الى البلاد البعيدة عن الطريق ريثما يمر الجند فيعودون الى حقولهم »

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها ، ولكنها كانت منشغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه عن بعـد وهو راكب على جواد وقد سـاقه نحو الجهة التى

يسيران اليها ، ولما رآها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجَّه هو التفاته اليه ، فلما رأت سالمة اتنبــاه الراهب للأمر قالت له : « ما ظنك بهذا الفارس ؟ »

قال : « يظهر من زيه انه من الافرنج .. ولايمكننا أن نحكم على ذلك حكما قاطعا الا بعد رؤية وجهه .. وأراه يقترب منا ، فاذا دنا رأيناه وعرفناه أو سألناه عن حاله » ..

وظل الفــارس يقترب منهما حتى وقعت العين على العين فاذا هو ملثم لايظهر من وجهه الا العينان ، فحياه الراهب فلم يرد التحية ، ولكنه تفرس فى سالمة وثوبها وفرسها وحوَّل عنان جواده وارتد راجعا الى الوراء . فلما رأت سالمة ذلك اضطربت وحسبت لذلك الرجوع ألف حساب ، وخشيت أن يفطن الراهب الى ذلك ، فيسىء الظن بها فتجلدت وتظاهرت بعدم الاهتمام ، وقالت وهى تضحك : «يظهر ان الرجل خاف من أثواب الرهبنة ؟»

فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام : « لا أدرى يا ابنتى ما الذى أخافه ، ولكننى أعلم اننى تخوفت من رجوعه على هذه الصورة كأنه جاء للبحث عنا أو عن أحدنا فلما رأى ضالته عاد لابلاغ النبأ .. »

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ، ولكنها ظلت على تجاهلها وركزت تفكيرها فى محاولة الافلات مما قد ينصــبونه لها من الشراك قبل الوقوع فيها .. فتظاهرت بتغيير الحديث ، فقالت : « وهل نحن بعيدان عن بواتيه ؟ .. »

قال : « اذا أسرعنا وسرنا ليلا ونهارا فربما وصلنــاها فى صباح الغد » ..

فاستحسنت ذكره المسير ليلا وقالت : « وهل ترى أن نسير ليلا ؟ ... يظهر أنك تستعجل الرجوع الى الدير لأشغال عندك هناك .. فاذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا مانع عندى »

فقال : « لست مستعجلا وانما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة ، وأما السير فلا خطر منه علينا وخصوصا لأنى أعرف أهل البلاد ويعرفوننى ، وزيدى على ذلك ان الليــلة مقمرة ، فاذا شئنا نزلنا عند العشاء فى دير أعرفه بجانب الطريق ، فنتناول الطعام ونستريح وننام قليلا ثم ننهض فى نصف الليل ونركب توا الى بواتيه فنصلها فى الضحى . واذا كان ذلك متعبا لك ، فافعلى ما تشائين لأنى انما أمرت أن أكون فى خدمتك الى حيث تسيرين » ..

فأعجبها رأى الراهب وسرّها السبيل الذى تفذت به الى ذلك ، وفى اعتقادها انها متى وصلت بواتيه كان لها من أسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس أو غيرهم ، وخصوصا لأنها تحمل له وصية من أسقف بوردو ، ومتى دخلت القلاية أو الدير الذى فيه الاسقف لايجرؤ أحد على أن يؤذيها ..

فأظهرت انها تساير الراهب فى رأيه ، واستحسنت أن يبيتا تلك الليلة فى الدير الذى أشار اليه .. فسار وسالمة تتلفت وراءها خلسة ، وهى تتوقع أن ترى أناسا مسرعين فى طلبها . أما

الراهب فكان مستغرقا فى صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته . وقد قضيا بقية ذلك اليوم وهما يركضان الدابتين فغابت الشمس ولم يدركا الدير المقصود ، وكان القمر فى ربعه الثالث فجاءت العشاء ولم يطلع بعد ، فمشيا فى الظلام وسالمة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب وهى لا ترى الطريق وقد سكتا وسكنت الطبيعة ، ولم يكن يسمع هناك الا وقع الحوافر تارة على الحصى وطورا على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو ، وأما البغلة فظلت نشيطة والراهب يمسكها عن العـدو لئلا تسبق الفرس ..

— ٤١ —

المسافة طويلة

مضى جانب من الليل وهما فى ذلك وأبصارهما شاخصة الى ما يتراءى لهما من رءوس التلال ، واذا هما بنور قد ظهر على مرتفع ، فلما رأته سالمة أرادت أن تسأل الراهب عنه فابتدرها قائلا : « ها نحن على مقربة من الدير ياسيدتى »

ففرحت سالمة بذلك رغبة فى الراحة ، وكادت تنسى ما كانت فيه من الاضطراب التماسا للسرعة

وصار مسيرهما صعودا على الآكام والبغلة دليلهما فى ذلك الظلام ، كأنها تسير وبين يديها المشاعل والأنوار ، والفرس

يتبعها وسالمة ممسكة بزمام الفرس خوفا من أن تزلّ قوائمه ، فزادها ذلك تعبا . وبعد مسير ساعة على هذه الصورة ، وصلا الى سفح ذلك الجبل ولا يزال النور الذى شاهداه على نحو المسافة التى كان عليها عندما رأياه لأول مرة . وكانت سالمة تسمع فى أثناء ذلك الصعود صدى حوافر فرسها فتتوهم ان فرسانا سائرين فى أثرها ، ولم يكن يسليها فى تلك الحال الا ذكر السيد المسيح ورسم اشارة الصليب . وقد أصبحت لفرط قلقها لا تجرؤ على الالتفات الى الوراء

وأما الراهب فكان قد عاد الى الصلاة واستغرق فى الدعاء وبعد قليل رأت سالمة النور يقترب منهما ، فتحققت أنهما صارا على مقربة من الدير ، فنشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة : « لعلنا فى آخر رحلتنا ياحضرة الأب ؟ »

قال : « وصلنا الدير يا ابنتى فاطمئنى .. »

ثم وصلا الى سطح منبسط ينتهى ببناء عال عرفت سالمة من شكله انه دير فتحققت انهما وصلا الى المكان المقصود . ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب وقد توارى النور الذى كانت تراه عن بعد ، واذا بالراهب قد ترجّل ومشى نحو الدير وزمام البغلة فى يده ، وهى لاتزال على فرسها حتى وقف الراهب بجانب باب الدير ، فأمسك بحبل مدلى بجانبه وشدّه ، فسمعت قرع الجرس ثم أطل بواب الدير من كوّته .. وقبل أن يسمعا نداءه صاح الراهب باللغة اللاتينية

قائلا : « افتح سريعا » فكان كلامه بتلك اللغة أحسن وسيلة للتعريف . ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح الباب وخرج منه راهب طويل القامة دقيق العضل ، خاطب الراهب باللاتينيــة واستقبله فترجّلت سالمة ودخلت الى غرفة الضيوف ، وهو يرحب بهما ويسأل الراهب عن سبب تأخره حتى دخلا الغرفة ، ورجع البواب ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة فى شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم فوضعه فى الغرفة وخرج .. ثم جاءهما بطعام ، فجلست سالمة وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما ونسيت ما هى فيه من الجوع ، فقدم لها الراهب الطعام فى قصعة فتناولت منه شيئا ونفسها تطلب النوم أكثر من الطعام . فأكلت وشربت قليلا من الخمر مع الماء وتوسدت الفراش ، ولم توص الراهب بايقاظها طمعا فى الراحة اللازمة ، وتغافلت عن رغبتها فى السرعة اعتمادا على ما يتراءى للراهب من انتهاز الوقت

وأما الراهب فلما رآها تنام صعد الى غرفة البواب فجلس عنده قليلا ، وتحدثا فى شئون كثيرة معظمها خارج عن موضوع المهمة التى ترغب سالمة فى البحث فيها . وفى آخر السهرة استفسر الراهب ، رفيق سالمة ، عن أقرب الطرق الى مدينة بواتيه ..

فلما أجاب الراهب علم انه كان على هدى من رأيه فى خط ذلك المسير . وذهب الى فراش أعدوه له فى غرفة أخرى فنام ، ولم يكد يتوسد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس. فاستغرق فى النوم ولم ينهض الا عند الفجر ، فهرول الى سالمة

فأيقظها وذهب الى مربَط البغال وأحضر الفرس والبغلة فركبا وسارا يلتمسان بواتيه

وأشرقت الشمس وهما لايزالان بين الجبال لايريان ماوراءها ، وسالمة تحسب نفسها تائهة . ولولا ثقتها بمعرفة الراهب تلك الجهات لتحققت انهما ضلا الطريق . ووصــلا عند الضحى الى رابية أطلا منها على سهل بعيد ، رأيا فى أحد جوانبه مدينة فى منتصفها قبة عالية فى قمتها صليب علمت سالمة انها قبة كنيسة بواتيه ، فانشرح صدرها ونسيت تعبها وقلقها وانبسط وجهها وقالت : « أليست هذه بواتيه ؟ »

فقال الراهب : « نعم يا ابنتى .. هذه بواتيه ، وبعد قليــل نصلها وندخلها باذن الله »

فقالت : « من أين ندخلها ..؟ انى أرى سورا »

قال : « ندخلها من بابها الجنوبى الذى ترينه وأمامه تلك الشجرة الكبيرة »

— ٤٢ —

خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها انها اذا دخلت مدينة بواتيه فلا خوف عليها .. ولكنها لم تكد تصل الى الباب حتى رأت جماعة على خيول بملابس جنود

الافرنج قد خرجوا من الباب ، وفى مقدمتهم فارس ملثم ، وعلى رءوسهم الخوذ وعليهم الدروع ، وقد تقلدوا السيوف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الدروع جبب قصيرة الى الركب ، وقد لفوا على سيوفهم لفافة من جلد وعلقوا بأكتافهم جعب النبال وتلثموا بخمر من الحلق المشتبك ، ولم يظهر من وجوههم الا العيون والأنوف والأفواه وبعض اللحى . فلما رأت سالمة ذلك الفارس الملثم عرفت انه جاسوس الأمس فخفق قلبها لرؤيته ، ثم ما لبثت أن رأته قادما نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعاذت بالله ، وأدنت فرسها من الراهب كأنها تحتمى فيه أو تنوى سؤاله عن شىء وقد امتقع لونها وتحققت من الخطر المحدق بها .. واذا بالفارس الملثم قد أومأ الى رفاقه وأشار بأصبعه اليها كأنه يقول : « هذه هى .. فاقبضوا عليها »

فأحاطوا بها وبالراهب أيضا ، فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا : « قد أمرنا بالقبض عليكما والسير بكما الى حضرة الدوق أود » ..

فقال : « وما الذى دعا الى ذلك ، وما نحن من أهل السياسة ولا الحرب .. فانى راهب وهذه امرأة .. أظنكم مخطئين .. »

قالوا : « لسنا مخطئين .. هيا معنا طائعين ، والا فانكما ذاهبان كرها » ..

فلما تحققت سالمة من وقوع الخطر ، ورأت ان نجاتها

مستحيلة من بين يدى أولئك الفرسان تجلدت وقالت : «أظنكم تلتمسون القبض عليّ وليس على هذا الراهب ، فاطلقوه وها أنا أسير معكم الى حيث تشاءون ، ولا حاجة الي التهديد والوعيد»

فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها وحدثته نفسه أن يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ، ولكنه رأى ان بقاءه لاينفعها ، وخشي لوم رئيسه فسكت ليرى مايكون منهم .. فاذا بالفارس الملثم قد خاطب كبير الفرسان همسا ، فأشار هذا الى الراهب بالانصراف ، وأحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الخلف ..

أما هي فلما رأت نفسها في قبضة الافرنج ولا حيلة لها فى النجاة ، تذكرت انها تحمل رسالة من أسقف بوردو الى اسقف بواتيه ، فخشيت ان هم فتشوها أن يعثروا على الرسالة فيقع اسقف بواتيه تحت طائلة الغضب ، فاحتالت ورمت الرسالة فى مكان بحيث لايراها أحد . ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها فخفق قلبها خوفا من وقوعها فى أيدى أولئك الأفرنج ، فجرّها ذلك الى التفكير فى ابنتها وكيف تركتها فى معسكر المسلمين ، وتمثلت فى ذهنها ميمونة وما كانت تخشاه من دسائسها ، فترجح عندها ان ما أصابها انما كان بايعاز من ميمونة ، اذ ليس فى اكتانيا كلها من يعرفها أو يسيء الظن بها سواها .. ولكنها عادت فتذكرت انها خرجت فى تلك المهمة سرا ، ولم تكاشف أحـدا بخروجها غير مريم . وقضت سالمة ساعة فى تلك الهواجس وهى

سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفى جملتهم ذلك الجاسوس الملثم وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته لأنها لو رأت وجهه لانكشف سر ذلك الأمر ، ولكنه كان شديد الحرص على لثامه . على انها تفرست فى ثيابه فرأت بالرغم من انها تبدو فى الظاهر افرنجية ، فانه يظهر من تحت ردائه القصير ان باقى الثوب ليس افرنجيا . ورأت ان ما انكشف من ساقيه أسمر اللون ، ولون الافرنج مشرّب بحمرة ، فتحققت أنه جاسوس من خدم ميمونة . فندمت لأنها لم تكشف أمرها للعرب لينجوا من حبائلها . وأصبحت من جهة أخرى ، تخشى أن توقع المسلمين فى شراكها أو تفسد أمرهم ، فيذهب سعيها فى نجاحهم أدراج الرياح . وودت لو انها تستطيع ابلاغ ذلك الى الأمير عبد الرحمن ، فتأسفت لأنها تركت حسانا فى الدير .. ولا تدرى مع ذلك هل شفى جرحه ، أم أصابه سوء بسببه . وتصورت كيف يكون حال ابنتها ووحيدتها اذا فشل المسلمون ، فتراكمت عليها الهواجس وعظم الأمر عليها وغلبها اليأس ، فانخرطت فى البكاء خلسة . فلما بكت خف بعض ما بها ، ولكن الأمر ما برح عظيما

وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالمة تتهيب مقابلة الكونت اود لئلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك خاتمة المصائب . فلما كثرت مشاغلها وهواجسها أخذ الأمر يهون عليها . وهو لم يهن حقيقة ، ولكن الانسان اذا وقع فى مصيبة استعظمها وكاد ينوء تحت ثقلها ، فاذا تراكمت عليه المصائب ساعده اليأس على

احتمالها .. فكم من أرملة كان الناس يحسبون انها ستموت ساعة موت زوجها ، فلما مات لم تمت .. ولكنها أعظمت المصيبة فعزاها الناس ببقاء أنجالها ، ثم أصيبت فى واحد منهم ، ثم بآخر ففرغت حيل الناس فى تعزيتها .. ولكنهم رأوا أنفسهم — بعد حين — فى غنى عن ذلك بما استولى على تلك الأرملة الثكلى من اليأس ، كأن القلب يندمل من توالى الأحزان ، أو انه يعتاد المصائب فيستخف بها . وهكذا شأن من تحيط به المشاكل ، تراه عند وقوعه فى المشكل الأول أكثر ارتباكا وخوفا مما يصير اليه حاله عند تعددها . فكانت كلما تعددت مشاكلها هوَّنت على نفسها ..

— ٤٣ —

الدوق أود

وفى أصيل ذلك اليوم أشرفوا على كرم وراءه سهل واسع ، رأت فى منتصفه قصرا كبيرا حوله الخيام وبينها الناس يعجون عجا ، وفوق القصر علَم عرفت حين رأته انه للدوق أود فتحققت أنها وصلت الى المكان المقصود ، وأن القصر المذكور لبعض أغنياء البلاد هجره أهله فى جملة ما هجروه ، فنزل فيه أود وأقام رجاله فى الخيام حوله

وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر

فترجلوا وترجلت ، فسلموها الى الحرس الواقف بالباب ، فدخلوا بها الى القصر وهى ملثمة بثوبها الأسود ومقنعة بخمارها الأسود . مشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت باحة البيت الى قاعة وقف الحرس ببابها ، ودخل أحدهم ثم عاد وأشار الى سالمة أن تدخل

فدخلت الى قاعة يظهر من سعتها وما على جدرانها من الرسوم الجميلة ان أصحاب ذلك البيت من أهل اليسار، ولم تر فى أرض القاعة طنافس ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند فى سفرهم ، وشاهدت على كرسى فى وسط القاعة رجلا نحيف البدن ممتقع اللون أشقر الشعر أشيبه ، أزرق العينين جاحظهما ، غائر الفم بارز اللحية ، منخسف الخدين بارز الوجنتين ، وعلى رأسه قبعة عنابية اللون مزركشة بالذهب .. وفى مقدمتها فوق جبينه حلية مرصعة بالماس والياقوت بشكل الصليب ، وعلى كتفيه بردة مزركشة بالقصب سماوية اللون تغطى ثيابه ، وتحت البردة جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على أشكال بعض الطيور ، وحول ساقيه لفافة من جلد ملون له أهداب من الفرو ، ونعلاه مشدودتان الى قدميه بسيور من نسيج الشعر المتين ، وقد جلس على كرسى ذى جناحين أسند زنديه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلمت سالمة انه الدوق أود لأنها كانت تعرفه جيدا وتعرف بعض الذين بين يديه من أمراء مجلسه

وكان أود قبل دخول سالمة قد تناول من أحد جلسائه قدحا فيه خمر وهمَّ بشربه ، فلما أمر بادخالها وضع القدح على المائدة أمامه بين الأقداح الأخرى ومسح لحيته بيده ثم جعل يسرحها بأنامله . فدخلت سالمة وهو على تلك الحالة ، وحالما وقع نظره عليها ظهرت البغتة فى عينيه ، ولولا اصفرار وجهه الطبيعى لبدت أيضا فى امتقاع لونه ، ولم تكن سالمة أقل تأثرا منه ولكنها كانت قد تجلدت وذهبت بغتتها . فوقفت بين يديه وخرج الحرس ثم أومأ أود الى أهل مجلسه فخرجوا جميعا وبقى هو وسالمة

فلما رأت سالمة نفسها وحدها زادت تهيبا ، فاذا هو قد أشار اليها أن تجلس فجلست على كرسى بين يديه جلوس متحفز للنهوض . فخاطبها أود بالافرنجية قائلا : « ألهذا الحد بلغ منك الغيظ ؟ »

فأجابت وهى تتجاهل : « وأى غيظ يامولاى ؟ »

قال : « أتظنين انى نسيتك يا اجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمة لفظ « اجيلا » ارتعدت فرائصها لأنها لم تسمع أحدا يناديها بهذا الاسم من زمن بعيد ، ولكنها تجلدت وقالت : « أظن ان مولاى مخطىء فى شأنى ، ولعله يقصد امرأة غيرى .. »

قال وهو يضحك : « أظنني واهما .. اذا كانت عيناى واهمتين ، فهل تظنين ان قلبى واهم أيضا ؟ هل أنسى اجيلا وقد جرحت قلبى ، وأساءت الى سلطانى .. ولكنها أساءت الى

نفسـها ، ألم يكن من التعقـل والحكمة أن تقلعى عن ذلك الجنون ؟ أليس من العار عليك وأنت مسيحية مولودة فى بيت من أكبر بيوت المسيحيين أن تتعاونى مع قوم غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعديهم على أهل ديانتك ؟ »

قالت وهى لا تزال مطرقة : « لم أفهم يامولاى مغزى كلامك كأنك تخاطب امرأة غيرى ، فان الاسم الذى ناديتنى به ليس هو اسمى ، وانما اسمى سالمة »

فأغرق أود فى الضحك حتى سمع قهقهته كل من فى القصر ، ومد يده الى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر الى سالمة وهى لا تزال مطرقة . ثم أعاد القدح فارغا ومسح فمه بيده وهو يقول : « ما لنا وللانكار والاثبات .. اخبرينى يا سالمة ــ كما تسمين نفسك ــ ما الذى جئت من أجله الى هذه المدينة ، وما الذى فعلته عند اسقف بوردو ؟ »

فأدركت سالمة انه مطلع على كل شىء من أمرها ، فقالت : « وما الغرابة فى زيارة امرأة مسيحية لأسقف كنيستها ؟ »

قال : « لا غرابة فى الزيارة ، ولكننى أسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه .. »

قالت : « لايخلو أن يكون قد دار بينى وبينه حديث طويل فى شئون سرية لا تهم أحدا ، لأن جمـاعة الاكليروس خزانة أسرارنا » ..

قال : « لا أسألك عن اعترافك اليه فيما يتعلق بشئونك ،

ولكننى أسألك عما دار بينك وبينه بشـأن الافرنج والعرب والحرب والسلم »

– ٣٤ –

التهديد

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك فى اطلاعه على سرها فأيقنت بالوقوع ويئست من النجاة ، فساعدها اليـأس على الجرأة فقالت : « يظهر انك عالم بما دار بينى وبينه فلا حاجة الى سؤالى .. »

قال وهو يظهر الغضب : « أهكذا تجاوبين الدوق أود ؟.. هل بمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اكيتانيا ؟ »

فظلت سالمة ساكتة ، ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم أود منها ما هو أكثر صراحة من الجواب ، فابتسم وكأنه ندم على ذلك التهديد فقال : « تلك أيام مضت وقد أردنا ارجاعك الى مثلها فأبيت .. فأسأت الى نفسك والى ابنتك ولا ذنب لها وانما الذنب ذنبك .. فقد أردت أن تهوى ابنتك الذين تهوينهم أنت ، وأن تبيع ديانتها وكنيستها جزافا وأن يكون نصيبهـا مع أولئك المسلمين ،وفى الحق انى لم أفهم سر ذلك العناد منك .. »

فأيقنت سالمة ان أود مطلع على كل شىء كأنه كان معها فى خيمة عبد الرحمن حينما صرحت له بسرها .. واستغربت اطلاعه

على تلك الأسرار ، ولم تجد لها خيرا من السكوت أو الانكار فقالت : « أراكَ لا تزال تخاطبنى بالألغاز والاشارات والتلميح والتعريض .. فالذى تريد أن تعتقده فىَّ اعتقده .. وما تريد أن تفعله افعله » ..

قال : « الذى أريد أن أفعله يا اجيلا سترينه رأى العين . ولو أظهرت هذه الوقاحة فى مجلسى وبين أرباب حكومتى لما استطعت الاغضاء عن قتلك ، ولكننى أسامحك الآن اكراما للحب القديم . أما الآن فقد تحوَّل ذلك الحب الى الغضب والانتقام ويكفينى انتقاما منك أن أريك حبوط مسعاكِ . فمتى رأيت الأرض مضرجة بدماء أولئك العرب والبرابرة ، كنت مخيرة بين أن تموتى حسرة أو أن نقتلك بالسلاح الذى تختارينه»

***

قال ذلك ولحيته تضطرب ، وعيناه قد كللهما الاحمرار من شدة الحنق والغيظ ، لأن الانسان اذا غضب ولم يشف غضبه بالضرب أو نحوه اشتد تأثيره ، وقد يحاول اخفاء عواطفه بالكتمان ولكن العينين تبوحان بسر القلب على حد قول الشاعر:

عيناكِ قد دلتا عينى منك على أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عينى محدثها ان كان من حزبها أو من أعاديها

فلما رأت سالمة غضب أود وتصريحه بما فى قلبه من الغيظ مع علمها انه فاعل معها ما يريده لأنها أسيرة بين يديه ، رأت ان السكوت أجدر بها لعلمها ان ما توهمه أود فى نفسه من

القدرة على العرب محال لأنهم هزموه فى عدة مواقع

فلما رآها أود لاتزال ساكتة ازداد هو حنقـا فقال لها : « أراك لا تزالين صامتة ..! »

فقالت ، وهى تظهر التجلد وعدم الاكتراث : « وماذا عسى أن يكون جوابى لأمير حوله الجند والأعوان والعدة والسلاح ، يهدد امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح فى يدها ، فالذى ترى أن تفعله أيها الدوق افعله ..! »

***

وهمَّ أود أن يجيبها ، فسمع قرع الباب قرعا عنيفا ، فدهش لذلك لعلمه ان أحدا من أعوانه لايجرؤ على اقلاق راحته فى مثل تلك الحال ، فنهض بنفسه مسرعا الى الباب وطيلسانه يجر وراءه وقد حمى غضبه ، ففتح الباب فاستقبله أحـد رجال خاصته ، فصاح قائلا : « ما الذى حملكم على هـذا القرع العنيف وأنتم تعلمون اننى فى جلسة خاصة ؟ »

فقال : « العفو يامولاى ، اننا فعلنـا ذلك باشـارة هـذا الرسول فانه قادم من سفر ومعه رسالة عاجلة فى غاية الأهمية .. أوصاه مرسلها أن يسلمها الى حضرة الدوق حال وصوله الى معسكره ، واذا كان نائما فليوقظه من نومه »

فبغت أود وقال : « أين هذا الرسول ؟.. دعه يدخل »

- ٤٥ -

الكتاب

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن وجهه يدلعلى انه من برابرة افريقية ، فلما شاهدته سالمة عرفت انه من جند المسلمين وقد جاء متنكرا .. أما هو فقد مد يده الى جيبه وأخرج لفافة دفعها الى أود ، فتناولها وتراجع الى كرسيه فجلس عليه ، وفض اللفافة فاذا فيها منديل عليه كتابة فأخذ فى قراءتها حتى أتى على آخرها ؛ ثم عاود قراءتها ثانية والبغتة ظاهرة على وجهه

وكانت سالمة تتغافل عن ملاحظة حركات أود وتسترق النظر الى الرسول ، فاذا هو يسترق النظر اليها وكأنه عرفها ، وأما هى فعرفت انه من رجال البربر . ثم ما لبثت أن رأت فى عينيه حولا شديدا فتذكرت انها رأته فى معسكر عبد الرحمن ، فأدركت مصدر تلك الرسالة وودت لو يتاح لها الخلاص من ذلك الأسر لعلها تستطيع القيام بخدمة العرب ..

أما الدوق أود فبعد أن فرغ من تلاوة الكتاب ثانية تظاهر بالاطراق والتفكير .. وهو ينظر خلسة الى سالمة ، يرقب حركاتها وما قد يبدو فى وجهها ؛ فرآها تبالغ فى التجاهل وأحب أن يعود الى البحث فى شأنها لكنه رأى فى ذلك الكتاب ما يدعو الى سرعة العمل فأومأ الى الرسول فخرج ، ثم صفق فدخل اليه

أحد غلمانه وبيده حربة ووقف متأدبا . فأشار اليه أود أن يأخذ سالمة الى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها . ثم التفت اليها قائلا : « اذا كنت لا تزالين مصرّة على الانكار والتجاهل ، فاذهبى الى حيث يقودك هذا الحارس وسننظر فى شأنك »

فنهضت سالمة ومشت ، ولم تبدِ جوابا .. فسار بها الحارس حتى خرج من باحة القصر الى دهليز نفذ منه الى باب أدخلها فيه ، الى غرفة ليس فيها الا حصير وطنفسة ولها نافذة تطل على معسكر الافرنج . فتركها الحارس هناك وأغلق عليها الباب فظلت هى واقفة تنظر الى ما تطــل عليه النــافذة من الخيام المنصوبة ، وبينها الرجال فى ذهاب واياب لقضاء حوائجهم . حتى اذا تعبت من الوقوف جلست على الطنفسة ، وقد عظم عليها ذلك السجن مع ما يترتب عليه من عرقلة مساعيها ، وودت لو انها تطلع على نص تلك الرسالة لتعلم مادبروه لها ولجند العرب .. ولكنها قالت فى نفسها : « اذا لم يكن ثمة سبيل الى خروجى من هذا المعسكر فما الفائدة من الاطلاع على الرسالة ! »

وظلت على تلك الحال الى الغروب وهى لم تذق طعاما ، وكانت لفرط مشاغلها لا تشعر بمرور الوقت . فلما غابت الشمس اسودت الدنيا فى عينيها .. وتذكرت ابنتها ، وميمونة ، وعبد الرحمن ، فتذكرت المحفظة فتفقدتها ، فاذا هى لا تزال محفوظة تحت ثيابها .. لكنها أصبحت لا ترى فائدة منها وهى فى تلك الحال بعيدة عن كل نصير ، وخصوصا خادمها ، وقد تركته بين

حى وميت . فغلب على ظنها انه لم ينج من تلك الحمى لأنها أصبحت بعد وقوعها فى ذلك الشرك لا تتوقع غير توالى النحس والانسان اذا أصابته مصيبة انصرف ذهنه الى استهدافه لسواها ، واذا صادف توفيقا فى عمل خيل له ان الأقدار قد أبرمت معه عهدا ألا تأتيه بغير ما يرضاه »

فاشتغلت بتلك الهواجس عما فى ذلك القصر من ضوضاء الجند بين خارج وداخل ، وعن غوغاء الناس فى المضارب وخاصة ساعة الغروب وقد نفخ فى البوق لدعوتهم الى الطعام

— ٤٦ —

الطارق

وبينما هى مشتغلة فى ذلك ، اذا بقلقلة فى مكان القفل بالباب ، فأجفلت ونظرت الى الباب فرأت من ثقبه نورا فى الخارج ، ثم فتح الباب ودخل منه شاب بملابس الافرنج فى احدى يديه شمعة مضيئة ، وفى الأخرى قصعة مغطاة بشيء كالخبز ، فعلمت انهم جاءوها بالطعام ، فأحست بالجوع ... ولكنها لم تتمالك أن صاحت : « من أنت ؟ »

فأجابها الشاب بصوت هادىء : « قد جئتك ياسيدتى بطعام بأمر سيدى الدوق ، وقد أوصانى أن أرجوك لتأكلى من هذا الطعام فانه طعامه الخاص »

فاستغربت سالمة هذا الاكرام منه بعد ما دار بينها وبينه ، ولكنها سكتت وهي تنتظر ما يفعله الشاب .. فاذا هو قد وضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبز عنها فرأت تحته شيئا من الطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتهيها الشبعان ، فكيف بالجائع ! ولكنها أمسكت نفسها مخافة أن يكون فى الطعام سم أو نحوه وان كان الجوع يدفعها الى الأكل .. فرأت أن تنظر فى وجه الغلام لعلها تتوسم فيه ما يشجعها أو يحذرها ، فرفعت بصرها اليه والشمعة لاتزال فى يده وقد وقعت أشعتها على وجهه فاذا هو يختلف فى سحنته ولون بشرته عن أهل تلك البلاد مع ان كلامه افرنجى ، فتبينت تقاطيع وجهه فاذا هو أسود العينين براقهما خفيف العضل أسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين لحداثته ، وتدل ملامحه على انه ليس افرنجيا .. فلم تستغرب ذلك لعلمها بما كان يدخل بلاط الملوك فى تلك الأيام من الأسرى والمماليك من أمم مختلفة .. فتفرّست فى وجهه لترى ما قد يزيل الشك الذى ساورها من أمر الطعام ، فلم تر فى وجه الغلام ما يدعو الى الخوف ، لكنها أرادت أن تتحقق من ذلك من سماع كلامه فقالت : « ما اسمك أيها الشاب ؟ »

قال : « اسمى رودريك ياسيدتى .. »

فلما سمعت ذلك الاسم ، خفق قلبها وأجفلت وتصاعد الدم الى محياها بغتة ، لكنها انتبهت لنفسها فى الحال وحوّلت نظرها الى القصعة ومدت يدها الى الخبز وتشاغلت بتقطيعه بهدوء

وسكينة ، والغلام واقف وقد لحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سببا سوى انها تحتاج الى أمر وقد منعها الحياء من طلبه ، فانتبه للحال انه لم يأتها بالمـاء للشرب فابتدرها قائلا : « أظنك تحتاجين الى الماء ؟ .. »

ثم وضع الشمعة على البسـاط وخرج ، وقد ترك البـاب مفتوحا ، ففهمت سالمة انه ينوى الرجوع بعد قليل ..

ولم تمض هنيهة حتى سمعت وقع أقدامه ثم دخل وبيـده كوب فيها ماء وضعها أمامها وهو يبتسم ، وكان قد سـكن اضطرابها فنظرت اليه.. فأحست بارتياح الى رؤيته ؛ واستأنست به ، فشكرت عنايته وودت لو انه يتولى أمرها دائما

***

أما هو فوضع الكوب وخرج ، وأغلق الباب وراءه اغلاقا خفيفا كأنه عازم على الرجوع

فتناولت سالمة بعض ما فى القصعة ، وشربت الماء وهى تفكر فيما آنسته من ذلك الغلام من الود ، ولبثت بعد فراغها من الطعام تنتظر رجوعه . وبعد قليل سمعته وهو يمشى الهوينى ، ثم دخل يحمل غطاء ثقيلا ووسادة فألقاهما على الأرض وهو يقول : « هذا غطاء ووسادة .. وقد أوصى مولاى الدوق بهما لك » ..

فتناولتهما وقالت له : « أشكر عنايتك أيها الشاب وأرجو أن أستطيع مكافأتك ، وعسى ألا يتولى أمرى من اهل هذا

المعسكر سواك .. وان كان فى ذلك اثقال عليك »

فأجابها رودريك وهو يبتسم : « وأنا أرجو ألا يتولى ذلك سواى لأنى أخشى أن يتولاه من لايعرف قدرك ؛ فلا يحسن خدمتك » ..

فأدركت سالمة من ذلك انه يعرف شيئا عنها ، فتجاهلت وسكتت .. أما هو فانه أخذ القصعة والكوب وتحول نحو الباب ، وهو يقول : « وسترينني رهن اشارتك .. وسأبذل أقصى الجهد فى خدمتك .. فليطمئن بالك » ثم أغلق الباب وخرج

***

وبعد خروجه شعرت سالمة بارتياح أنساها بعض ما بها من الاضطراب ، فافترشت جانبا من الغطاء وتغطت بباقيه وتوسدت تلتمس النوم ، وكانت قد شعرت بالتعب على اثر ما قاسته فى ذلك اليوم وما قبله ، فغلب عليها النعاس فنامت نوما عميقا

ولما أفاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها فى كل ما تحتاج اليه ، وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت من انه بعيد الشبه عن الافرنج وقريب الملامح من العرب ، ولكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل أهلها واسمه افرنجى .. فعزمت على استطلاع حقيقته بعد أن تأنس فيه ثقة بها ، مخافة أن تبدو منها كلمة تزيد نقمة أود ، اذا هى بلغته ..

- ٤٧ -

السفر

قضت سالمة فى ذلك الأسر أياما وهى ترقب حال أهل القصر لعلها تجد سبيلا للفرار ، فاذا هم شديدو العناية بحراستها ، كثيرو التضييق عليها .. وكان جماعة منهم موكلين بحراستها ومراقبة حركاتها ، فعلمت ان أود مع تغيبه عنها واهماله مقابلتها شديد الحرص على استبقائها فى ذلك السجن

فلما طال بناؤها على تلك الحال سئمت الاقامة وتزايد قلقها على جند العرب لعلمها انهم فى انتظارها على مثل الجمر ، ولكنها لم تكن ترى بأسا من تأخرها عنهم لأنها توقن بأنهم فائزون فى فتحهم حتى يبلغوا بواتيه ، ثم هى لا تخاف عليهم أود وجنده لأنه غلب غير مرة .. على انها كانت تخاف على مريم من غدر ميمونة ، ثم هى رجحت ان الكتاب الذى جاء به ذلك الأحول انما هو من ميمونة ، ولكنها لم تفهم فحواه تماما ، فلبثت تتوقع فرصة للاطلاع على ذلك من رودريك

وأصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير عادتهم . فأطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد أخذوا فى التأهب للسفر ، فانشغل خاطرها وأوجست خيفة من ذلك الانتقال ؛ لكنها رأت فى ذلك سبيلا لمخاطبة رودريك فيما قد

يكشف لها شيئا من ذلك السر . فلما جاءها فى ذلك الصباح ومعه الطعام ابتدرته قائلة : « مالى أراكم تتأهبون للسفر ، هل أنتم مسافرون جميعا أم ان بعضكم سيبقى هنا ؟ »

قال : « اننا مسافرون جميعا ، وقد أمر حضرة الدوق أن تسيرى معنا »

قالت : « والى أين ؟ »

قال : « الى تورس على نهر لوار »

فلما سمعت قوله استغربت ذلك الانتقــال لعلمها ان النهر المذكور هو آخر حدود اكيتانيا ، والبلاد التى وراءه تحت سلطة شارل دوق اوستراسيا .. وهى تعلم أيضا ان بين أود وشارل منافسة ومزاحمة على النفوذ ، وربما كان شارل أكثر حرصا على صد أود عن بلاده من حرص العرب على فتح اكيتانيا فقالت : « هل أنت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال رودريك : « نعم ، يامولاتى .. وقد سمعت الأوامر الصادرة لنا بالذهاب » ..

قالت سائلة : « ألا تعلم بما بين الدوق أود ودوق استراسيا من المنافسة ؟ »

قال : « بلى .. ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت : « فما الذى يفعله الدوق أود فى تورس اذن ؟ ألا يخاف عدوه شارل ؟ »

فلما سمع رودريك سؤالها ، تلفت نحو الباب كأنه يحاذر أن

يراه أحد ، ثم نظر الى سالمة وهو يقول بصوت خفيض : « ان لذلك سرا لم يطلع عليه الا نفر قليل من هذا الجند ، وأخشى ان بحت به أن يلحقنى أذى »

فتوسمت فى وجه الغـلام خبرا مهما ، فتاقت نفسها لسماعه فشجعته ، وقالت : « ما الذى تخشاه من أسيرة سجينة ، ربما لايهمها من أمر هذا الخبر شيء ، ولكننى أحببت الاطلاع على هذا السر لغرابته .. وقد شجعنى على هذا السؤال ما شاهدته من مؤانستك ولطفك فى هذه المدة . ومع ذلك فانى لا أظنك أحرص على مصلحة هذا الجند منى لأنك على ما يظهر لى لست منهم .. »

فلما قالت سالمة ذلك بدت البغتة على وجه رودريك وقد تحولت سحنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال : « لقـد أدهشتنى فراستك فى لأنك اطلعت فى أيام على ما لم يستطع كشفه أحد من أهل هذا المعسكر فى أعوام .. »

فاستبشرت سالمة بذلك التلميح وقالت : « يظهر لى انى قد أصبت الفراسة فكلانا اذن يرمى الى غرض واحد ، فأخبرنى عما حمل أود على الذهاب الى تورس ولا تخف ، وأرجو أن يكون لك من وراء ذلك خيرا »

فقال : « أما السبب فى هذا الانتقال فهو ان العرب حاربونا ونحن قرب بوردو فغلبونا ، وقد بلغنا الآن انهم قادمون الى هنا » ..

فقطعت كلامه وقد سرّها ان غيـابها لم يؤخر العرب عن التقـدم فى الفتح ، وأيقنت انهم لم يلاقوا فى طريقهم مقـاومة كبيرة من أهل البلاد ، فقالت : « فالافرنج اذن يطلبون تورس فرارا من العرب ؟ »

قال : « لا يخلو الأمر مما ذكرت ، ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت سالمة : « وبماذا يدافعون وعدوهم هناك أشد وطـأة عليهم من العرَب ؟ »

قال رودريك : « كان الأمر كذلك من قبل .. ولكنه أصبح الآن حليفا لهم »

فقالت سالمة : « وكيف ذلك والمنافسة متمكنة بينهما لأن كلا منهما يطلب السيـادة على الآخر بعد أن رأيا انحلال الدولة المرونجية التىكانت تجمعهما تحت سيطرتها . وقد علمنا ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها ، فزادت المنافسة بينهما حتى صار يتمنى كل منهما أن يفتك بالآخر .. »

قال رودريك : « هذا هو الواقع فعلا ، وهذا الانقسام هو الذى مكن المسلمين من فتح اكيتانيا حتى وصلوا الى هنا ، واذا قطعوا نهر لوار أصبحت بلاد اوستراسيا فى قبضتهم على أهون سبيل لأن أساقفتها ناقمون على الدوق شارل نقمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه ، فاذا جاءهم العرب وهم فى تلك الحال ساعدوهم على الفتح .. »

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سرورا بما ترجوه من فوز العرب هناك ، ولكنها لم تثق بصدق تلك الرواية فقالت : « وما هو سبب نقمة الاكليروس على شارل ، وهو قائد عظيم ؟ »

قال : « السبب ياسيدتى انه أخذ أموالهم واستولى على أملاك الأديرة ووزعها على جنـده ، وأهان بعض الأسـاقفة بالقصاص ، وفضل بعض صغار الكهنة عليهم .. ولا يخفى عليك ما يؤدى اليه ذلك »

فلما تحققت من غضب الأساقفة على شارل عادت الى السؤال عما دعا الى نصرة شارل لأود فقالت : « ولكننى لم أفهم كيف صار شارل حليفا للدوق أود .. فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفا من الأساقفة ؟ .. »

فقال رودريك : « كلا ياسيدتى .. ولكن الدوق أود لما أيقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده ؛ لم ير بدا من نصرة عدوه شارل .. »

فقالت ، وقد بغتت : « وكيف نصره ، وفى انتصاره خروج هذه البلاد من يده لا محالة ؟ »

قال : « لا أظنه يجهل ذلك .. ولكنه فعله مضطرا بحكم الضرورة ، ففضـل أن تؤول البـلاد الى أمير مسيحى من أن تؤول الى قوم غرباء دينا ووطنا ، ولعله مطمئن لما يعلمـه من اشتغال شارل بنقمة الأساقفة .. ثم انى لا أظنه قد نصره الا مدفوعا بمشورة بعض ثقاته »

قالت : « ومن يجرؤ على هذه المشورة من رجاله ؟ »
قال : « المشورة لم تأته من هــذا المعسكر ولكننى علمت بكتاب جاءه فى اليوم الذى سجنــك فيه .. وفى ذلك الكتاب تحريض على استنجاد شارل ، والظاهر انه أثر فيه كثيرا فحالما قرأ الكتاب بعث وفدا الى شارل يطلب اليه مســاعدته فى هذه الحرب فأتاه الجواب بالايجاب »

— ٤٨ —

الاستطلاع

فلما سمعت قوله ثبت لديها ان المحرض على ذلك هو ميمونة ، فاستعاذت بالله ، ولكنها كتمت خواطرها وتجلدت لأنها لم تكن تثق برودريك وهو لم يكاشفها بحقيقة أمره ، فأحبت قبــل الافاضة فى هذا الموضوع أن تستطلع الحقيقة ، فقالت والاهتمام ظاهر على وجهها : « أراك يارودريك قد كاشفتنى بأمور ذات بال مما يدل على ثقتك فىَّ ، فاعلم ان ثقتك فى محلها .. واذا كنت تؤمن باخلاصى لك ، فكن على يقين بأنى باذلة نفسى فى مكافأتك ، على انى لا أزال أعلل نفسى بالاطلاع على حقيقة أمرك لأنى على ثقة انك لست من أهل هذا المعسكر »
قال : « لاريب عندى فى اخلاصك ولولا ذلك ما خاطبتك بما خاطبتك به ، والأمر الذى تتمنينه هو الذى أتمناه أنا أيضا..

وهذا ما شجعني على هذه المكاشفة »

فأدركت سالمة أنه على مبدئها ، فازدادت ميلا الى استطلاع حقيقته ، فقالت : « فأطلعني على حكايتك لنتعاون على النجاة باذن الله .. »

قال : « ولكنني أطلب اليك أن تخبريني عن أمر لاحظته منك فى أول ساعة خاطبتك فيها .. هل أسألك عنه ؟ »

قالت سالمة : « وما هو ؟ .. »

قال : « لما سألتنى عن اسمى وعلمت انه رودريك رأيت فى وجهك أثر البغتة ، فهل كان ذلك بسبب اسمى أم لسبب آخر..؟»

فتظاهرت سالمة بعدم الاكتراث وقالت : « لا أذكر انى بغت لشيء من هذا القبيل »

فصدّق وسكت ..

أما هى فلبثت ساكتة تنتظر جوابه على سؤالها عن حكايته فرأته يلتفت نحو النافذة كأنه يرقب حركة أو يتوقع قادما ، فالتفتت هى فلم تر غير الجند وهم لايزالون فى اهتمامهم بالحزم والربط والاستعداد للرحيل فحوّلت بصرها الى رودريك فرأته يهم بالجواب وهو يتردد فقالت : « يظهر انك تحاذر شيئا »

قال : « كلا يامولاتى ولكننى أخشى أن يدهمنى الوقت وأدعى الى السفر قبل الفراغ من حكايتى لأنها طويلة »

قالت : « قل لى باختصار اذن ، هل تعرف اللغة العربية ؟ »

قال : « كلا .. »

فتوهمت سالمة انها أخطأت الفراســة فيه ، لأنها كانت قد توسّمت من ملامحــه أنه عربى فقالت : « هل تتكلم لغة غير الافرنجية ؟ »

قال : « أعرف اللغة البلغارية ، وهى لغة حداثتى »

قالت : « فاذن أنت بلغارى الأصل .. ولكن ملامحك لا تدل على ذلك » ..

قال : « لست من بلغاريا ، ولكنى ربّيت فى بيت رجل من البلغار .. »

قالت : « وكيف تعلمت لغة الافرنج ؟.. ويظهر انك تتكلمها جيدا كأنك تعلمتها فى صغرك »

قال : « تعلمتها من طول الممارسة لأن الرجل البلغارى الذى ربّانى باعنى لبعض الافرنج ثم انتقلت الى الدوق أود بالمقايضة»

فاستغربت ماسمعته ، ورأت ان أسئلتها لم تجد نفعا ، وكانت تتوقع بها قرب الوصول الى الغرض فاذا هى تبتعد عنه فعمدت الى الاختصار والتصريح فقالت : « قل لى .. أين ولدت ؟ »

قال رودريك : « ولدت فى طليطلة »

قالت : « أنت اذن أسبانى ؟ »

قال رودريك : « كلا .. »

قالت : « فأنت عربى ؟ »

فسكت .. وقد ظهرت فى وجهه ملامح الخوف

- ٤٩ -

منظر هائل

فأدركت انه يخشى التصريح لقلة ثقته بها لأن ملامحها بعيدة جدا عن ملامح العرب فقالت : « لا تخف يا شاب فانك تخاطب امرأة لا تحب غير العرب ، ولكن حديثك أدهشنى .. فكيف تقول انك ربيت فى بلاد البلغار ، ثم تقول انك ولدت فى طليطلة والمسافة بين البلدين بعيدة جدا . أظنك واهما فيما تقول ، أو لعل الذى أنبأك بمولدك قد خدعك أو كذب عليك ؟ »

فقال : « انى على ثقة من ذلك لأنى عشت فى طليطلة بضع سنوات ، ولا أزال أذكر بعض مناظرها كأنها خيال »

قالت بلهفة : « أتذكر منـــاظر طليطلة ؟ .. ما الذى تذكره منها ؟ » ..

قال : « أذكر قصرها الكبير على نهر التاج وحوله الحدائق . وأذكر حديقة ذلك القصر لأنى كثيرا ماكنت ألعب فيها مع بعض الرفاق على ضفاف ذلك النهر » ..

قالت وفى وجهها معنى لو رآه لعلم انها بغتت لذكر طليطلة وقصرها ، وانها كانت تغالب عواطفها لئلا يظهر ذلك فى وجهها : « فأنت اذن من أبناء ذلك القصر.. وما الذى تذكره أيضا ؟ »

قال : « لا أذكر غير ذلك القصر لأنى أخرجت من طليطلة وأنا

طفل ، ولولا ما شهدته من الأمور المخيفة لم تبق صـــورته فى ذهنى ، قالت : « وما الذى شهدت فأخافك وأنت طفل ؟ »

قال : « شهدت مقتل أمير الأندلس .. »

قالت : « ألا تتذكر اسمه ؟ »

قال : « لم أكن أعرف اسمه يوم مقتله ، ولكننى علمت بعد ذلك انه عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى فتح بلاد الأندلس للعرب » ..

فلما قال ذلك كادت تظهر الدهشة على سالمة لو لم تتجلد وتشغل رودريك بمواصلة السؤال ، قائلة : « وما الذى تذكره من أمر مقتله ؟ »

قال : « أذكر انى كنت فى أحد شهور سنة ٩٧ للهجرة ألعب فى حديقة القصر ، وأنا فى نحو الخامسة من عمرى ومعى طفلة أصغر منى كنت ألاعبها ومعنا الخدم ، لأنها بنت الأمير عبد العزيز وقد ربينا معا . وبينما نحن فى ذلك ، اذ رأيت الخدم فى هرج ومرج وقد وقفوا وقفة الاحترام ، فأسرعت للفرجة وبجانبى ابنة الأمير . واذا بالأمير عبد العزيز قد خرج من القصر ومر بالحديقة وعليه القباء والعباءة ، ووراءه جماعة من أرباب العمائم ، فلما دنا منا مد يده الى ولمس رأسى على سبيل الملاطفة وقال كلمة لا أذكرها . فتأثرت لمنظره لأنها أول مرة رأيتــه فى مثل ذلك الموكب . فسألت عن مسيره فقالوا الى المسجد للصلاة . فلم يهمنى الأمر فعدت الى اللعب ، ولم يمض قليل حتى سمعت

ضوضاء الناس وقد جاء بعض الغلمان وحملوا الطفلة بسرعة وتركونى . فخفت لأن الحديقة أصبحت خالية ولم يعد فيها أحد سواى ، فأخذت فى البكاء ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد عدوا سريعا ، وأخيرا رأيت منظرا أثر فى ذاكرتى تأثيرا لايمحوه كر الأيام ، ولا أذكره الا اقشعر بدنى . شهدت جماعة يعدون فى اثر الناس نحو القصر وفى مقدمتهم رجل يحمل رأس انسان وقد قبض عليه من شعره والدم يقطر منه ، ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم ونظرت فى ذلك الرأس فاذا هى رأس الأمير عبد العزيز، فاستغرقت فى البكاء وليس من ينتبه لبكائى لانشغال الناس عنى بشئونهم .. وأذكر انى بقيت فى ذلك المكان الى الغروب ، ولم ينتبه لى أحد ثم جاء جدّى فحملنى وصعد بى الى ذلك القصر ، الى حجر والدتى .. على اننا لم نبق فى طليطلة بعد ذلك الحادث الا بضعة أيام ثم انتقل والدى بى وبأمى الى الشام .. »

وكان رودريك يتكلم وسالمة شاخصة فيه ، وعيناها تكادان تجمدان فى وجهها ملامح الاضطراب مع اصفرار الدهشة وانقباض الحزن ورودريك يزداد مبالغة فى وصف هول ما شاهده . فلما فرغ من حديثه رأى دمعتين انحدرتا من عينى سالمة ، فحمل ذلك منها محمل التأثر والانفعال من مثل ذلك الحديث ، ولو كان السامع غريبا ..

أما سالمة فجاش فى خاطرها أمور قضت بضع عشرة سنة فى الصبر على كتمانها وكادت تحدثها نفسها بالتصريح ، لو لم يغلب عليها التعقل والصبر ، فأمسكت وعادت الى اتمام حديث رودريك فقالت : « ان حديثك غريب وقد أزعجنى ، فأخبرنى عما تم بعد ذهابكم الى الشام وكيف وصلت الى بلاد البلغار .. »

فقال : « أظنك سمعت بسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاما . وانى لأستغرب الآن بعدما شهدت تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف أقدم العرب على فتحها »

فقطعت سالمة كلامه قائلة : « ان الغرض من الذهاب لفتحها الوصول الى هذه الأرض من ذاك الطريق فيلتقى فاتحو القسطنطينية بفاتحى الأندلس هنا ، ويتم للمسلمين فتح هذه الأرض الكبيرة ، وفى فتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله .. ألا تراهم لما أعجزهم فتح القسطنطينية كيف أعادوا الكرة لفتح هذه البلاد من هذا الطريق ؟ »

فتعجب الشاب من سعة اطلاع سالمة على تلك الأحوال وزاد استئناسا بها فأتمَّ حديثه قائلا : « أقص عليك خبرى ليس كما أدركته حين حدوثه اذ كنت طفلا ، ولكنى أقصُّه كما فهمته بعد ذلك .. فاعلمى اننا وصلنا الى الشام فلم نجد الخليفة فيها ، ولم أكن أعرف اسمه »

فقطعت سالمة كلامه قائلة : « هو سليمان بن عبد الملك الرجل الأعرج الأكول الذى أكل سبعين رمانة وجديا وست

دجاجات فى أكلة واحـدة وختم الطعام بأرطال من الزبيب ، وقد كان الأجدر به أن يقيم نفسه خليفة على المطابخ وليس على الناس فيقتـل الأمراء ويسـفك الدماء .. » قالت ذلك وهى لا تتمالك نفسها عن اظهار الغضب ..

أما رودريك فعاد الى حديثه وهو يختصر ، خوفا من أن يطلبه أحد قبل الفراغ منه ، فقال : « وسألنا عن الخليفة فقالوا انه خرج بحملة من الرجال الى قنسرين ، وأعد جيشا كبيرا ليسير الى القسطنطينيـة بقيادة أخيه مسلمة ، وكان النـاس يعلقون الآمال على ذلك الفتح والكل يثق بالفوز .. ونست أدرى ما الذى دعا الى هذه الثقة .. »

فقالت : « سبب هذه الثقة اعتزاز العرب بما فتحوه من الممالك واعتقادهم ان العالم سيكون كله لهم ، وقد ساعدهم على ذلك ثقتهم بمسلمة لأنه من كبار القواد وقد تمت فتوح كثيرة على يده .. »

— ٥٠ —

حصار القسطنطينية

فقال رودريك : « وكان والدى من أكثر الناس ثقة بذلك ، فلما دعوه الى مرافقة تلك الحملة لم يرض الا أن يأخذ والدتى

ويأخذنى معه لاعتقاده انهم سيفتحون القسطنطينية ، وانه باق هناك أو فيما وراءها من البلاد . وكان والدى من المقربين الى مسلمة لأنه كان يعرف اللغة اليونانية وقد تعلمها فى بعض أسفاره الى بلاد الروم وهو شاب . فكان مسلمة اذا نزلت الحملة أنزلنا فى فسطاطه ونزلت أنا ووالدتى فى خباء نسائه ، وكانت تلك الحملة الهائلة حملتين : واحدة برية ، وأخرى بحرية . وكان عدد جند البر الذى نحن فيه ١٢٥٠٠٠ مقاتل وفيهم العرب والفرس وغيرهما وأكثرهم من راكبى الأفراس أو الجمال . وكانت الحملة البحرية ـ على ما بلغنى بعد ذلك ـ ١٨٠٠ سفينة ، استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والأندلس وفيها المئونة والذخيرة . فمشى جنود البر كأنهم غابة من الناس والدواب . فمررنا بتيانة وعمورية وبرغاموس ففتحوها وسلّم من كان فيها من الروم أو فروا ، واستولى المسلمون على أسلابهم وأموالهم . وكانت تلك الحملة تزداد ثقة وتتسع آمال رجالها كلما تقدمت لأنهم لم يمروا ببلد الا فتحوه ونهبوه حتى وصلنا الى حدود آسيا من جهة خليج القسطنطينية ، وهو الفاصل بيننا وبينها . وكانت الحملة البحرية قد وصلت الى هناك ، فاستخدمنا بعض سفنها فى نقل الرجال والأحمال من شاطىء آسيا الى شاطىء القسطنطينية عند مكان يسمونه «ابيدوس» ، وهى أول مرة قطع جند المسلمين فيها ذلك الخليج ، على اننا

قاسينا فى ذلك السبيل مشقة كبرى وكدت أغرق مع والدتى ، ولكن العناية الالهية أرادت بقائى لزيادة شقائى .. »

فقالت سالمة بصوت منخفض : « لا بل أرادت العناية ببقائك خيرا يتم على يدك لأناس أنت تحبهم » فأخذ رودريك فى اتمام الحديث فقال : « وبعد أن قطعنا ذلك الخليج بأفراسنا وجمالنا وأحمالنا نزلنا الى الشاطىء ودرنا حتى أقبلنا على القسطنطينية من جهة الغرب فعسكرنا هناك فى سهل واسع ، وحفرنا حولنا خندقا وبنينا سورا من التراب ، وأقمنا للحصار ونحن فى شبه مدينة كبيرة فيها كل ما نحتاج اليه من المؤن والذخائر . وهذه أول مرة أشرفت فيها على تلك المدينة الهائلة وكنت صغيرا لا أفقه معنى العظمة ، ومع ذلك فقد هالنى علو أسوارها وما على تلك الأسوار من أدوات الحرب . علمت ذلك مما كانوا يرشقوننا به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانيق . وهناك شاهدت أهوال الحرب لأول مرة . فقد كنت أصعد الى سورنا حتى أشرف على أسوار المدينة ، فأرى النبال مغروسة فى جدار سورنا مثل ريش القنفد وبعضها ملقى فى السهل بيننا وبينهم حتى انى كثيرا ما كنت ــ وأنا ألعب أمام خيمة مسلمة ــ أرى النبال تتساقط حولى فألتقطها ، ولم تكن تهمنى ، وكنت لا أزال أحسب الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم أمرا لم أجسر بعده على الخروج من خباء والدتى ..

« وذلك اننى صعدت مرة على سور معسكرنا للفرجة كالعادة

فرأيت شيئا تطاير عن سور القسطنطينية نحونا أشبه بشعلة متقدة كأنها كوكب مذنب حتى وقعت خارج السور ، فتبعثرت وأشعلت مساحة كبيرة من العشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة . فذعرت وأسرعت الى والدتى وأنا فى تلك الحال وأخبرتها ، فأخبرتنى انهم كثيرا ما يطلقون هــذه النار فتحرق ما تصيبه ، فلم أعد أجسر على الاقتراب من السور . ثم علمت بعد ذلك انها ما يسمونه « النار اليونانية » وأظنهم انتصروا علينا بتلك النار ، لأنهم أحرقوا بها أسطولنا من جهة البحر . وكانت الريح قد ساعدت الأسطول المذكور حتى دخل الخليج تجاه المدينة من جهة الشرق ، وكان لوصوله تأثير شديد على قلوب الروم . وقد أخبرنى بعد ذلك بعض الذين كانوا داخل المدينة فى أثناء الحصار انهم كانوا اذا أطلوا على البحر رأوا أسطولنا كأنه غابة أشجارها الأشرعة والسوارى لا يقف البصر على آخرها ، واذا نظروا من جهة البر رأوا معسكرنا كأنه بحر أمواجه الناس والدواب وسفنه الخيام والأعلام

« وقد ساعدنا الحظ فى أن السلسلة التى تعود قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب فى مثل هذه الحال كانت محلولة ، وتحدث الأمراء فى اغتنام هذه الفرصة والدخول فى ذلك الخليج ، فأشار عليهم بعض العارفين بالتوقف برهة لئلا يكون فى الأمر دسيسة . ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطىء كثيرا فما شعروا الا والأسطول اليونانى يقترب منهم فتهيأوا

للدفاع ، واذا بهؤلاء يطلقون عليهم النار كأنها خارجة من نوافذ جهنم ، فأحرقت معظم السفن ، والذين نجوا منها جاءونا وهم ينادون بالويل والثبور وقد مات منهم كثيرون

« فأصبح أسطولنا بعد ذلك لا نفع فيه وتحولت الأنظار الى قوة البر . وكان مسلمة يتوقع أن يمل أهل القسطنطينية من طول الحصار وتقل عندهم المئونة فيضطروا الى التسليم ، وقد أطمعنا فى ذلك أننا بعد الحصار ببضعة أشهر بعث الروم الى مسلمة يعرضون عليه أن يعطوه على كل رأس دينارا وينصرف ، فطمع وأبى الا أن يفتحها عنوة ، أو يستسلم أهلها جوعا .. وأما نحن فكان مسلمة قد أعد لنا كل ما يلزم للزرع والحصاد ، فقضينا الشتاء والصيف ، وزرعنا ورعينا الماشية ونحن نتوقع أن يمل أهل القسطنطينية فما رأيناهم ملوا ، وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة ، وعلمت بعد ذلك ان ملك القسطنطينية يومئذ واسمه اناستاسيوس أو ارتميوس قبض على زمام الملك وليس هو من عائلة القياصرة ولكنه كان حكيما عاقلا ، فلما عاد اليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه برا وبحرا علم ان العرب سيحاصرونه فأعلن أهل القسطنطينية ان كل من لايستطيع اختزان مئونة تكفيه ثلاث سنوات فليخرج من المدينة .. فاشتغل الناس باختزان الحنطة والحبوب ورمموا الأسوار واستعدوا للدفاع

والحصار . ولذلك فقد مللنا نحن قبلهم لأننا كنا نتوقع نجدة من الخليفة فى مرج دابق ، فمات ولم تصلنا النجدة »

فقطعت سالمة كلامه قائلة : « هل تعرف سبب موته ؟ »

قال : « كلا .. »

قالت : « لقد مات شهيد الشراهة .. مات من التخمة .. وذلك أن أحد نصارى دابق أتاه بزنبيلين مملوءين تينا وبيضا ، فأمر من يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمخ وسكر فأكله ، فأصيب بالتخمة ومرض ومات »

— ٥١ —

البلغاريون

فعاد رودريك الى كلامه ، وهو يخشى ضياع الوقت ، فقال : « وبرغم وفاة الخليفة ، فقد كان يمكننا أن نصبر على الحصار سنة أخرى ، وقد تعودنا الزرع وألفنا الاقليم ، ولكن جاءنا شتاء قاس لم نستطع معه الزرع ولا العمل فقلّت مئونتنا حتى أكلنا الدواب والجلود وجذوع الأشجار والورق . ومما زاد الطين بلّة ان ملك القسطنطينية — وهو يومئذ لاون — لما طال عليه الحصار ، ورأى العرب مقيمين .. عمل على مضايقتنا ، فبعث الى البلغاريين المقيمين على ضفاف الطونة (الدانوب)

يستحثهم الدفاع عن عاصمته بالأموال والهدايا ، فجاءوا فى البر وأحاطوا بمعسكرنا وضيقوا علينـــا حتى أصـــبح الرجل منا لايستطيع الخروج من المعسكر وحـــده لئلا يصطـــاده أولئك البرابرة ، وأعد لاون منشـــورا وزعه على أهل بلده أوهم الناس فيه ان الافرنج قادمون الى القسطنطينية بالأساطيل الهائلة للدفاع عن النصرانية . فلما وصل ذلك الخبر الى مسلمة لم يعد يستطيع صبرا على البقاء فأزمع الانسحاب

« فاستقدم ما بقى من أســـطوله وأمر بالاقلاع والتقويض للركوب فى البحر والرجوع الى شواطىء آسيا . فجاءت السفن وأخذوا ينقلون اليهـــا الخيام وما بقى من الخيول والجمال ، وكنت أنا كما أخبرتك مقيما مع والدتى فى الخباء فلما أخذوا فى تقويضه اشتغل كل بمهام نفسه ، واشتغلت والدتى عنى . فخرجت لالتقاط بعض النبال المبعثرة هناك فبعدت عن المعسكر وأنا لا أدرى . والظاهر أنهم لم ينتبهوا لذلك .. فما شعرت الا واثنان من البلغاريين انقضا علىَّ كالذئاب الكاسرة .. فصحت وناديت : يا أبتاه !.. يا أماه ! وما من مجيب . على انى التفت بعد هنيهة نحو معسكر العرب وأنا بين ذراعى أحدهما فرأيت والدتى المسكينة تنظر الى من فوق السور وهى تلطم وجهها وتصيح وتستغيث ؛ ثم توارى بى الرجل بين الأشجار فلم أعد أرى أحدا ، فأخذت فى البكاء وهم تارة يهددوننى ، وطورا

يتملقونى » ..

وتوقف رودريك عن الحديث ، فذرفت سالمة دمعتين تدحرجتا على خديها حتى ضاعتــا فى أهــداب خمارها وهى تنظر الى رودريك والأسف باد على وجهها تتخلله الدهشة ، ففهم انها فعلت ذلك لتأثرها من حكايته ، فهمَّ باتمام حديثه .. فاذا هى تقطع حديثه قائلة : « هل علمت بما أصاب والدتك ووالدك ؟ »

قال : « كلا يامولاتى ، لأنى لم أعد أراهما ولاسمعت خبرا عنهما ، ولا رأيت أحدا يعرفهما من ذلك الحين ، لأنى ربِّيت فى بلاد البلغار فى أشقى الأحوال ، أعمل فى رعاية الماشية وجمع الأحطاب والأخشاب للوقود من شدة البرد ، وكنت أطوف التلال والأودية مع رفاقى من أولاد البلغار أو بعض خدمهم ، نلتقط ما نعثر عليه من قطع الخشب ونحوها ونأتى بها الى المنازل ، فاذا أظلم الليل اجتمع أهل المنزل فى غرفة قد أوقدوا النار فى وسطها من الحطب والعيدان والأعشاب اليابسة ، فيصطفون حولها يستدفئون وفيهم الرجال والنساء والأطفال وكلهم أحسن منى لباسا . فقد كان على بعضهم أردية من الفرو أو الصوف ، وأنا لا أزال كما جاءوا بى ليس علىَّ الا رداء وقميص . ولولا اشفاق ربة ذلك المنزل علىَّ لتوفّيت من شدة البرد ، فانها نفحتنى ببقية خمار مبطن بالجلد كان لأحد أولادها ، فخمرتنى به وأعطتنى شبه جبّة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرأت ، فلبستها فغطتنى الى أسفل قدمى فارتدت الىَّ روحى . ولا أظنهم فعلوا

ذلك شفقة وانما ساءهم أن أموت فيخسروا ما كانوا يطمعون فيه من ثمنى ..

– ٥٢ –

سوق الرقيق

« فقضيت فى ذلك بضعة أعوام وقد تعلمت اللغة البلغارية ، وتعودت عاداتهم فى الطعام والشراب والصلاة ونحوها ، ونسيت لغة أمى ودياناتها . فلما بلغت الثانية عشرة حملونى فى جماعة من الأحداث ، كانوا قد جمعوهم من أعالى بلاد الصقالبة وساقوهم ، وفيهم الذكور والاناث ولا كساء عليهم غير الجلود ، وشعورهم مرسلة كأنهم كانوا يقتاتون على نبات البرية ويعاشرون حيواناتها ، فجمعونا معا وشدّوا أيدينا بعضها الى بعض بأمراس ، وساقونا فمشينا بضعة أيام على تلك الحال ونحن نساق كالأنعام حتى وصلنا الى بقعة رأينا فيها ازدحاما من كثرة الناس والخيول والماشية والأحمال . فسألنا عن المكان فقالوا : انه سوق عمومى يجتمع فيه الناس من أقاصى البلاد للبيع والشراء أو للمبادلة أو المقايضة . وساقونا جميعا الى شبه زريبة حولها سور بعضه من الخشب وبعضه من الأحجار ، وأغلقوا بابه علينا بعد أن حلوا أيدينا من الأمراس . وعند وصولى الى السوق نسيت متاعبى ومصائبى لاشتغال خاطرى بما شاهدته هناك من مختلف الأجناس

وأشكال السلع على غير المألوف عندى . وكنا قد وصلنا الى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا فى الظلام والبرد وأنا لا أكلم أحدا من رفاقى لأنى لا أعرف لغتهم ولا هم يعرفون لغتى . ولما أصبح الصباح وأشرقت الشمس نسينا البرد ، ثم رأينا الناس يتبايعون ويتقايضون ونحن نتوقع ساعة بيعنا . واذا برجلين أحدهما طويل القامة جدا ، والآخر قصيرها وقد ارتديا الجبب المبطنة بالفرو السميك وتلثما بخمارين من صوف ، وبرزت لحيتاهما من بين جناحى الخمار واحمرت عيناهما من كثرة الدفء أو من شرب الخمر ، دخلا الزريبة وأصحابنا البلغاريون يسيرون أمامهما باحترام وفى أثرهما جماعة من الخدم

« فلما دخلا ظل الرجل الطويل واقفا مع أصحابنا ، وتقدم القصير الينا وجعل يتفحصنا واحدا واحدا ، وينتقى من يقع عليه اختياره منا ، حتى اذا وصل الىَّ تفرس فى وجهى وتكلم بلغة لا أفهمها أظنها قوطية أو عبرانية لأنى علمت بعد ذلك ان الرجل من تجار اليهود . فمد يده فأمسك بيدى وجذبنى نحوه وأمرنى أن أفتح فمى ، ففحص أسنانى وفمى وجس كتفى وهزهما ونظر فى عينى وأذنى ويدى وقدمى ، ثم أشار الىَّ فانضممت الى المختارين . وبعد الفراغ من الانتقاء تساوموا ، فلما تمّت صفقة البيع ساقنا أصحابنا الجدد الى زريبتهم بعد أن دفعوا الثمن وأظنه بخسا جدا ، ثم أعطونا خبزا يابسا وألبسونا أكسية ثقيلة متشابهة من الخيش والجلد ، وقصوا شعورنا وأصلحوا من

شأننا بعض الشيء ، فسررت للشبع والدفء

« وحملنا أولئك التجار بعد أيام على الدواب بالتناوب ونحن نحو المائة حتى أتوا بنا بلاد الافرنج ، فأنزلونا فى خان حبسونا فيه أياما ، ثم انتقوا جماعة منا لصغر سنهم وجمالهم وأرسلوهم الى مكان يخصون فيه الصبيان . وبلغنى بعد ذلك انهم أغضوا عنى لأنى كبرت على تلك العملية »

ولما وصل بكلامه الى هنا ، سمعا صوت النفير يدعو الجند الى الاجتماع فقال : « أظننى أطلت الحديث ، فأقول بالاختصار انى انتقلت بالبيع الى بعض الأعيان من الافرنج ، ثم بالمقايضة الى الدوق أود . وكنت فى أثناء اقامتى فى هذه البلاد قد سمعت بقدوم العرب لفتحها ، وكانت تحدثنى نفسى بالفرار اليهم لأبحث عن والدى لأنى لم أعد أسمع عنهما شيئا منذ خطفت بالقسطنطينية . وكنت قد أزمعت اذا كان معسكرنا بقرب معسكر العرب أن أفر اليهم فلم أتمكن من ذلك لأسباب يطول شرحها . فها قد قصصت عليك خبرى .. »

قالت : « لقد سرّنى صدق فراستى فيك ، فأنت الآن عربى وأنا متفانية فى خدمة العرب ، ولا يسمح لنا الوقت الآن بالتفصيل فلنترك ذلك لفرصة أخرى . وعندى أمور تتعلق بوالديك وجديك سأقصها عليك . أما الآن فامض فى عملك ، واجتهد ـــ اذا حملتمونى معكم فى هذا السفر ـــ أن أكون على اتصال بك لنتفاهم شأن النجاة .. »

قال: « سمعا وطـاعة » وتحول من الغرفة وأغلق البـاب وراءه ، فاذا هو يكاد يعثر برجل عليه لباس مخالف لزى الجند ، كان جالسا القرفصاء فى الدهليز بقرب الباب ، ودفن رأسه فى حجره .. فلما رآه رودريك أجفل وخشى أن يكون قد سمع ما دار بينه وبين سالمة ، فرفسه بقدمه كأنه يوقظه من النوم فلم يتحرك ؛ فرفسه ثانية وهزه ، فتظاهر بالكسل الشديد ورفع رأسه وتثاءب وتمطى وجعل يفرك عينيه ويلتفت حوله كأنه أفاق من سبات عميق .. فارتاح بال رودريك ، اذ توهم انه كان نائما هناك نتيجة كسل أو تعب ، فانتهره وأمره أن ينصرف فتظاهر بالخوف ووقف مسرعا وخرج يهرول

— ٥٣ —

موكب الدوق

أما سالمة فانها فرحت برودريك واستبشرت بالنجاة على يده لما ظهر لها من ثقة الدوق أود به ، فاذا كان هو حارسها فى ذلك المعسكر هانت النجاة عليهمـا ، فتذهب الى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علمته من استنجاد أود لشارل (قارله) لئلا ينخدع بقلة جند الافرنج ، فيأتيه شارل على غرة فيهزمه ، واذا هزم العرب هناك فى وقعة واحدة أخفقت مساعيهم كلها .. ثم تذكرت حسانا وكيف تركته فى الدير وتمنت أن يكون فى خير

وعافية ، وأن يبقى على قيد الحياة حتى يرى رودريك ويعرف من هو لأمر يهمه . وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة ، فوقفت سالمة الى النافذة تتشاغل بما يبدو من اهتمام الجند بالتقويض والتحميل ريثما يأتيها النبأ فى شأنها لترى الى أين تسير

قضت ساعة وهى فى تلك الحال حتى رأت موكب الدوق أود وحوله الفرسان على أفراس سروجها مفضضة وعليهم الملابس البراقة بالألوان الباهرة : كالأزرق ، والارجوانى ، والدوق أود فى الوسط على فرس من جياد الخيل ، وعلى رأسه قبعة مرصعة تتلألأ حجارتها فى أشعة الشمس كأنها مصابيح . وعلى كتفيه طيلسان أو رداء سنجابى اللون كالطيلسان مزركش بالقصب الى أردانه . وفى عنقه قلادة من الذهب يتدلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الماس والياقوت . ونظرت سالمة الى سرج الجواد ولجامه فاذا هما أيضا مرصعان والجواد تحته يتلاعب كأنه يرقص تيها ، وهو أكثر زهوا من فارسه الدوق . وكان الدوق قد أصلح من شأنه ، ولكن الاضطراب ظل باديا من خلال تلك العظمة . وربما كان السبب فى ذلك ندمه على استنجاده بعدوه شارل ، على العرب .. ولعلك لو اطلعت على أعماق نفسه لرأيته يفضل أن لايجيب شارل دعوته أو أن يحدث ما يثنيه عن عزمه فيبقى هو وحده أمام العرب ، فاما أن يغلبهم فيبقى سيد اكيتانيا وحده ، أو اذا خشى أن يهزموه صالحهم فيملكوه أرضه تحت حمايتهم . وأما

شارل فاذا تم النصر على يده فلا يقنعه غير السيادة على الافرنج كافة ويصبح هو نسيا منسيا ، هذا اذا لم يقتله بعض المتزلفين لشارل . ونظن انه لو تأكد ان الافرنج سيعاملونه مثلما يعامله العرب لفضل العرب على الافرنج ، لما فى فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما بين الغرباء . فالانسان اذا خيّر بين أن يذل نفسه لبعض ذوى قرابته أو لأحد الغرباء لفضّل الخضوع للغريب . ولهذا السبب ترى الشعوب التى يحكمها الفاتحون من الغرباء أسهل انقيادا وأقرب خضوعا لقوانين الدولة ممن يحكمهم أناس من أبناء جلدتهم ، وذلك لذهاب الهيبة بين أبناء الأب الواحد لأنهم يتعارفون وهم صغار ، ومن يعرفك صغيرا لايحترمك كبيرا . وبهذه القاعدة نستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف فى حقيقتها كأصل الفراعنة الأولين مثلا ، فالمؤرخون مختلفون فى : هل هم مصريون أو دخلاء ؟.. ونظرا لما نعلمه من خضوع أهل البلاد الأصليين لهم نرجح انهم غرباء فاتحون للأسباب التى قدمناها . ناهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرءوس فى أبناء الوطن الواحد ، ويشتد الحسد بين اثنين على نعمة كلما تقاربت قدرتهما على نيلها ، أو تشابهت أسبابهما اليها . ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة

فلا غرو بعد ذلك اذا تخيلنا فى أود الندم على استنجاد شارل ، على انه حينما اقترب بموكبه من نافذة سالمة التفت نحوها ، فوقع نظره عليها .. فرنا اليها قليلا ولم يبد اشارة ،

ثم توارى الموكب عن سالمة ، ورأت الجنود تسير على الأقدام فى أثره جماعات وبينهم الأمراء والقواد يمتطون الأفراس وعليهم الدروع والخوذات وبين أيديهم حملة الأعلام ، وهى كثيرة الأشكال والألوان ، على بعضها رسم الصليب وعلى البعض الآخر صورة العذراء مريم تحمل طفلها ، أو صور ملائكة أو طيور أو غير ذلك من الشارات المسيحية أو الرومانية . وكانت جوقة الموسيقى قد مشت بين يدى الدوق صامتة ، فلما تم تحرك الجند سمعت سالمة قرع الطبول والصنوج والأبواق ونحوها ، فتحركت عواطفها وتصورت قرب نشوب الحرب بين العرب والافرنج بعد وصول النجدة لهؤلاء .. فكيف تكون العاقبة لو قدرت الغلبة للافرنج وعاد العرب مهزومين ؟.. وحينما تصورت ذلك اقشعر بدنها وصعد الدم الى وجنتيها

فلما سار الجند ، وكان يتوارى عن بصرها ولم يبق فى ذلك المعسكر الا شراذم قليلة من الخدم والأعوان ، ورأت نفسها لا تزال وحيدة ولم يأت رودريك اليها بطعام ولا كلام ، انشغل بالها وأوجست من تأخره شرا ، فتحولت عن النافذة نحو الباب لعلها ترى أحدا قادما فاذا هى تسمع وقع أقدام بلا خفق نعال ومشية غير مشية رودريك . فقالت فى نفسها : « من عساه أن يكون القادم ؟ » وما لبث أن فتح الباب ودخل منه رجل بملابس أشبه بملابس العرب ، وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شبيها بالرسول الذى جاء بالكتاب الى أود وهى عنده فاستعاذت

بالله وخافت ، ولكنها تجلدت وثبتت جأشها وابتـدرت الرجل قائلة : « ما الذى تريده ؟ »

— ٥٤ —

الأحول

فنظر اليها وعيناه تتباعدان من شدة الحول وتتراقصان وقال : «لا أريد شيئا ، ولكن حضرة الدوق أمرنى أن أكون فى خدمتك» قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بان السيف من تحته

فلما رأت سالمة حَولَه عرفته ، فانقبضت نفسها وخشيت سوء العاقبة لعلمها انه من أكبر جواسيس ميمونة ، واعتقدت ان كل ما نالها من الشر انما كان على يده . ولكنها لم تكن تجسر على التصريح بذلك ، فلم تر خيرا من التجاهل والتجلد ، فقالت : « بورك فيك .. لعلك من أهل هذا المعسكر ؟ »

فابتسم كأنه يهزأ من جهلها وقال : « لا .. ولكنى من معسكر آخر .. » وضحك ثم قال : « هل تحتاجين الى خدمة أقدمها لك ؟ .. »

فظلت سالمة على تجاهلها ولم تكترث بما بدا منه فقالت : « لا غنى لى عن خدمتك ، ولكن أين هو الشاب الذى كان يخدمنى قبلك ؟ .. »

قال وهو يقلب شفته السفلى استخفافا : « لا أدرى .. ولعله

سار فى مهمة الى طليطلة أو بلغاريا .. أو ربما اشتد حنينه الى أجداده فطار اليهم .. »

فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سرا خفق قلبها وكادت تظهر البغتة فى وجهها ، فبالغت فى التجاهل وقالت : « انى أشكرك .. لا أحتاج الى شىء الآن » وأرادت أن ينصرف فتخلو بنفسها وتفكر فى أمرها

فقال لها : « ألا تحتاجين الى شىء أبدا مطلقا ؟.. ألا تتوق نفسك الى أحد فى بوردو أو نهر لوار .. ؟ »

ففهمت انه يسخر منها وانه مطّلع على أسرارها .. ولو أجابته لسمعت من هزئه ما يؤلمها ، فتحولت عنه وهى تتظاهر بالسذاجة وقالت : « لا .. لا أحتاج الى شىء .. »

فقال : « اذا كنت لا تحتاجين الى شىء ، فأنا أحتاج الى أشياء .. »

فالتفتت اليه لتستطلع غرضه ، فاذا هو يضحك ويستخف بها ، ثم قال : « انى أحتاج الى حضرتك .. »

فقطبت جبينها وبدا الغضب فى وجهها وغلبت عليها الانفة وعزة النفس وقالت : « وما هى حاجتك يا غلام .. ؟ »

قال وقد تهيب منظرها : « لا تغضبى ، يامولاتى ، انى أطالب بما أمرنى به حضرة الدوق .. »

قالت : « وما هو ؟ .. »

قال : « ان تتأهبى للمسير فى اثر هذه الحملة فننزل حيث

ينزلون .. »

ففهمت من صيغة الجمع فى كلامه انه سائر معها ، فقالت : « وهل نسير الآن ؟ .. »

قال : « نعم .. هذه الساعة ، وقد أعددنا لك فرسا تركبينه »

قالت : « انى مستعدة اذ ليس عندى أثاث أحمله معى .. »

قال : « فتفضلى اذن .. » قال ذلك وأشار بيده نحو الباب

قالت : « اخرج وأنا خارجة فى اثرك » فخرج ..

فالتفّت بردائها فوق الخمار ، وتفقدت المحفظة وسائر ما معها ، وخرجت الى الدهليز ومنه الى الباحة حتى أطلت على صحن الدار ، فرأت هناك فرسا مسرجا وحوله فرسان مدججون بالسلاح وفى أيديهم الحراب وعليهم الدروع كأنهم يحرسون عشرين سجينا متمردين . فلم تعبأ سالمة بهذا المنظر ، وتقدمت الى فرسها فركبته وساقته ، فمشى الفرسان حولها فى شبه حلقة ، وركب الأحول حمارا كان هناك وسار فى أثرهم ..

سارت سالمة فى ذلك الموكب وهى غارقة فى بحار الهواجس تفكر فيما دهمها على غير انتظار بعد أن كادت تنجو من الخطر . وفكرت فى رودريك فغلب على ظنها انهم حبسوه أو قتلوه وانها صائرة الى مثل ما صار هو اليه ، ولم يكن الموت ليخيفها لولا خوفها من أن يفوّت عليها أمورا تود انجازها قبل الموت .. ومن الناس من تتسلط عليه فكرة القيام بالواجب حتى تنسيه حاجات نفسه ، فلا يطلب البقاء الا لواجب يقوم به ، فاذا أدى الواجب

أصبح الموت والحياة عنده سواء

قضت برهة فى هذه الهواجس حتى تعبت وفرسها سائر بها الى حيث لا تعلم ، ولكنها كانت ترى الحملة تارة أمامها وطورا الى جانبها ، فعلمت انها تابعة لها وتبينت من مسـيرهم نحو الشمال انهم يقصدون تورس على نهر لوار . فلما تذكرت ذلك النهر اختلج قلبها فى صدرها وتصورت ما عليهـا من العهود والمواثيق المتعلقـة بذلك النهر ، وتذكرت أشياء كثيرة زادتها انقباضا .. وعظم فى نظرها الأمر حتى كادت تبكى ، ولو بكت لخفت حدة انقباضها ..

وفى الغروب وصلت الحملة الى سهل حطوا أحمـالهم فيه للمبيت مؤقتا . وفى الصباح نهضوا لمواصلة السير ، وسـالمة لا يخاطبها أحد فى شيء غير ما لابد منه مما يتعلق بالطعام أو نحوه . وكانت فى أثناء الطريق تتأمل فيما يقع عليه بصرها من الدروب أو التلال أو نحوها ، وتتفهم ما يدور بين الجند من الحديث لعلها تطّلع على أخبار جنـد العرب وأين هم .. وكانت تتفحص الطريق الذى يسيرون فيه عسى أن ترى أثرا يدل على اجتيازهم ذلك المكان فلم تر شيئا يدل على مرورهم . فترجح عندها انهم لم يصلوا الى هناك بعد ، مع انها سمعت بقيامهم من بوردو ، يطلبون بواتيه فنهر لوار .. وكانت على يقين من أنهم لن يلقوا فى طريقهم مقاومة كبيرة لما مهدته لهم . وأما المعركة الكبرى فستكون على ذلك النهر .. فمن غلب هناك ملك

— ٥٥ —

تورس

وباتوا تلك الليلة أيضا فى الطريق ، وأصبحوا مسافرين يجدون فى السير . وقضوا يوما رابعا على هذه الصورة وهم تارة ينحدرون فى واد ، وآونة يصعدون على جبل ، وحينا يمرون فى سهل حتى وصلوا فى أصيل اليوم الرابع الى نهر صغير يقال له نهر شير ، تحف به التلال من الضفتين فضلا عن الغياض والبساتين ، فقطعوا النهر من ضفته اليسرى الى اليمنى ، ثم صعدوا أكمات أطلوا منها على سهل واسع ينتهى بمدينة تورس الكبرى ووراءها نهر لوار لأنها واقعة على ضفته اليسرى . وكان الليل قد أسدل ستاره فلم تشاهد سالمة شيئا لبعد المدينة عنهم

وبعد مسير بضعة أميال من شير ، اختاروا مكانا عسكروا فيه على نيّة الاقامة هناك ، فعلمت سالمة انهم قد حطوا عصا التسيار . فلبثت تنتظر ما يفعلونه بها ، فاذا هى بالأحول المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم ، فنصبوا خيمة خاصة على مقربة من فسطاط الدوق أود . علمت ذلك من شكل الفسطاط بما فيه من دلائل البذخ والترف ، فلم يهمها الأمر وقد كادت أن تيأس . وقضوا معظم ذلك الليل فى نصب الخيام واعداد مستلزمات الاقامة

أما سالمة فانها دخلت خيمتها فرأت الخادم قد أحضر لها

الطعـام ، فتناولتـه والتمست الراحـة فنامت وهى تفكر فى رودريك ، لأنها لم تره فى أثناء الطريق ولا سمعت عنه شيئا ، ولم تكن تجرؤ على ذكر اسمه خوفا من زيادة الشبهة عليه

وأفاقت فى صباح اليوم التالى على صوت البوق بما لم تعهده من قبل .. فنهضت واستفهمت من الرجل الموكل بحراستها عن السبب فقال لها : « ان الدوق يدعو الجند الى الاجتماع فى الساحة الكبرى أمام فسطاطه للصـلاة قداسا كاملا على اسم القديس مرتين حامى حمى الافرنج لأنه مدفون فى هذه الجهات وقبره بمثابة حج للنصارى فى أنحاء اكيتانيا وأوستراسيا »

وكانت سالمة تعرف ان القديس مرتين المذكور كان رسـول النصرانية الى الغاليين فى القرن الرابع للميلاد وكان اسقفا فى تورس ، ولما توفى دفنوه فى ضاحية من ضواحيها ، وبنوا بجانب قبره كنيسة وديرا وأصبح المكان بلدة تعرف باسمه وصـاروا يحجون اليه وينسبون له المعجزات

فلما رأت سـالمة اجتماع الجند وكهنتهم فى تلك السـاحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم فى صلواتهم ، فاذا بالدوق قد خرج من فسطاطه فى حاشيته وأعوانه وكلهم بالملابس الرسمية وقد تقدمهم القسس بالثياب الكهنوتية وبأيديهم الصلبـان ، وهم يتمتمون وأمامهم بعض الشمامسة يحملون صليبا على عصا طويلة حتى وقفوا فى تلك الساحة على شبه منبر، ووجوههم نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف . فأقاموا قداسا

طويلا ، وكانت القلوب خاشعة يراودها الأمل فى النصر على الأعداء ببركة تلك الصلاة

ومن غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم انهم يسنون الشرائع بتحريم القتل ، ويشددون النكير على القاتلين ، ثم يرفعون أكف الضراعة الى موحى تلك الشرائع أن يساعدهم على قتل أبناء جلدتهم ، وهم مع ذلك يتوقعون اجابة سؤلهم لاعتقادهم انهم انما يلتمسون نصرة الحق وتأييد الصواب . وكل طائفة تعتقد ذلك وتفعله . ولو أدركوا معنى التدين الحق لطلبوا حقن الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام . ولكنهم لايفعلون ذلك ، وكأنهم أدركوا بالسليقة ان الحرب ضرورية للبقاء ، وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضا لقتلهم الجوع والوباء لأن الأرض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها الحرب ضاقت بساكنيها . وقد قدروا ان الذين قتلوا بسبب الحروب من أول عهد التاريخ الى الآن خمسة أضعاف سكان الأرض كلها ، عدا ما كان يترتب على بقائهم من التكاثر بالتناسل المتضاعف ..

ومهما يكن من الأمر ، فالحرب باقية ما بقى حب الذات ، وهو باق ما بقى الانسان .. لهذا سعى بعض رجال التمدن الحديث فى تخفيف ويلات الحرب بما اخترعوه من آلات الدمار التى لم تكن معروفة فى عهود التمدن القديم ..

وكانت سالمة حينما سمعت أصوات المرتلين وشمّت رائحة البخور قد تخشعت واستغرقت فى الأفكار وتذكرت تاريخ

حياتها وما مرَّ بها من الأهوال .. ولم يقف فكرها الا عند عبد الرحمن اذ تذكرت ابنتها مريم وكيف تركتها هناك ، وما عسى أن يكون من أمرها بعد انتقال العرب فى طريقهم الى تورس . وتذكرت ميمونة فاختلج قلبها لذكراها خوفا على مريم من حبائلها ، لما تحققته من أمرها ، وأصبحت شديدة الرغبة فى أن تطلع العرب على ما عرفته عنها ، واذا استطاعت ذلك فانها تنقذهم من مكائدها . ولما بلغت تصوراتها الى هذا الحد تذكرت حسانا لأنه لو كان معها لأنفذته فى هذه المهمة . واستغرقت فى هذه الهواجس مدة والناس يضجون بالصلاة ، والقسس يرفعون أصواتهم بالتراتيل ، ووجوههم متجهة نحو القديس مرتين

وكانت سالمة واقفة تسمع القداس وترسل بصرها الى أطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهول الى نهر لوار ، ومدينة تورس على ضفته وبازائها محلة دير القديس مرتين .. على انها لم تكن ترى من تلك الأماكن الا رءوس الأبنية الشامخة لبعد المسافة ..

وفيما هى تسرح بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شبحين ظهرا من وراء الأفق عن بعد . فأطل أولا رأساهما ، ثم ظهر بدناهما بالتدريج فاذا هما فارسان .. فظل بصرها عالقا بهما وشعرت برغبة فى استطلاع حالهما ، ثم ما لبثت أن رأت عليهما ملابس الرهبان السوداء وعلى رأسيهما القبعة . فقلت رغبتها فى الاستطلاع لكثرة الرهبان فى تلك الأصقاع ،

وكثرة ترددهم على المدن لابتياع حاجات الأديرة . وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة ، فحوّلت وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرت الشاب رودريك وودّت لو أنها تجتمع به هناك ، ولو لم تكن ثمة فائدة من ذلك الاجتماع .. فانها قد تستأنس به ..

— ٥٦ —

طارقان

ثم سمعت دق الأجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة ، وتفرق الجند الى مضاربهم ، وعاد أود الى فسطاطه وحوله الحاشية والأعوان ، ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال أود بالحراب يحرسونها ، ولكنها لم تر الأحول بينهم ولا رأته منذ ذلك الصباح . وقضت بقية ذلك اليوم فى الخيمة وقلبها يحدثها بأمر سيحدث ، ويكون فيه الفرج لها ، وان كانت لاترى ما يدعو لهذا الأمل .. فكل الظروف المحيطة بها توحى باليأس.. ولكن فى ذوات الاحساس الدقيق من النساء نوعا من الشعور لا يعبر عنه بغير الالهام ، فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به . ولو طالبها بالدليل لأسكتها لأنها لاتتكلم عن اقتناع بالبرهان ، ولكنها تشعر فتتحدث عما تشعر به .. ويغلب صدقها فيه لأسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يتخيل

الا ما يرشده اليه عقله بالقياس والبرهان . فلما أحست سالمة بتلك الآمال انبسطت نفسها ، ولكنها كانت تعزو ذلك الشعور الى الوهم لأنها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش فى خيمتها وهى تشعر بارتباك وتردد ، فعمدت الى الصلاة لأنها كانت قد تأثرت من قداس ذلك الصباح ورأت فى الصلاة راحة . وبعد الصلاة توسّدت وليس فى خيمتها مصباح . وهى لم تطلب النوم لرغبة فيه ، ولكنها ملّت الحبس — ومن يُظلم بصرُه تستتر بصيرته — فاستغرقت فى الأفكار ، ولم يكن يعترض تيار تفكيرها غير ضجيج الخدم فى ذهابهم وايابهم وصوت النفير أحيانا . وبينما هى كذلك اذ سمعت حديثا قريبا من خيمتها فنهضت والتفتت ، فرأت بصيص نور يتراءى فى الخارج وراء جدار الخيمة وسمعت لغطا لم تستطع فهمه ، فجلست وأصاخت بسمعها فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتى بلغة البلاد :

— لا أظنك تقدر على منعى

— بل أنا قادر حتى يأمرنى الدوق بما يريد

— وماذا فى هذه المسألة مما يستدعى مشورة الدوق ؟

— بل لابد من مشورته لأن لهذه السجينة شأنا خاصا لا يقارن بشئون سائر المسجونين ، وقد أوصانا حضرة الدوق بمنع أى كائن عن مقابلتها

— يا للعجب ، أبلغت منك القحة أن تقف فى سبيل الفروض

الدينية .. ؟

ــ لايهمنى .. وما الذى يضرك لو استأذنت الدوق فى ذلك ؟

ــ لايضرنا شىء ، ولكنكم تعلمون اننا كرسنا حياتنا لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب واننا نطوف السجون ونعظ المسجونين وندعوهم الى التوبة

ــ ربما كان ذلك صحيحا ، ولكننا أمرنا بالمنع منعا باتا .. ومع ذلك فان لنا قيّما لو كان هنا لأغنانا عن مشورة الدوق لأنه مفوّض من قبله فى هذا الشأن ..

ــ أين هو ذلك القيّم ؟ ..

ــ لا ندرى ، فقد ذهب فى هذا الصباح وأكّد التوصية علينا ، وشدد فى منع أى كائن من الدخول

ــ ارسلوا واحدا يستأذن الدوق

ــ نخشى أن يكون فى فراشه .. فأجلوا المقابلة الى الغد

ــ الوقت ضيق لايأذن بالتأجيل لأننا ذاهبون فى صباح الغد الى دير القديس مرتين .. اذهب لاستئذان الدوق ، ولا تطل الجدال .. انى لم ألق وقحا مثلك طول عمرى .. واذا لم تذهب ، فانى سأدخل الخيمة رغم أنفك .. وستلاقى جزاء وقاحتك فى الغد

ــ (صوت آخر) لا تغضب ياحضرة الأب ، ان رفيقى شاب لايعرف حقوق السادة الرهبان والقسس .. تفضلا وادخلا ولا حاجة الى الاستئذان ، لكننا نطلب اليك أن تذكرنا فى صلاتك

ــ بورك فيك يابنى ، هكذا يكون أبناء الخلاص.. ولكننى

أرغب اليكم أن تبتعدوا قليلا عن جوانب الخيمة لئلا يصل اليكم حديث الاعتراف ، ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سر من الأسرار المقدسة ..

ـ طبعا .. لاشك فى ذلك .. تفضل وادخل ونحن مبتعدون ولكن أرجو من قداستك أن تختصر بقدر الامكان لئلا يبلغ الأمر الى حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقانا شديدا لدهشتها واستغرابها ، وبذلت جهدها فى معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ، ولكنه ذكرها بالراهب الذى صحبها من الدير الى قرب بواتيه لأنه مثل صوته

فلبثت صامتة لترى ما ينتهى اليه الجدل ، فلما انتهى على تلك الصورة نظرت لترى الداخل ، فاذا بيده مصباح على شكل طائر ملتفت الى أعلى ، والنور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره ، وقد أمسك الراهب ذلك المصباح باحدى يديه على قبضة فى أسفله على شكل صليب ، وتوكأ باليد الأخرى على عكازه .. فلما رأته سالمة نهضت وتفرست فى وجهه فاذا هو ذلك الراهب بعينه ، فرحبت به وهمت بتقبيل يديه والصليب الذى هو قابض عليه . وبينما هى تفعل ذلك اذ رأت راهبا آخر دخل وأسرع الى يدها ليقبّلها فأجفلت وتراجعت وقد خجلت ، ولكنها ما لبثت أن تفرست فى وجهه حتى عرفت انه خادمها حسان ، فبغتت وكادت تنطق باسمه لو لم تنتبه لنفسها وتتذكر موقفها ..

فتجلّدت وأشــارت الى الراهب وحسان بالجلوس وجلست هى والدهشة لا تزال بادية على وجهها ، وهى تتوقع أن تسمع من أحدهما ما يذهب بدهشتها

فوضع الراهب المصباح على الأرض وجلس ، وظل حســـان واقفا فأشارت اليه أن يجلس فجلس متأدبا وهو يقول بصوت منخفض : « أحمد الله على وصولى اليك ، يامولاتى ، وأرجو أن أكون قد جئتك بالفرج »

فهمّت سالمة بالجواب وهى تحاذر أن يبدو منها ما تؤاخذ عليه لعلمها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للافرنج ويكره العرب ؛ فلم تكن تتوقع مجيء ذلك الراهب اليهـا لنصرتهـا فقالت : « وما الذى جئتنى به ..؟ أليس حضرة الأب من رهبان الدير الذى بتنا فيه وبقيت أنت هناك جريحا ؟ »

فأجابها الراهب قائلا : « بلى .. وأنا أوصلتك الى بواتيـه حيث أخذوك منى فرجعت وأخبرت حضرة الرئيس بما جرى ، ولولا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكنا ... »

فلم يزدها قوله افصاحا عن المهمة التى قدما من أجلهـا ، فالتفتت الى حسان وتفرست فى ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من ملابس الرهبان فقالت له : « يظهر انك انتظمت فى ســلك الرهبنة .. ! »

قال : « لبست هذا الثوب يامولاتى ذريعة للوصول اليك ، وقد نصحنى بذلك حضرة الرئيس ، وأرسل معى حضرة الأب

برسالة سيبلغها اليك »

فاشتاقت لمعــرفة ما تضمنته تلك الرســالة .. فالتفتت نحو الراهب ولسان حالها يقول : « تفضّل .. »

– ٥٧ –

بشرى

ولما همّ الراهب بالكلام ، تذكّرت سالمة ما حدث لها فى المرة الماضية مع رودريك ، وكيف اطّلع ذلك الأحول على حديثهما ، فطلبت من الراهب أن يتمهل ، وأشارت الى حسان أن يتفقد الحرس وأماكنهم . فأطل من باب الخيمة ومن ثقوب فى بعض جوانبها ، فتحقق من بعد الحراس بضعة أمتــار عن الخيمة ، وانهم جلوس يتحدثون ، فعاد وطمأنها وجلس .. فأخذ الراهب فى الحديث بصــوت منخفض ، وســالمة تنصت وكلها آذان لاستيعاب كلامه ، فقال :

« لايخفى على مولاتى اننا معشر الرهبان وســائر جمــاعة الاكليروس قد أوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بنى الانسان ، لا نبتغى على ذلك أجرا سوى خلاص نفوسنا . ولذلك فقــد أكرم الأمراء والملوك وفادتنا وساعدونا فى مشروعاتنا ، ونحن أيضا ساعدناهم فى حمل الشعوب على الطاعة ، وكثيرا ما كنا سببا فى تنصيبهم وعزلهم ، فأصبح الرهبان موضع ثقة أولى

الأمر ومحل احترامهم ، لا يحلون أمرا دونهم .. ونحن نحافظ على ولائهم ونبذل أقصى الجهد فى خدمتهم . وكان الدوق أود (وخفت صوته) من أنصارنا ونحن من أنصاره الا فى بعض الأحوال ، ولكننا على الاجمال كنا نغضى عن بعض سقطاته ونعزوها الى الضعف البشرى ، لعلمنا اننا فى حال تدعو الى جمع الكلمة فى أثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلا وأظهرنا استياءنا منه أمام الشعب لقضى على دولته من زمن بعيد ، لأن الشعب الغالى أهل هذه البلاد الأصليين لايحبون الافرنج ، وهم مستعدون لخلع نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد فى حفظ تلك السلطة لهم ، وأظنك لاحظت ذلك من رئيسنا المحترم فى أثناء حديثك معه . أما الآن فقد ارتكب الدوق أود أمرا دل على ضعفه وجبنه ، فلم يبق لنا معه صبر على هذه الحال .. ولعلك عرفت ذلك الأمر .. ! »

فأطرقت سالمة وأخذت تفكر فى معرفة ذلك السبب ، ولكن الراهب لم ينتظر جوابها فقال : « ان الأمر الذى أراده الدوق أود اذا وفق اليه فانه سيذهب بسلطانه ، ويضيع كرامتنا ، ويخرب ديارنا ، فيضعف شأن الدين ويصبح الناس فوضى »

فأدركت سالمة غرضه ، فقالت : « أظنك تعنى استنجاده بالدوق شارل صاحب أوستراسيا ؟ »

قال : « نعم .. هذا الذى أعنيه لأن هذا الدوق من أشد الناس قسوة على رجال الله ، وقد أذاق اكليروس أوستراسيا

مرّ العذاب فاستولى على أملاك الأديرة ووزعها على جنده وأهان الأساقفة وارتكب فى ذلك كل معصية . وقد دعاه أود لنصرته ، فاذا فاز أصبحت اكتانيا هذه فى قبضته وأصبحت أديرتها عرضة لمطامعه .

« وكثيرا ما كان أود يهم باستنجاد شارل ونحن نرجعه ونخوفه على نفسه وعلينا ، فلما تملكه الخوف من العرب وسيوفهم عمد الى الاستنجاد بذلك الرجل . وقد وقع هذا الخبر وقعا سيئا عند أهل هذه البلاد كافة ، كهنتها وشعبها ، لعلمهم بما سيترتب على هذا الأمر »

وكان الراهب يتكلم ، وقلب سالمة يطفح سرورا ، وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها فى أثناء ذلك النهار ، واعتقدت انها ألهمت الصواب وان الأمر أخذ ينقلب على الافرنج من تلك الساعة ، ولكنها ظلت صامتة لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال :

« وكان من أشد الناس غضبا لذلك رئيسنا المحترم لأنه كان من أكثرهم ولاء لأود ودفاعا عن مصلحته ، فلما علم بما ارتكبه أصبح شديد الرغبة فى عرقلة مساعيه لاعتقاده انه اذا نجح فى ذلك يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته . والظاهر انه كان قد لاحظ من كلامك نصرة العرب أو ربما جاءه كتاب من أسقف بوردو فى هذا الشأن .. لا أدرى .. ولكن الذى أعلمه

أنه بعث الىّ ذات صباح وسألنى عنك مع أنى كنت قد أنبأته يوم عودتى بما جرى أمام باب بواتيه ، ولكنه دقق فى البحث عنك وسألنى عن الرجال الذين أخذوك منى .. فأخبرته انهم من رجال الدوق أود فهز رأسه ومص شفته وأمرنى أن أستقدم هذا الشيخ ، وكان قد أخذ فى النقاهة من جرحه ، ولم أخبره بعد بخبرك لئلا أكدره . فلما أمرنى الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتكدر ، ثم أتيت به الى الرئيس . فلما وقف بين يديه ، أمرنى فأغلقت الباب فأسرّ الينا أمرا كلفنى أن أبلغك اياه .. ولا ريب انه يسرك لأنه يهدف الى الغرض الذى تسعين اليه .. فهل أقوله ؟ .. »

فقالت : « أتسألنى ؟ .. قل .. »

قال : « لقد أعطانى كتابا كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين ، لا أدرى فحواه ، ولكنه بلا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لايفوزوا على العرب ، أو لكيلا يحاربوهم لأن رئيسنا أصبح يفضّل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرته لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن ــ على الأقل ــ على أديرتنا وكرامتنا »

فلم تتمالك سالمة عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ، ونسيت كل ما مرّ بها من المتاعب ، وتحققت أن كل ما أصابها من الشرور انما كان القصد منه الوصول الى هذا الخير، وأن ذلك كله حدث بعناية خاصة من مدبّر هذه الكائنات.

ذلك هو اعتقاد أهل الأديان . والانسان بفطرته ميال الى ذلك ، فيحسب ان الدنيا قد وجدت لخدمته وحده ، فاذا زرع وأمطرت السماء قال : انها تمطر اكراما له ، واذا جفت فجفافها نكاية فيه . ولذلك فاذا أصابته مصيبة وان كان هو الجانى بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتبع خطواته .. اذا لم يسمّه الخالق سماه الدهر أو الزمان . فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهمتها ، ابتسمت وقالت للراهب : « وأين الكتاب ؟ .. »

فمد يده الى كمه وأخرج لفافة دفعها اليها فتناولتها ، فاذا هى مختومة ، فوضعتها فى جيبها وهى تقول : « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولى الحراس ساهرون ليلا ونهارا ؟.. ألا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بالنيابة عنى ؟ .. »

فقال الراهب : « لايستطيع ذلك أحد سواك لأنه فى الواقع كتاب توصية بك ، وقد ترك لك اقناع الرئيس . وأوصانا رئيسنا ــ حفظه الله ــ أن نبذل أقصى الجهد فى سبيل انقاذك من هذا السجن ، فما الذى ترينه ؟ »

قالت : « لا أدرى.. وأظن انحضرة الرئيسقال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق المحدق بى فى هذا السجن ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس .. فهل ترون حيلة لى ؟ .. »

– ٥٨ –

شهامة

وكان حسان لايزال صامتا الى تلك الساعة ، فلما رأى حيرتهما قال : « علىَّ أنا تدبير هذا الأمر .. »

فالتفتا اليه وهما لايتوقعان منه القدرة على ذلك ، فأصاخا بسمعهما اليه وقالت سالمة : « وما هو التدبير ؟.. اذا كنت ترى تدبيرا خاصا ، فليكن عاجلا »

قال : « علىَّ تدبير ذلك فى هذه الساعة »

قالت : « وكيف ؟ .. »

فوقف حسان وعمد الى جبة الرهبنة التى كانت عليه فحلَّ حبلها من حول خصره ، وطوقها من حول عنقه ، وأخذ فى نزعها وهو يقول : « عليك بهذه الجبة .. فالبسيها فوق ثيابك واجعلى هذه القبعة على رأسك وهى تقفل من الجانبين فتغطى الوجه ، واليك هذا العكاز .. واخرجى مع حضرة الراهب ، فلا يشك أحد فى انكما الراهبان اللذان دخلا الآن . ومتى بعدتما عن المعسكر فافعلا ما تريانه ... »

فأعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة ، ودهش لشهامة حسان اذ فضَّل أن يلقى بنفسه الى التهلكة فداء لمولاته . أما سالمة ، فانها لم تدهش لذلك ، وأثنت على حسان فقالت : « لا أستغرب

« قال حسان : عليك بهـذه الجبـة فالبسيها فوق ثيابك ،
واجعلى القبعة على رأسك، واليك هذا العكاز واخرجى مع الراهب »

هذه الشهامة ياحسان ، فقد رأيت منك مثلها مرارا ولكنى ضنينة بك لسابق تعبك ، وقد دنا الوقت الذى آن لى فيه أن أكافئك على جهودك فى خدمتى منذ أعوام عديدة .. وخصوصا الآن فقد كنت راغبة فى لقائك لأبشرك بأمر يسرك كثيرا .. ولا أستطيع أن أخبرك به الا اذا كنا معا ، وأخشى اذا افترقنا الآن ألا نلتقى ..»

فتوقف حسان عن خلع الجبة وتطاول بعنقه وقال : «أخبرينى عن ذلك الآن قبل أن نفترق .. »

قالت : « عندى أمور كثيرة أقصها عليك وأستطلع رأيك فيها وسأحتاج اليك فى تنفيذ بعض الشئون .. »

قال : « وهل تظنين ان فى بقائى هنا خطرا على ..؟ اطمئنى وثقى انكما لا تخرجان من هذا المعسكر حتى ألحق بكما .. »

قالت : « أظنك اذا اطلعت على ما سأقصه عليك تفضّل البقاء هنا بضعة أيام .. ! »

فلم يعد حسان يستطيع صبرا عن سماع ذلك الخبر فقال : « اخبرينى ، يامولاتى ، بما علمت مما يهمنى سماعه ، أو مرينى بما تريدين ثم نتناول — قبل ذهابك — فيما تأمرين .. »

ثم انتبهت سالمة الى نفسها فرأت ان الأجدر بها أن تغض النظر عن اطلاع حسان على مايشغله أو يؤخره فى ذلك المعسكر والحالة تدعو الى سرعة ارساله الى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة وما فى معسكر الافرنج من المعدات ، وما كان من استنجاد أود بشارل وغير ذلك مما يؤول الى نصرة العرب ، فلما

رأت من حسان القلق على استطلاع الخبر قالت : « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك ياحسان ، وانى أفضّل أن أبقى أنا وتذهب أنت برسالة أبعثها معك الى أمير العرب ، فان الحالة تدعو الى سرعة الذهاب والا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباء منثورا . فأطعنى واذهب أنت ولا بأس علىّ من البقاء هنا .. »

قال : « الأمر لك يامولاتى ، ولكننى لا أرى شيئا أدعى الى العجلة من اطلاق سراحك لمقابلة رئيس دير القديس مرتين وعرقلة مساعى الدوق شارل القادم لنجدة هذا الجند ، ومتى تمّ لنا ذلك نذهب بالبشائر الى الأمير عبد الرحمن دفعة واحدة »

قالت : « ولكن الأمر الذى أطلب ابلاغه الى عبد الرحمن الآن أهم كثيرا من خبر دوق أوستراسيا .. »

فاستغرب حسان ذلك وقال : « وهل هو أهم من خبر هذا الدوق وهو قادم لنجدة أود بجيش جرار معه العدة والسلاح فضلا عما عُرف به شارل من البسالة والقوة ؟ »

قالت : « انى أخاف على جند العرب من عدو مقيم فى قصر أميرهم وهم يحسبونه صديقا ، وقد اكتشفت سرّه فى أثناء اقامتى فى هذا الأسر ولم يكن استنجاد شارل الا برأيه .. فاذا لم نبادر الى كشف سره استفحل أمره ... »

— ٥٩ —

أول الأسرار

فبغت حسان لذلك ، وحدق بعينيه ، وقال : « من هو ذلك العدو يامولاتى هل تخبريننى ؟ .. قولى الآن ولا تخافى من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق مخلص لنا فى نصرتنا أو تكلمى بالعربية فانه لايعرفها .. قولى من هو ذلك العدو ؟ . »

قالت : « هو ميمونة .. أو بالحرى تلك المرأة الداهية التى سمّت نفسها ميمونة وما هى الا ملعونة .. »

قال : « ولم تكن هذه المرأة مجهولة لدينا ، فقد شاهدناه غير مرة .. فما الذى عرفته من أمرها هنا .. ؟ »

قالت : « لم أكن أجهل أمرها منذ رأيتها فى معسكر عبد الرحمن للمرة الأولى ، ولكننى أجلت كشف أمرها ريثما أعود من مهمتى هذه ، وخشيت ان أنا بحت بشأنها أن يؤدى ذلك الى أن تصرح بحقيقة أمرى ، وأنت تعلم اننا لا نريد ذلك الآن وان كان اطلاع عبد الرحمن على حقيقتى لايزيده الا اكراما لى ، ولكننى مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع أحداً على شىء قبل عبور هذا النهر (وأشارت الى نهر لوار) . ولو علمت ما قد يترتب على سكوتى عنها لما صبرت على كتمان أمرها ، وأما الآن فلا بد من كشف سرها لعبد الرحمن على عجل .. »

قال : « وما هو شأنها يامولاتى ، هل يجوز لى الاطلاع على هذا السر ؟ » قال ذلك وجثا بين يدى سالمة وحملق بعينيه فقــالت : « هــل أخفى عنك سرا وأنت تعلم انك خزانة أسرارى ، بل أنت الرجل الوحيد المطّلع على حقيقة حالى عدا الكونت أود صاحب هذا المعسكر ، فانه عرفنى وهددنى ثانية ولــكنه شــغِل عنى أو أجّل النــظر فى أمرى ، لأنه أمِن جانبى لاعتقاده انى سجينته حتى يشاء .. لست أخفى عنك سرا يا حسان ، اعلم ان المرأة التى يسمونها ميمونة وتعد نفسها من محظيات عبد الرحمن وتتقرب اليه بجمالها ومكرها ، انما هى لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذا الجند .. »

فلما سمع حسان قولها بغت وانتفض واقفا ، ثم قال وقد بحّ صوته من محاولة تخفيضه مع تهيج عواطفه وبغتته : « بنت الدوق أود هذا ؟ .. قائد هذا المعسكر ؟ .. »

قالت : « نعم .. هى بعينها وأظنك تعرفها انت وقد رأيتها غير مرة وهى مع زوجها المقتول .. ألا تعرف المنيذر الافريقى الذى كان حاكما فى بلاد البيرينة بين اسبانيا واكيتانيا ؟ »

قال : « نعم أعرفه وبلغنى ان الأمير عبد الرحمن الغافقى لما قام بجنده لفتح هذه البلاد ، بلغه ان المنيذر هذا متواطىء مع الافرنج على حساب العرب ، فسار اليه بغتة وقتله واستولى على أمواله ونسائه وبعث بها الى الخليفة فى دمشق » (١)

(١) راجع تفصيل ذلك فى أول هذا الكتاب

قالت : « هل تعلم السبب الذى حفزه على مواطأة الافرنج ضد العرب ؟ .. »

قال : « كلا .. »

قالت : « ان الدوق أود علم بمـا بين العرب والبربر من التحاسد لأسباب لا تخفى عليك ، وبلغه ان المنيـذر البربرى المذكور صاحب نفوذ كبير فى قبائل البربر وانه اذا اكتسب ثقته واسترضاه يكون عونا له على العرب ، فاتصل به وأفضت المحادثات بينهما أن يتزوج المنيذر من لمباجة ابنة الدوق أود ، وقد رضى أود أن يزف ابنته الى هذا البربرى على أمل أن تكون وهى عنده قابضة على زمام ارادته تستخدمه فيما تريده لمصـلحة والدها ، وهى مشهورة بالجمال والدهاء . وبعد أن أقامت مع زوجها المذكور مدة وهى تدبر الحيل لتطوح بدولة العرب نهض الأمير عبد الرحمن وعرف الخطر الذى يحدق بالعرب من ذلك الأمير فبغته وقتله .. »

قال حسان : « نعم .. سمعت ذلك من قبل وسمعت أيضا ان امرأة أخذت فى جملة الغنائم والأموال الى دمشق لتكون للخليفة » ..

قالت : « وقد أشاعوا ذلك زورا وبهتانا ، فالظاهر أن الزوجة ألبست احدى نسائها ثيابها وأوهمت ان تلك لمباجة ، وانما هى من بعض خدمها وسراريها لتبقى فى معسكر عبد الرحمن عينا لأبيها على العرب وحركاتهم ، وقد تحققت من أنها هى التى

كتبت الى أبيها أن يستنجد بشارل دوق أوستراسيا ، ولم يكن ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حياء من رجاله ورعاياه ، فأغرته هى بما لها من النفوذ عليه فاستنجد به .. ومما يخيفنى من أمرها أن الأمير عبد الرحمن يثق بها ، ويفضى اليها بأسراره ، ويستشيرها .. فهل من خطر على جند العرب أعظم من هذا ؟ »

فقال حسان : « كلا يامولاتى .. فينبغى أن أذهب بهذا الخبر الى الأمير سريعا ، فهل تكتبين كتابا أحمله اليه حالا ؟ »

قالت : « ولا بد قبل كل شىء أن نخرج من هذا السجن ومتى خرجنا يهون علينا كل أمر عسير .. »

— ٦٠ —

الجوزة الكبيرة

وكان الراهب أثناء ذلك الحديث واقفا يتشاغل بالمشى فى أرض الخيمة ويتطلّع من بعض شقوقها وثقوبها الى الخارج وكأنه رأى أمرا بغتة فأسرع الى سالمة وهى تقول ذلك وقال لها : « أظننا أطلنا الكلام حتى قلق الحراس ، اننى أراهم فى هرج ، يتشاورون ويتهامسون ، وأخشى أن يكون فى ذلك خطر علينا .. »

فقال حسان : « عليك بهذا الرداء يامولاتى فالبسيه واخرجى مع حضرة الأب ، وغادر المعسكر ، وسأتبعكما سريعا .. والملتقى على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التى جلسنا

تحتها بالأمس ياحضرة الأب » قال ذلك وألبس سالمة عباءة الرهبان وجعل على رأسها القبعة وأعطاها العصا وأشار اليها بالخروج على عجل ..

فتنحنح الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من الخيمة وسالمة فى أثره .. فلما أطلّ على الحراس تظاهر باشتغاله برسم الصليب والصلاة ثم رفع يده كأنه يباركهم ، فأحنوا رءوسهم جميعا ونزعوا قبعاتهم اجلالا واحتراما ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منهما لما لاحظوه من اشتغالهما بالصلاة تمتمة . وكانت سالمة تمشى وركبتاها ترتعدان ليس خوفا على حياتها ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتنكر بملابس الرهبان . ولما بعدا عن المعسكر واطمأنا على نفسيهما اشتغل بال سالمة على حسان ، وخشيت أن يقع فى الأسر

سارا فى المعسكر، وهما فى زى الرهبان ، والحرس لاينتبهون لهما ، وأكثر الجند نيام ، الى أن خرجا من بين الخيام . وكانت سالمة تمشى وتتلفت يمينا وشمالا ، ثم تلتفت الى ورائها لعلها ترى حسانا قادما ، وقد ندمت على تركه فى تلك الخيمة لأنه أقدر منها على تحقيق ما تطلبه فى تلك الساعة .. وكان الظلام مخيما ، لايريان مما يحيط بهما غير الأشجار العالية اذا اعترضت بينهما وبين الأفق ، وكانت سالمة تمشى فى أثر الراهب أينما مشى لأنها لا تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسير ساعة ، وهما صامتان ، التفت الراهب الى سالمة

وقال : « قد أصبحنا على مقربة من الجوزة ، يامولاتى ، وهذه رءوس أغصانها » وأشار بيده الى الأمام ، فالتفتت فلم تر شجرا ولكنها رأت أغصانا متفرقة تتراءى فى الأفق فعلمت ان الشجرة فى منخفض وانها ترى رءوس أغصانها . ثم رأت شبحا يظهر بجوار تلك الأغصان رويدا رويدا كأنه قادم من وراء أكمة نحوهما ، فتفرست فى ذلك الشبح حتى بدا كله ودنا منهما ، فاذا هو بملابس جند الافرنج .. ولما اقترب منهما اختلج قلبها فى صدرها لعلمها انه عدلان الأحول ، فاستعاذت بالله منه وخافت على حسان من دهائه .. أما هو فظل ماشيا لا سلام ولا كلام ، فسرّت سالمة بذلك . وبعد قليل وصلا الى قمة التل فشاهدت سالمة وراءه شجرة هائلة تظلل سهلا واسعا ، فانحدرا نحوها وجلسا تحتها ، وأمامهما عين ماء تصب فى منحدر ، تحته واد يجرى فيه نهر شير . وكانت سالمة قد تعبت من المشى والقلق فجلست على حجر ناعم أملس ، من كثرة ما لامسه من الأيدى بمرور الزمن ، وكانت تلك الشجرة مهبطا للمسافرين هناك

ولما جلسا قالت سالمة للراهب : « انى خائفة على حسان ولا أظنه يستطيع الخروج من ذلك المعسكر ، واذا كان لم يخرج الآن ، فاننى لم أعد أرجو خروجه »

قال : « وكيف ذلك ؟.. اذا لم يخرج الآن يخرج بعد ساعة أو ساعتين ويكون الحرس نياما »

قالت : « لا أخاف عليه من الحرس ولكننى أخاف عليه من

هـذا الرجل الذى رأيته مارا بنا وهو الذى وشى بى حتى قبضوا علىّ . ولو لم يكن غائبا الليلة عن المعسكر ما انطلت حيلتكم على الحرس ... »

قضيا مدة فى مثل ذلك وسالمة تعد اللحظات وتحسب الساعة يوما من شدة القلق ، ثم سمعا وقع أقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبحا يعدو نحوهما فلم تشك سالمة انه حسان ، فلما اقترب منهما ارتعدت فرائصها من منظره لأنه كان عارى الصدر والذراعين مكشوف الرأس ، وقد نبش شعره وأرسله على وجهه حتى أصبح منظره كمنظر الجان أو الشياطين على ما كانوا يصفونهم فى ذلك العصر . ولم تكد سالمة تتبين ملامح وجهه ، حتى سمعته يقول : « لا تخافى ، يامولاتى ، أنا حسان » فاطمأنت ، وصاحت فيه قائلة : « ويلك .. ما هذا العمل ؟ »

قال : « لولا هذه السحنة ما نجوت من الأسر .. فعندما تحققت انكم بعدتم عن المعسكر ، تعرّيت كما تريان ، ونبشت شعرى ، وخرجت من الجانب الخلفى للخيمة أعدو على يدىّ وقدمىّ ، وأصيح صياح الشياطين . فأجفل الحرس من حولى وتفرقوا لاعتقادهم انى شيطان ، ولم يرجع اليهم رشدهم ويفطنوا الى الحيلة حتى صرت خارج المعسكر . ولكننى التقيت هناك برجل أظنه عدلان البربرى الأحول وقد رآنى ولم يعرفنى . هل شاهدكما هنا ؟ .. »

قالت : « رآنا ولم يعرفنا .. »

فقال : « لابد لنا اذن من تغيير هذا المكان .. اعطونى العباءة أولا » ..

فأعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول : « هلمّ بنا نذهب من هنا ، فان هذا البربرى الشرير لا يلبث أن يصل الى المعسكر ويعرف بأن الراهبين تمكنا من مساعدتك على الفرار حتى يأتى الى هذا المكان بالجند ، ولا طاقة لنا بالحرب » ..

فقال الراهب : « هذا هو الصواب .. فلنمض اذن الى دير القديس مرتين ، فاننا نستطيع أن نبلغه قبل الصباح فنصير هناك فى مأمن ، واذا أردت ارسال حسان بعد ذلك افعلى ، وربما أرسلنا معه من يهديه الى الطريق »

— ٦١ —

دير القديس مرتين

فاستحسنت الرأى ونهضت ، فمشوا فى طريقهم الى الدير والراهب دليلهم فوصلوا اليه عند الفجر وقد أخذ التعب منهم مأخذا عظيما فأطلوا على حلة أشبه ببلد صغير ، وفى وسط البلد بناء شامخ محاط بسور عال مثل سائر الأديرة هناك ، ولكنه أفخمها جميعا ، ومحيط السور هائل يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه . وكان دير القديس مرتين مشهورا فى اكيتانيا وأوستراسيا وسائر أوربا بالغنى والثروة لكثرة ماحواه من الآنية

الذهبية والفضية ، غير الأموال المدخرة فى خزانته من الهبات والنذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد ، فلما أطلت عليه تركت للراهب أن يتصرف فى كيفية الدخول . فاذا به تقدم الى الباب ، وهو كبير على خلاف أبواب سائر الأديرة ، فأمسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خاصة . وبعد هنيهة أطل أحد الرهبان من برج فوق الباب ، فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية فأسرع ذاك الى الباب وفتحه ورحب بالقادمين . فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه ، فأطلا على فناء واسع أشبه شيء بالحديقة ، وفى وسط الفناء بناء كبير هو الدير ، وبجانبه بناء آخر عرفا من قبته والصليب فى أعلاها انه كنيسة القديس مرتين

وكان حسان سائرا فى أثرهما ، وهو لايزال بمظهره الغريب ، فأمره رفيقه الراهب أن يمكث عند الباب ، وأشار الى البواب أن يبقيه عنده ريثما يطلبانه .. فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين والراهبان يتخاطبان باللاتينية ، فلم تفهم سالمة من حديثهما الا قليلا ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلا : « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المحترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا ؟ »

قال : « أظنه لايزال فى عبر النهر عند دوق أوستراسيا الا اذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر »

قال : « ومتى قطع النهر ؟ »

قال : « قطعه قبل الأمس على حين غفلة »
قال : « وما الذى دعاه الى ذلك ؟ »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشى فى الحديقة بين أشجارها ويتفرس فى طرقها كأنه يفتش عن أحد ، فلما أفضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب الكنيسة ، فأشـــار الراهب الى سالمة بالجلوس وجلس هو ، ونور الصبح آخذ فى الاشراق ، وقد تطايرت العصافير وانطلق النسيم فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار .. فكان لذلك تأثير شديد على سالمة بعد أن قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليـــل الماضى . وأحست بالنعاس ، ولكن حواسها تنبهت لسماع حديث الراهبـــين لتعرف سبب خروج الرئيس من ديره على غرة ، فســـمعت الراهب يقول : « ان الذى دعا الى ذلك الخروج يا أخى أمر جديد كفانا الله شره »

فقال الراهب : « وما هو ذلك الأمر لا سمح الله ؟ »

قال : « ألم تسمع بمجىء الدوق شارل صاحب أوستراسيا بجيشه الجرار ؟ »

قال : « سمعت انه قادم ، فهل وصل ؟ »

قال : « نعم يا أخى .. وصل منذ أيام وهو الآن على الضفة اليمنى ، وحالما وصل بعث الى حضرة المحترم رئيس ديرنا أن يوافيه الى هناك على عجل فلم يسعه غير الطاعة »

قال : « وما الذى يبتغيه منه وليس عنده جند ينجده به ؟ »

قال : « يظهر انك تجهـل حال هـذا الدوق مع رجال الله والكنائس والأديرة .. »

قال : « أعرف عنه قليلا .. »

قال : « ألا تعرف طمعه فى أموال الكنائس وأرزاقها .. وهل فاتك ما ارتكبه من الظلم مع اكليروس أوستراسيا .. ؟ »

قال : « سمعت بعض الشيء .. وأخشى أن يفعل مثل ذلك فى كنائسنا هنا »

قال : « وهذا الذى نخشاه نحن .. »

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا قرع الجرس .. فبغت راهب الدير ووقف الباقون وهم يحسبون الجرس يقرع للصلاة ، ولكنهم رأوا الكنيسة لاتزال مغلقة وقد تقاطر الرهبان من كل ناحية نحو طرقة من طرقات الحديقة تؤدى الى سور الدير من جهة النهر ، فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران ما يكون . ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة من الرهبان عائدين وفى مقدمتهم راهب بملابس خاصة ، يمتاز عن الباقين وعلى رأسه قلنسوة خاصة ، فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من مهمته التى ذهب لأجلها الى شارل .. فاستغربت رجوعه فى ساعة مبكرة ، وتفرست فيه عن بعد فرأته ماشيا وحوله الرهبان والجميع سكوت تهيبا مما فى وجهه من مظاهر الغضب .. .

وكان ذلك الرئيس كهلا كثيف اللحية قد وخطه الشيب فى أواسط لحيته من مقدم الذقن ولايزال الباقى حالكا ، وكذلك

شاربه فانه كان غليظا كثيفا .. وكانت عيناه كبيرتين براقتين ، فوقهما حاجبان عريضان ومنظره فى الجملة وقور مع جلال ، وقد زاده الغضب هيبة ووقارا حتى ألجم الرهبان كافة عن الكلام . فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيرا .. ولما دنا من الدير أسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبعته بيده ، ففعلت سالمة مثله ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم علامات الدهشة ، ولا يجسر أحد على الكلام الا همسا ..

فظلت سالمة وراهبها يترقبا فرصة تسمح بدخولهما على الرئيس ، وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب . وبعد هنيهة جاء الراهب الذى كان قد استقبلهم من باب السور وقال : «هذا هو الرئيس قد عاد فما الذى تريدانه؟»

قالت سالمة : « أريد أن أحظى بتقبيل يديه ومعى كتاب أريد تقديمه اليه » ..

قال : « وأين الكتاب ؟ »

فمدت يدها وأخرجته من جيبها ، ودفعته اليه مختوما فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة للدخول وحدها ، فسرت لذلك ومشت وهى تعد فى ذهنها ماستلقيه على الرئيس لعلمها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عن سائر رؤساء الأديرة بعلو منزلته وغنى ديره .. فدخلت فى دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويجيئون كأنهم فى شغل عظيم وقد

تسربوا أزواجا وأثلاثا . فلما رأوها وسعوا لها الطريق ، فمشت والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستار شقه الراهب بيساره وأشار الى سالمة بيمينه أن تدخل ، فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة الصنع تمثل أهم حوادث النصرانية . وفى صدر القاعة صورة القديس مرتين بالحجم الطبيعى الكامل .. ورأت الرئيس جالسا على مقعد فى صدر القاعة تحت تلك الصورة . فلما دنت منه جثت وقبلت يده فأنهضها وطلب مقعدا أجلسها عليه ، والكتاب لايزال بيده وقد تبسم ترحابا بالقادمة والغضب لايزال باديا فى عينيه

— ٦٢ —

أمل جديد

فجلست سالمة متأدبة والخمار يجلل رأسها ، وثوبها الأسود يزيدها كمالا ورزانة ، وظلت صامتة احتراما للرئيس . أما هو فأعاد نظره الى الكتاب وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ، ثم قال : « ممن هذا الكتاب ؟ »

قالت : « ان خاتم صاحبه فيه »

قال : « لا أرى خاتما ولكننى عرفته من خطه .. هل أنت سالمة ؟ .. »

قالت : « نعم يامولاى ، انى أمتك سالمة »

قال : « العفو يا أختى كلنا عبيد ربنا ومخلصنا .. ما الذى تريدينه منى الآن ؟ .. »

قالت : « لا أريد الا ما تريده قداستكم وليس لى رأى بعد رأيكم » ..

فابتسم غضبا وقال : « لا حاجة بنا الى المجاملة والتردد .. لقد جئتنى لأمر يقول أخى رئيس دير .. انه يهمنى ويهمه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة فى اكيتانيا فتفضلى بما تأمرين »

قالت : « انى خاطئة لا أستحق هذه العناية ، ولكننى كنت قد خاطبت كاتب هذا الكتاب فى شأن دافعنى فيه وأنكره علىّ ، ولكنه ما أن سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأيى .. فهل أعجبك حضرة الدوق بمجيئه .. ؟ اصفح عن جرأتى فى هذا السؤال لأن عليه يتوقف حديثى »

قال : « صدقت يا ابنتى ان هذا السؤال لايجسر أحد من رهبانى أن يسألنى اياه ولكنك جئت فى وقت أجيز لك فيه هذا السؤال ، وفى كلام أخى الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملنى على الثقة بك .. فأقول انى وجدت الدوق شارل خطرا على الكنيسة فى اكيتانيا »

قالت : « وهذا الذى رآه هو ، وأراد أن أكون الواسطة فى عرض طريقة أرجو أن تعود بالنفع على الكنيسة وأهلها .. »

قال : « وما هى طريقتك ؟ »

قالت : « هل تعد الدوق شارل مسيحيا حقا ؟ »

قال : « هو يزعم انه مسيحى ، ولكن أنّى له ذلك وهو يحلل ما حرمتــه الكنيسة .. كنا نســمع عنه أمورا لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفتيه » . قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال : « كنا نسمع انه أخذ أموال الأديرة وأساء الى الاكليروس ، وكنا نستغرب ذلك منه حتى دعانى بالأمس اليه وبدلا من أن أسمع منه تملقا وتزلفا لشدة حاجته الينا فى كل شيء سمعت منه تهديدا ووعيدا »

فانشرح صدر سالمة لهذه الشكوى ، واستبشرت بتحقيق أمنيتها ، ولكنها أظهرت الدهشة ، وقالت : « تهديد ووعيد ؟ ولماذا ؟ ألعلّكم عصاة ؟ .. »

قال : « كلا يا ابنتى ولكنه كلفنى أمرا لم أوافقه عليه كما أراد .. دعانى وطلب الىّ أن أدفع ما فى صندوق هذا الدير من الأموال عاجلا لأنه يحتاج اليها فى الحرب ، ثم عرّض بفضله علينا فى هذه الساعة لأنه سيدفع عنا العرب .. سامح الله الدوق أود ما أضعف قلبه .. انه سيجر علينا البلاء مضاعفا باستنجاده بهذا الرجل المستبد .. »

فأظهرت سالمة الاهتمام وقالت : « فى الحقيقة ان الخطأ الأكبر من الدوق أود ، فقــد أضــاع اســتقلاله وجرّ البــلاء على الكنيسة .. وما الذى يظنه مولاى الرئيس فى هؤلاء العرب ؟ »

قال : « هم أعداؤنا وأعداء ديننا ! »

فابتسمت بلطف وقالت : « اسمح لى ياحضرة الرئيس المحترم

أن أعترض على هذه التهمة ...هل رأيت العرب أو عاشرتهم ؟ »
قال : « كلا .. ولكننى سمعت عنهم شيئا كثيرا .. سمعت أنهم يعبدون الأصنام وأنهم اذا نزلوا بلدا نهبوا كنائسه وسبوا نساءه وخربوا منازل أهله ... »

قالت : « ألا تصدق امرأة عاشرتهم أعواما ؟ »

قال : « هل عاشرتهم كثيرا ؟.. وأين ؟.. وما هى علاقتك بهم وأنت من أهل هذه البلاد على ما يظهر ؟ .. »

قالت : « فليسمح لى مولاى أن أجيب على أسئلته بما فى استطاعتى .. لقد عاشرت هؤلاء العرب أعواما فظهر لى أنهم أهل ديانة مثل ديانتنا ، يعبـــدون الله مثلنا وهم أهل رفق وعدل ، يوفون بالعهـــود ويحافظون على المواثيق ، وقد فتـــحوا بلاد الأسبان ومعظم اكيتانيا ولم يظهر منهم الا العدل والرفق . ترى النصارى فى اسبانيا وفى بوردو « بواتيه وغيرها من البـــلاد التى فتحوها متمتعين بحريتهم الدينية ، لا خوف على كنائسهم ، ولا على أموالهم ، ولا على شىء مما يملكون . ولا يخلو أن يطمع أحدهم فى نهب أو سلب فاذا لم يكن محقا فانه ينال جزاءه من أميره » . ثم قصّت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها فى تنميق العبارة وبسطها لعلمها انها اذا أقنعت رئيس دير القديس مرتين هان عليها اقناع أسقف تورس ، واذا هم لم يســاعدوا العرب كفاها ألا يساعدوا الافرنج

- ٦٣ -

الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس فى وجههـا ويستطلع حقيقتها ، فلم تسعفه الفراسة الا قليلا وظل مستغربا غيرة هذه المرأة على العرب وهى غير عربية .. ولكنه استحسن امتداحها العرب خصوصا وهو على تلك الحال ، فتوهّم ان مجىء هـذه المرأة أثناء نفوره من شارل وخوفه منه لايخلو من عناية خاصة روحانية . فمال الى موافقة سالمة فى رأيها ولكنه أعظم أن ينصاع اليها فى سهولة ، وأراد من ناحية أخرى أن يحافظ على غيرته الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب — اذا لم يكونوا كما وصفت — يغيِّر مستقبل النصرانية فى تلك البلاد ويقلب الأحوال رأسا على عقب . وكان يرجو رجوع شارل عن مطالبه ، فاذا رجع لم يبق ثمة داع لعدوله عن نصرته . فظل مدة مطرقا وهو يعبث بأطراف لحيته بين أنامله ، ثم التفت الى سالمة وقال لها : « انى شاكر لسعيك ، وأرجو أن تمهلينى ريثما أفكر وأستخير الله وأعمل بالهامه جلّت قدرته »

قالت : « تبصّر يامولاى فى الأمر كما تشاء ، ولكننى أذكّرك بما أنت مسئول عنه أمام الله من مصالح الرعايا .. وانما هدفى أن يعود سعيك بالخير على الكنيسة وأهلها » . قالت ذلك

ووقفت فابتدرها الرئيس قائلا : « أما أنت فتبقين عندنا ريثما نرى ما يكون »

فأدركت انه يريد بقاءها عنده رهينة حتى يصدق قولها ، فلم تبال لاعتمادها على وعود عبد الرحمن ، فقالت : « انى رهينة أمرك فيما تريد »

فصفق الرئيس فجاء أحد الرهبان فقال : « انزل هذه الضيفة فى غرفة خاصة بها وأكرموها »

فمضت مع الراهب الى علية أعدوها فى طرف الدير من جهة نهر لوار ، ولها نافذة مطلة على ذلك النهر ، فاتكأت على السرير وقد أخذ التعب منها مأخذا عظيما فاستلقت ونامت واستغرقت فى النوم ، ولم تفق الا على قرع جرس يدعو الرهبان للغذاء ، فنهضت والتفت بثيابها وأطلت على النهر فبغتت لما شاهدته ــ من بعد ــ من السفن الصغيرة المرابطة صفوفا كالجسور ، وقد أخذ الناس فى العبور عليها الى هــذه الضــفة ومعهم الأعلام أشكالا وألوانا ..

فعلمت انهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر ، وقد رجعت بها أفكارها الى مريم والعهود التى تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيشين هناك من الأمر الهام . وكانت كثيرة الاطلاع على أحوال الافرنج ، وقد علمت انه لم يبق عنــدهم رجل قوى الا شارل هذا .. فاذا دارت عليه الدائرة فالغلبــة للمسلمين على كل أوربا لأنه لن يقف فى طريقهم شىء بعد ذلك .

واذا كانت الغلبة للافرنج ، فلا مقام للمسلمين هناك أبد الدهر.. وأشد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم يبق لها ولا لابنتها عيش .. فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى جيبها وافتقدت المحفظة وفيها كل سرها وأخرجتها وقبّلتها ، فدمعت عيناها وأحست من تلك الساعة بشوق شديد الى مريم بعد ذلك الغياب الطويل وهى لاتدرى كيف حالها ، على انها لم تكن تخشى عليها من أحد ليقينها بحكمتها وعناية عبد الرحمن بها

استغرقت سالمة فى تلك الهواجس ، وعيناها تنظران الى معبر الجند وقد استغربت كثرتهم على الضفتين ، وكانت تسمع صوت الطبول برغم بعد المسافة لأن الهواء كان يهب من الشمال والشرق والصوت يأتى معه . وقضت سالمة فى ذلك ساعة ، ولو تركت لنفسها لانقضى النهار ولم تنتبه ، ولكنها ما لبثت أن سمعت قرع الباب فتحولت وفتحته ، واذا براهب ومعه خادم يحمل خوانا عليه الأطعمة فقدماها لها ، وخرجا فأحست بالجوع وكانت قد نسيت نفسها ، فجلست ولم تزدرد اللقمة الأولى حتى تذكّرت حسانا ورفيقها الراهب فصفقت ، فجاءها خادم فطلبت اليه أن يستقدم خادمها عند باب الدير ، فذهب ثم عاد بحسان وهو بعباءة الرهبان وشعره لايزال مشعثا ، فدخل وتأدب ، فأمرته أن يقفل الباب وراءه ، فلما خلت به دعته للجلوس فأبى ، فقالت : « دعنا من المجاملة فانك من أعز الأعزاء الىّ ، وأى عزيز يضحى بنفسه فى مصلحة صديقه أوصاحبه كما فعلت ؟.. فاسمح لى أن

أعاملك معاملة الصديق .. اجلس وتناول الطعام معى »

فتراجع وقال : « أما الجلوس فى حضرتك فأطيعك فيه ، وأما الطعام فلا حاجة لى به لأنى أكلت مع بواب الدير الساعة ، وقد شغل بالى لابطائك فى دعوتى وخشيت أن يفشل مسعاك .. فأرجو أن أسمع أخبارا طيبة .. هل نجحت مع رئيس الدير ؟ »

قالت : « أحمد الله على ذلك ، ولم يبق الا أن نبلغ نتيجة أعمالنا الى الأمير عبد الرحمن ليعلم كيف يتصرف مع تلك الداهية ميمونة .. وأين جند العرب الآن ياترى ؟ »

قال : « قد علمت من حديث دار بينى وبين أحد الرهبان فى هذا الصباح ان العرب أصبحوا على مقربة من هذا المكان ولكنهم قادمون من جهة الغرب ، وان جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقى الجيشان فى هذه الساحة جنوبى هذا الدير »

فبغتت وأبرقت أسرّتها ، وقالت : « هل أنت واثق من ذلك يا حسان ؟ »

قال : « هذا الذى سمعته — يامولاتى — والجميع يتناقلونه ، وأظنه صحيحا .. »

قالت : « فعلينا الاسراع فى ابلاغ الرسالة ، وكنت أود أن أذهب أنا أيضا معك لولا اصرار الرئيس على بقائى هنا لغرض لا أعلمه » ..

فقال : « لابأس من بقائك فى الدير اذ تكونين هنا فى مأمن من كل شر ، لأنه فضلا عن تحصينه بالأسوار والأبراج فله

مكانته عند الجيشين .. واتركى ما بقى من المهام علىّ ، فانى أفعل ذلك ان لم يكن اكراما لك فاكراما لنفسى ، وفى فوز العرب فوزى ، وفى سقوطهم سقوطى »

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك . وقد فاتها أن تخبره به بالأمس فقالت : « بورك فيك وعندى خبر جديد يهمك أكثر من كل ذلك .. »

فقال : « وما هو ياسيدتى ؟ »

قالت : « أتذكر حفيدك سعيدا .. ؟ »

فأجفل عند سماع ذلك الاسم لطول ما مر به من الأيام على اغفاله وهو يحسبه فى عداد الأموات وقال : « كيف لا أذكره .. رحمه الله ورحم والده »

قالت : « انه لم يمت ياحسان .. »

قال : « من ؟.. سعيد حى ؟.. أين هو .. »

قالت : « هو فى معسكر الدوق أود واسمه عندهم رودريك» وقصت عليه ما تعرفه عنه ، فأطرق واستغرق كأنه فى حلم ، ثم رفع بصره وقال : « وهل هو هناك الآن ؟ »

قالت : « لا أدرى .. واذا كان هناك فانه يكون سجينا »

قال : « سوف أسعى اليه وأبحث عنه بعد ذهابى برسالتك الى الأمير عبد الرحمن »

فأعجبها منه ايثار خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه ، فلما فرغت من الطعام أمرت حسانا فجاءها بعداد ،

وتناولت منديلا كتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولفتها ودفعتها الى حسان وقالت له : « سِرْ فى رعاية الله ، واذا احتجتم اليَّ فى شيء فانى مقيمة هنا . وأرى قبل ذهابك أن تصلح من شأنك وتتزيا بزى الرهبان لتأمن غوائل الطريق . وأظن أن رفيقنا الراهب سيعود الى ديره ، فاصطحبه وبلغه سلامى .. »

فودعها حسان وخرج ..

– ٦٤ –

معسكر عبد الرحمن

فلنرجع الى ما كان فى معسكر عبد الرحمن بعد طول سكوتنا عنه وانشغالنا بحديث سالمة .. تركناهم قرب مضيق دردون بعد أن فرَّ الافرنج من وجوههم ، فمكثوا هناك ينتظرون رجوع سالمة من مهمتها . وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل ميمونة ، وعرف القارىء انها لمباجة بنت الدوق أود ، وكانت بارعة الجمال والدهاء كما رأيت ، وقد وضعت نفسها موضع السبية خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ، ولولا سالمة لظل أمرها مكتوما . وكانت سالمة قد عرفتها منذ قابلتها فى الخباء ، ولكنها خشيت أن يكتشف سرها هى فأجَّلت الأمر حتى تعود ، ولو علمت حقيقة مهمتها ماصبرت عن أمرها.. فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من وصيفات

لمباجة وهى لا تدخر وسعا فى عرقلة مساعى العرب بكل سبيل . فلما فرغت يدها من وقعة دردون وتخلصت من التهمة ، عمدت الى أحد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتابا أنبأته فيه عن مهمة سالمة والغرض الذى ذهبت من أجله الى بوردو وبواتيه وغيرهما ، وحرضته على القبض عليها لأنه اذا حبسها فكأنه حبس نصف جيش المسلمين ، فلم تدركها المكيدة الا على أبواب بواتيه كما رأيت . وكانت ميمونة قد تحققت من عجز والدها عن دفع ذلك الجند من العرب بعد ما شاهدته فى الوقعتين الأخيرتين بفضل اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها ، فعمدت الى شيطانها الأحول وبعثت معه الى والدها تستحثه على الاستنجاد بشارل لعلمها ان أباها لا قبل له بذلك وحده .. ومن غريب دهائها واحتيالها انها كانت شديدة التأثير على والدها لا تكاد تشير عليه بأمر الا حققه لايمانه بحكمتها وسعة اطلاعها ، وخاصة على أحوال العرب بعد الاقامة بينهم أعواما . ولما جاءه كتابها ، كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه ، فوافق رأيها مصلحته فبادر الى الاستنجاد بشارل دوق أوستراسيا ، فلبّى هذه الدعوة لعلمه انه اذا انتصر على المسلمين انتصر على أود وملَك فرنسا كلها

أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة ملّ الانتظار ، وبعث يبحث عنها فى بوردو فعلم انها خرجت منها منذ أيام ، وكانت مريم مع تعلقها بهانىء واستغراقها فى لجج العواطف أشد الجميع قلقا على والدتها ، وكان هانىء يختلس الفرص فى أثناء الاقامة

هناك ويجتمع بمريم ، اما فى الخياء أو فى الصحراء ، ويتحادثان ويتشاكيان فى غفلة من الرقباء ، وعبد الرحمن يغض النظر ، حتى تمكنت المحبة بينهما وكادا يتناسيان الحرب وأسبابها لو لم يكن زواجهما متوقفا عليها وعلى اختراق اكيتانيا الى نهر لوار . ولذلك فان هانئا لم يكن يفتر عن تحريض عبد الرحمن على السير قبل فوات الفرصة واستعداء الأعداء ، وعبد الرحمن يأخذ الأمر بالتؤدة والتأنى .. حتى جاءهم الجواسيس ذات يوم بخبر استنجاد أود بشارل ، فعقد عبد الرحمن مجلسا من الأمراء حضره هانىء وأطلعهم على الخبر ، فقال هانىء : « وهذا ما كنت أخشاه ، ولذلك كنت أستعجل الأمير فى التقدم »

فقال عبد الرحمن : « فالذى أراه أن نبادر حالا الى المسير »

قال هانىء : « هذا هو رأيى »

ولبث عبد الرحمن ساكتا ليسمع آراء سائر الأمراء وفيهم أمراء البربر فلم يفه أحد منهم بكلمة ، فتخوف من ذلك السكوت وأدرك هانىء خوفه ، وعلم ان مطامع البرابرة متعلقة بالغنائم والسبايا ، وانهم لما علموا باتحاد جيشى اكيتانيا وأوستراسيا خافوا على أنفسهم .. فوقف هانىء وهو يبتسم وقال : « لاحاجة بنا الى طول البحث فى هذا الشأن ، فان الله قد ضم جيش أوستراسيا الى جيش اكيتانيا غنيمة لنا لأن عند أولئك من الأموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد ، واذا انتصرنا على الجيشين مرة واحدة ملكنا هذه الأرض الكبيرة

كلها ، وقطعناها حتى نذهب الى رومية والقسطنطينية فنتم فتح العالم كله ، وننشر الاسلام بين الناس كافة ، ويكون الفضل فى ذلك لسيوفكم وخيولكم » . قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لايفتر طالب الغنائم عن تلبية دعوته .. وما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد : « الخيل .. الخيل »

فقال عبد الرحمن : « بارك الله فيكم ونفع الاسلام بكم » ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل ، ولما انصرف الأمراء بقى هانىء وعبد الرحمن.. ولاحظ هانىء علىعبد الرحمن انقباضا ، فقال : « ما بالك منقبض النفس وقد أطاعنا هؤلاء على المسير ؟ »

قال : « انت تعلم ياهانىء انهم لايحاربون الا طمعا فى الأموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوءون تحت أثقالها فالرجل منهم لا يكاد يستطيع حمل طعامه وغنائمه ، فبماذا يقاتلون ؟ »

قال هانىء : « لقد نبهتنى أيها الأمير الى أمر ذى بال : ان تعلق هؤلاء البرابرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش .. ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ، ولكن لأنها تشغلهم عن الحرب . فاذا حملوها أثقلتهم وأعاقت حركتهم ، واذا تركوها خلفوا قلوبهم معها .. فلا بد من حيلة نحتالها عليهم فى ذلك »

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف ، فوقف هانىء معه وتشاغل عبد الرحمن باصلاح عمامته وهانىء باصلاح حسامه ، ثم التف عبد الرحمن بعباءته وهو يقول : « لابد لنا من النظر فى هذا

الأمر . وفى اعتقادى ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب الى الحرب بدونها أربح لنا جميعا ، ولكن من يجسر آن يقول لهؤلاء البرابرة : تخلوا عن غنائمكم .. ونحن انما رغّبناهم فى الحرب بذكر الغنائم والأموال »

فضحك هانىء وقال : « أظنك لاحظت ذلك من عبارتى فى هذا الشأن .. وقد كان فى نفسى أن أرغبهم فى سرعة المسير الى تورس بذكر ديرها الغنى لأن بقربها ديرا يقال له دير القديس مرتين هو من أغنى الأديرة الافرنجية (١) ولكننى خشيت ان أنا قلت لهم ذلك أن يشتغلوا بنهبه عن الحرب ، فنكسب عداوة الأهالى والكهنة فضلا عن عداوة الجند »

قال عبد الرحمن : « لقد أحسنت بالسكوت عن ذلك والذى أراه اننا متى وصلنا الى ساحة الحرب ندبر تدبيرا لا يغضب أحدا فنجعل هذه الغنائم فى مكان خاص فيكون أصحابها فى اطمئنان لا يخافون عليها بأسا أو نجعلها وراء الأخبية أو بينها وبين الجند » فمشى هانىء وهو يقول : « سننظر فى ذلك فى حينه » وخرجا لاعداد معدات السفر

أما مريم فقد كانت لاتزال على اعتقادها فى اخلاص ميمونة . وهذه لم تكن تدخر وسعا ولا تضيع فرصة لا تجتذب فيها قلب مريم بالاطراء والاعجاب ، ومريم — لسلامة نيتها وصدق محبتها — كانت تثق بميمونة ثقة تامة . ولم يكن ذلك عن جهل

---

(١) رومى

أو بله .. ولكن حرّ الضمير يصــدق النــاس ويعتقد أنهم يصدقونه ، فاذا سمع قولا صدقه لسلامة نيته وصدق لهجته . وفى جملة ما استخدمته ميمونة من أســباب الخداع لمريم انها كانت تحدثها بحوادث وقعت لها مع عبد الرحمن أو غيره ، تزعم انها مما لايفشى لغير الأصدقاء الأخصاء وتتوقع أن تفشى لها مريم شيئا من سرها مع هانىء ، ولكن مريم كانت شديدة الحرص على أسرار الحب وميمــونة تسايرهــا فى كتمانه فيزيدها ذلك استسلاما لها . فلما تمكنت ميمــونة من مريم وكسبت ثقتهــا أصبحت مريم لا تفارقها الا ساعة النوم ، أو عندما تلتقى بهانىء أو لأسباب قاهرة ..

— ٦٥ —

ساحة القتال

وفى صباح الغد قوّضوا الخيام ووضعوا الأحمال على الجمال والبغال وسار الجند على نسق خاص .. المشاة حسب قبــائلهم وأمام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها أحد فرسانها ، وقد يكون للقبيلة عدة رايات تخفق فى الهواء حتى اذا نظر ناظرٌ الى ذلك الجند وراياته عن بعد ظن الرايات أشرعة وظن حامليها سفنا ، والناس بحرا ومسيرهم موجا يتلاطم ، وكأن عمائمهم البيضاء وبجوانبها رءوس الأسنة تكسر الموج على سطح البحر . وكان من جملة المشاة رجال البربر بحسب قبائلهم ومعهم سائر الموالى

من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم ، وهم سائرون بازاء العرب . وملابسهم تختلف عن ملابس العرب بعض الشيء . وأما الفرسان فقد اصطفوا فرقة على حدة تتقدمها الرايات بحسب الأمراء ، وراية هانيء أكبرها جميعا .. وأكثر الفرسان بالدروع المتينة وعلى رءوسهم الخوذات الفولاذية . وكان عبد الرحمن يسير تارة بجانب هانيء أمام الأمراء أصحاب الأخبيـة ومعهم النساء والأطفال فى هوادج ، الا مريم فكانت على جواد كأحد الفرسان ، وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة فى ملازمتها فتركب جوادا الى جانبها . ويجيء وراء تلك الحملة ساقة الجند وأمامهم الأحمال والأثقال ، وكان عبد الرحمن وهانيء اذا دارا حول ذلك الجيش أو نظرا اليه من أكمة اطمأنا لكثرته وتوسما النصر به

وكان المسلمون يسيرون ولا يلاقون فى طريقهم الا حقولا مهجورة وأدوات متروكة وبيوتا خالية ، فيأخذون ما شاءوا ويتركون ما شاءوا ، حتى اذا أمسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه ، لم يلاقوا منها مقاومة كبيرة لأن معسكر أود كان قد بعد عنها ، وقليل من الجند من دخل المدينة لأن مقصدهم كان مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرنج

وأنبأهم الخبراء ذات صباح أنهم أصبحوا على مرحلة من نهر لوار ، فاستراحوا وأصلحوا شئونهم وساروا ــ وعبدالرحمن وهانيء يتقدمان الجنـد ــ نحو ميل ومعهمـا كبير الخبراء

لاستكشاف مواقع العدو قبــل النزول ، وليختــاروا مكانا يعسكرون فيه . وفى أصيل ذلك اليوم صعدا على رابية غلى ضفة نهر شير ووليا وجهيهما نحو الشرق فكان نهر لوار الى يسارهما عن بعد والشمس وراءهما فنظرا الى ما بين أيديهما شرقا ، فأشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدته ضفة نهر لوار الى يسارهما ورأس المثلث فى الجنوب .. وشاهدا عنده خياما وأعلاما ، فعرفا انه معسكر الدوق أود . وبين هذا المعسكر وضفة نهر لوار سهل واسع ، طوله نحو ميلين ، يصلح ميــدانا للقتال لخلوه من الأغوار ، حتى ينتهى عند قاعدة المثلث بالأبنية على ضفة النهر وأقربها اليها مدينة تورس ثم محلة دير القديس مرتين ، ومع بعدها عنهما فانهما عرفاها من فخامة ديرها وقبــة كنيستها . وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلى النهر حركة وغبارا عرفا مما يتخلل ذلك من الأعلام والخيول انها حركة جند قادم من جهة النهر .. فأمر عبد الرحمن رجلا فى ركابه أن يمضى الى جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيث هم ريثما يعود من هذا الاستكشاف . ثم التفت الى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم العربية وقال : « أليس هذا دير القديس مرتين ؟ »

قال الخبــير : « بلى ، يامولاى ، هــذا هو أغنى الأديرة النصرانية فى هذه البلاد .. »

قال : « وما الذى تراه وراءه ؟ »

قال : « أرى جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية

الى الضفة الجنوبية . وقد علمت من رجل لقيته فى هذا الصباح قادما من محلة هذا الدير ان الدوق المذكور أخذ منذ بضعة أيام فى نقل رجاله على جسور من السفن ، ولم يفرغ بعد لكثرة ما جاء به من الرجال والأحمال »

قال : « ألا يعرفون عدد جنده .. ؟ »

قال الخبير : « لم يحصوه ، ولكن لاريب عندى ان الدوق شارل جرد كل مايستطيع تجريده من قبائل الافرنج فى أوستراسيا وما وراءها لعلمه بشدة بأس المسلمين وقوتهم ، ولأن على حربه هذه يتوقف اما امتــداد سلطانه على فرنسا كلهــا أو خروج أوستراسيا من يده »

فقال هانىء : « وسيتحقق الأمر الثانى باذن الله .. »

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلا : « أليس مانراه الى يميننا فى الجنوب معسكر الدوق أود شريد مضيق دردون ؟ »

فضحك الخبير وقال : « بلى ياسيدى ، وهو شريد على كل حال .. لأنه سواء انتصر عبد الرحمن أو شارل .. فان سلطانه على اكيتانيا سيخرج من يده اما لكم واما لشــارل ، فحاله تستوجب الشفقة .. »

فاكتفى عبدالرحمن بما سمعه ، وفكر فى اختيار مكان يعسكرو فيه فقال هانىء : « لا أرى لنا مكانا نعسكر فيه خيرا من النق التى نحن فيها ، فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراء فنكون على بعد واحد تقريبا من هذين الجيشين . واذا تضاما

فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فاذا قضت الحرب أن نقهر ـ لاسمح الله ـ قطعنا النهر وجعلناه خندقا بيننا وبينهم »

فأعجب عبد الرحمن برأى هانىء وابتسم له ابتسام والد سمع من ابنه عبارة تدل على الذكاء ، وقال : « لقــد رأيت الصواب وأزيد على ذلك أن نترك أثقالنا وأحمالنا ونساءنا هنا ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون فى اطمئنان على أموالنا وأعراضنا ، وأرى أن نترك هنا أيضا الغنائم التى أثقلت رجالنا فيذهبون الى الحرب خفافا . وقد أخبرتك بأن أمر هذه الغنائم أقلق راحتى ، فاذا لم تقنع رجالنا وخصوصــا البرابرة بالتخلى عنها يوم الحرب كانت سببا فى فشلنا . وأنت تعلم ان الرجل انما يغلب بخفة حركته »

ـ ٦٦ ـ

مشكلة الغنائم

قال هانىء : « لنعقد مجلسا ـ اذا أمرت ـ نحدث الأمراء فيه ونقنعهم بوجوب التخلى عن الغنائم .. ونبين لهم ما يترتب على حملها من الأضرار ونرى ماذا يكون » . وكان فى ركاب عبد الرحمن أيضا صاحب النفير (البوق) فأمره أن يذهب الى المعسكر فيخبر الأمراء بمبيت الجند هذه الليلة حيث هم ، ثم يدعو الأمراء الى تلك الأكمة حيث كانا واقفين للبحث فى موضوع المكان الذى

سيعسكرون فيه .. فأسرع الرسول ، ولم تمض هنيهة حتى تقاطر الأمراء على جيادهم ، فلما وصلوا نزل عبد الرحمن عن جواده وهانىء عن أدهمه ، فنزل سائر الأمراء وسلموا جيادهم الى الخدم ، ووقفوا على تلك الرابية فأطلوا على سـهل تحف به تورس ومحلة القديس مرتين من الشمال الى يسارهم ، ومعسكر أود من الجنوب الى يمينهم .. فقصّ عليهم عبد الرحمن ما خطر له بشأن المكان الذى يعسكرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم الى أن قال : « وأستشيركم فى أمر هام .. أظن ان فيه خيرا لنا ، وهو ألا يعبر هذا النهر منا غير الرجال المحاربين ، وأن نترك النساء والأحمال هنا ومعهم من يحميهم .. فما رأيكم ؟ »

فقال اثنان من أمراء القيسية : « لقد رأى الأمير صوابا .. » فوافق سائر الأمراء على ذلك

فقال عبد الرحمن : « وهناك أمر ذو بال طالما خشيته على هذا الجند . وذلك ان جندنا قد أصبح من كثرة ما أفاء الله على المسلمين من الغنائم مثقلا بالتحف والأموال ، حتى لقد يتعذر على الرجل أن يحمل غنائمه فكيف يستطيع القتال بها ؟.. فالذى أراه أن نجعل الغنائم المذكورة فى مكان أمين فى جملة ماسنخلفه هنا عند ذهابنا فى الغد ، فنجعل تلك الذخائر والتحف فى خيمة خاصـة يحرسها من تثقون به من رجالكم ، كما فعلنـا بقرب بوردو » ..

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شـاب من أمراء

البربر قائلا : « أما نحن فلا نوافق على هذا الرأى . ولا تذكرونا بما أصابنا فى بوردو على أثر مثل هذا العمل ، فقد احتفظنا بالغنائم هناك حسب أمركم فكانت النتيجة اننا خسرنا أكبر أمرائنا وأشجع رجال هذا الجند »

فلما سمع عبد الرحمن تلك العبارة ، وما تنطوى عليه من التعريض بمقتل بسطام مع ما تدل عليه من الضغينة والحقد خشى الانقسام اذا هو اعترض عليه أو وبخه .. لعلمه انه لم يجسر على هذا القول الا وهو مدفوع من جماعة . فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة والأسف وقال : « فى الحقيقة اننا خسرنا فى تلك الوقعة خسارة يصعب تعويضها لأن الأمير بسطاما يندر أن يجود الزمن بمثله.. ولكننى لا أرى علاقة بين مقتله والغنائم» ثم التفت الى جمهور الأمراء وقال: «أظنكم توافقوننى على تناسى ذلك الحادث والاشتغال بما هو أهم منه ، وقد عرضت عليكم رأيا فاذا كنتم ترون فيه خطأ فبينوه لأن الهدف واحد ، والمصلحة واحدة »

فتهامس الأمراء وتداولوا مليا ثم قال أحد أمراء اليمنية : « أرى الأمير على صواب فى رأيه .. لأن الرجل منا لا يستطيع الحرب وهو مثقل بالأحمال ، واذا خسر الانسان غنيمته وانتصر فى حربه عوّض أضعافها » ..

فوافق على ذلك كثيرون ولحظ هانىء ان البربر لايزالون يلوذون بالصمت ، فخشى الفشل فقال : « وأزيد على ما قاله الأمير .. اننا اذا انتصرنا فى هذه الوقعة كانت غنائمنا فوق ما

تدركه العقول .. لأن الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند وأشار الى جند شارل قد حمل معه كل ما فى بلاده من التحف وكل ما فى الأديرة والكنائس والقصور ، فاذا انتصرتم عليه ظفرتم بالغنى والفخر والسعادة » .. قال ذلك بلهجة تحمل كل معانى الاخلاص ، وهو يبتسم ويتفرس فى وجوه الأمراء

فلم يجد أمراء البربر ما يدفعون به قوله ، فتكلم شيخ من أمرائهم قائلا : « لاريب فى ان الجندى لايستطيع الحرب الا اذا كان خفيفا ، ولكن مَن لنا بمن يقنع أفراد الجند بأن يتركوا غنائمهم التى ظفروا بها بعد شق الأنفس وهم لايطمعون فى امارة أو قضاء وانما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم . فعندى اننا بدلا من أن نترك الغنائم هنا نحملها معنا فى صباح الغد ونجعل لها مكانا بجانب معسكرنا ، فان ذلك أيسر على أصحابها من أن يتركوها فى مكان يحول بينهم وبينه نهر »

— ٦٧ —

رسول أمين

فلم ير عبد الرحمن بدا من الموافقة .. فعادوا الى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك ، وأصبحوا فى اليوم التالى وأخذوا فى عبور النهر اما خوضا أو سيرا على قوارب نصبوها عرضا ، وكان ذلك النهر جدولا صغيرا لايعد شيئا بالنسبة الى نهر لوار

وهو يصب فيه .. فعبَر أولا عبد الرحمن وهانىء ليعيِّنا أماكن الخيام فوقفا على مرتفع أطلا منه على ذلك السهل ، وأخذا فى تعيين الأماكن والجند يشتغلون فى نصب الخيام وغرس الأعلام الى قرب الأصيل .. فلاحت من هانىء التفاتة وهو ينظر الى الأفق فرأى شبحا يعدو نحوهما عدوا سريعا ، فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه ملابس الرهبان فازداد استغرابا ، ثم رآه قد سقط على الأرض وهو يشير بيديه نحو هانىء ، فركض هانىء فرسه حتى وقف عنده فاذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض باحدى يديه على جنبه كأنه يشكو ألما هناك ، وأمسك بيده الأخرى شيئا أومأ به نحو هانىء

فترجل هانىء ، وأراد أن يساعد حسانا على الجلوس ، فأشار له بعينيه أن يتركه ، فسأله عن أمره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم : «أرسلتنى مولاتى سالمة برسالة الى الأمير عبد الرحمن .. من دير القديس مرتين .. فحملتها (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى اذا خرجت من الدير ورأيت أعلامكم عن بعد أسرعت نحوكم ، فما شعرت الا ونبل أصابنى فى جنبى من خائن أظنه عدلان الأحول .. فأيقنت انى ميت .. فأسرعت حتى أدرككم بهذه الرسالة لأنها فى غاية الأهمية .. فسقطتُ قبل أن أصل اليكم .. وهذه هى الرسالة»

ثم انقطع صوته وتزايد ألمه وأغمض عينيه وأرخى يديه . فناداه هانىء فلم يجب ، وكان عبد الرحمن قد شاهدهما فأسرع

اليهما وسمع كلام حسان . فلما رآه على تلك الحال أسف لحاله أسفا شديدا وكذلك هانىء ، وترجح عنده انه ميت ، ولكن الأمل لا ينقطع من الحياة طالما بقى نفس يتردد ، فأشار عبد الرحمن الى هانىء أن يستقدم أحد الأطباء

فركب بنفسه على أدهمه وركض نحو الجند ، وصاح : « هاتوا طبيبا .. » وبعد قليل جاءه الطبيب وهو من نصارى الأندلس وقد قضى فى خدمة العرب زمنا طويلا . فأسرع الى حسان وجس نبضه فاذا هو ميت لاحراك به ، فطلب اليهم أن يدبروا أمر غسله ودفنه ، فحملوه الى خيمة خاصة بذلك

أما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضه وأخذ يتلوه وهانىء يسمع ، فاذا فيه :

« الى الأمير عبد الرحمن الغافقى

« أكتب اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها سأقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله . وانما بعثت هذه الرسالة لأخبرك بأمر هام ، اطلعت عليه فى أثناء سياحتى هذه .. وهو ان المرأة التى تسمى نفسها ميمونة انما هى لمباجة بنت الدوق أود وقد نصبت لى الحبائل الكثيرة فى أثناء هذه الرحلة . وهى التى حرضت أباها على استنجاد صاحب أوستراسيا بكتاب أرسلته معخادمها الأحول ، فاحذروها وافعلوا بها ماشئتم . ثم انى أبشركم بأن رئيس هذا الدير ناقم على شارل وقد وعدنى بالمساعدة ولكنه استبقانى عنده رهينة .

وأنا فى أمن واكرام ، أطلب لكم النصر . وأوصيك بفلذة كبدى مريم ، والسلام »
سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بغت ، فنظر الى هانىء ثم أعاد النظر الى الكتاب ، وقد أخذت منه الدهشة مأخذا عظيما ، فقال هانىء : « لم أكن أعتقد فى هذه الملعونة خيرا ، وكنت مع فرط جمالها أشعر بنفور من منظرها لسبب لا أعلمه ، فكأن قلبى دلنى على حقيقتها وكثيرا ما كنت أستغرب اكرامك لها .. »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلا : « كنت أراعيها على حذر ولم أثق بها قط ، ولكننى كنت أتوقع منها نفعا فى أثناء حروبنا لأنها من أهل هذه البلاد .. وقد قضى الأمر الآن ، فيجب أن تتدبر فى شأنها ، فما الذى ترى أن نفعله ؟ » ..

قال : « أرى أن نقتلها حالا ونريح أنفسنا منها »

قال : « سننظر فى ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر»

قال ذلك وركب جواده وتحول نحو الجند لاتمام ترتيبهم . فجعل معسكره فى نحو ثلث الضلع الممتد بين تورس ومعسكر أود وجعل فسطاطه فى وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة هانىء ، يليهما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة أميرها فى وسط خيامها ، وراية الأمير مغروسة فى باب خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة أمراء وعدة رايات باعتبار البطون والأفخاذ .. وجمع بين القبائل المتقاربة فى النسب المضرية فى جانب واليمنية فى جانب . وجعل البرابرة فى جانب

آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختــاروها هم ، وعبــد الرحمن يسايرهم لأنهم أكثر فئات الجند عددا .. فترتبوا باعتبار قبائلهم وبطونهم ، وكذلك الأمم الأخرى من الأنباط والشوام وهم أقل سائر الفئات .. ثم أمر بالغنائم أن توضع فى خيام نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . وقد طلب البرابرة ذلك لتكون غنائمهم أقرب الى مضاربهم ، كأنهم خافوا أن يسطو عليها العرب ويأخذوها منهم . ونصــبوا مرابط الخيــل وراء المعسكر مما يلى النهر الصغير

وكان هانىء فى أثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن ، وهو يفكر فيما قرأه عن ميمونة وسالمة ، وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها فى ذلك الدير ربما طلبت الذهاب اليها ، فارتاح الى ذلك الخاطر لاعتقاده انها تكون هناك فى مأمن على حياتها لو قضى على العرب بالهزيمة . على انه ترك الاختيار لها وان كان لايقوى على فراقها

— ٦٨ —

المباحة

قضوا ذلك اليوم واليوم التالى فى الانتقال والترتيب ، حتى لم يبق فى الضفة الأخرى غير الأخبية والأحمال الثقيلة ونحوها. وفى أصيل اليوم التالى ، ســار عبد الرحمن وهانىء معا الى

الأخبية لمحاكمة ميمونة سرا ، وكان هانىء لايرى باعثا على المحاكمة .. ولو ترك الأمر له لقطع رأسها بسيفه بغير سؤال ولا جواب . أما عبد الرحمن فأراد أن يتصرف بحكمة وتؤدة .. فلما وصلا الى الخباء الأكبر ترجلا ودخلا القاعة ، وبعث عبد الرحمن الى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها وهى تترجرج فى مشيتها كأنها فى أحد قصور طليطلة . فلما وصلت الى عبد الرحمن حيّته ، فقال : « أين ميمونة ؟ »

قالت : « لم أشاهدها منذ مساء الأمس وأظنها مع مريم فى غرفتها .. »

قال : « ابعثى اليها أن تأتينا وحدها .. »

فصفقت القهرمانة فجاءها أحد الصقالبة الخصيان فقالت : « اذهب الى السيدة ميمونة ، وقل لها ان الأمير عبد الرحمن يحتاج اليها .. » وقد كلمته بألفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها الغرباء عن اللغة اذا تعلموها التقاطا من أفواه الناس ، شأن أولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم ممن كانوا فى خدمة العرب فى تلك الأيام ..

فأشار الصقلبى برأسه اشارة الطاعة ، وخرج .. ولبثوا فى انتظاره ؛ وهانىء يود الانصراف ليرى مريم ويخبرها عن والدتها ويكون هو أول من يخبرها بذلك ـ وفى هذا السبق لذة يشعر بها كل انسان وخصوصا بين المحبين ـ فان الرجل اذا سمع خبرا جديدا وهو بعيد عن زوجته أو حبيبته ، فانه يشعر

بميل شديد الى اطلاعها عليه . واذا كان ما سمعه من قبيل السر كان أشد رغبة فى مكاشفتها به ، وكلما بالغوا فى تحريضه على كتمانه ازداد رغبة فى كشفه ، وهو لايعد ذلك افشاء للسر لأنه يكاشفها به سرا ويوصيها بأن تكتمه ، وربما كان السبب فى لذة المكاشفة شعور الحبيبين بالامتزاج قلبا وروحا ، بحيث لايليق التكتم مع ذلك الامتزاج .. وزد على ذلك ان المساواة تزيد فى توثيق عرى المودة ، فاذا تواد اثنان تزداد الرابطة بينهما وثوقا اذا اطلعا على سر لايعلم به سواهما . ولهذا السبب كانت المحافظة على الأسرار الماسونية من أقوى أسباب ثباتها وان لم تكن تلك الأسرار مهمة فما بالك اذا سمع المحب خيرا يتعلق بشخص حبيبه كما كان الحال مع هانىء ، فان الخبر متعلق بمريم نفسها .. فلا غرو اذا رأيناه شديد الميل الى مكاشفتها ..

على انه كان من ناحية أخرى يريد البقاء مع عبد الرحمن بعد مجىء ميمونة ليحرضه على قتلها . وقد طال غياب الرسول ، فبعثت القهرمانة رسولا آخر وآخر . وبعد برهة عاد الرسول الأول وحده وهو يقول : « بحثت عن السيدة ميمونة فى كل مكان ، فلم أقف لها على أثر »

فبغت عبد الرحمن وهانىء أكثر من بغتة القهرمانة لعلمهما بما لم تعلمه ، فقال عبد الرحمن : « وأين ميمونة يا خالة ؟ »

قالت : « ربما كانت فى شغل وستعود منه قريبا .. »

قال : « انى أريد مقابلتها الساعة ، اذهبى انت للبحث عنها »

فنهضت وهى تقول : « لم أرها منذ غروب شمس الأمس .. وليس أحد أعلم برواحها وغدوها من مريم » ثم خرجت وهى تتمايل وتتدحرج .. وطال غيابها .. ثم عادت ومريم معها وهى تقول : « لم أجدها فى أى مكان .. فهى بلا شك فى غير هذه الأخبية .. »

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبها ، وابتسم لها عبد الرحمن رغم غضبه من ميمونة وخوفه من فرارها بعد أن عرفت حقيقتها.. وكان فى وجه مريم من المعانى والملامح ما لا يستطيع معها الناظر غير الاعجاب بها والانشراح لرؤيتها ، فكيف بهانىء بعد أن ملكت فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من النسيم ، فأصبح عند دخولها كله آذان وعيون يرقب مايبدو منها أو من عبد الرحمن عند المقابلة . ولا مسوغ لتلك الغيرة غير الحب الشديد، لأن الحب يدعو الى الغيرة حتى من أقرب الناس نسبا وأبعدهم شبهة . وهاك لسان حال المحب الغيور يخاطب حبيبته :

أغار عليك من نظرى ومنى
ومنك ومن خيـالك والزمان
ولو انى وضعتك فى عيونى
الى يوم القيـامة ما كفانى

أما عبد الرحمن فما لبث أن ابتسم لمريم وأمرها بالجلوس ، ثم ابتدرها بالسؤال عن ميمونة فقالت : « لم أشاهدها منذ مساء الأمس ، وقد قضيت كل ما مضى من هـذا النهار وأنا

أبحث عنها لأنها رفيقتى ومعزيتى على غياب والدتى »

فقال : « وهل عرفت سببا يدعو الى خروجها ؟ »

قالت : « لم أعرف شيئا من هذا القبيل ، ولكننى رأيت منها ما يدل على الاضطراب والقلق منذ أصيل الأمس ، فلم أعبأ بذلك ، ولا سألتها عن سببه .. »

قال : « هل رأيت أحدا جاءها بكتاب أو خطاب فى صباح الأمس ؟ » ..

قالت : « لم أشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها .. »

قال : « هل كان بينهم عدلان الأحول ؟ »

قالت : « نعم ... وكان قد مضى علىّ مدة لم أشاهده »

فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانىء نظرتين تفاهما بهما ، فتحققا أن عدلان ، بعد أن رمى حسانا بالنبال ، جاء الى ميمونة وحرضها على الذهاب الى أبيها خوفا من انكشاف أمرها

— ٦٩ —

هانىء ومريم

وكانت مريم تنظر الى هانىء وتتوسم فى وجهه خبرا ، وخاصة بعد تلك الأسئلة ، وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق هناك غير مريم والأميرين .. فنظرت مريم الى هانىء نظرة فيها غنى عن كل حديث ففهم انها تسأله عما يكتمانه . فالتفت الى

عبد الرحمن ، فرآه مستغرقا فى التفكير فقال له : « الأرجح ان تلك الخائنة علمت بافتضاح أمرها ففرّت الى أبيها ، ولكنها لن تنجو من حد هذا السيف باذن الله ... »

فبغتت مريم لما سمعته لأنه يناقض اعتقادها فى ميمونة وظهرت البغتة على وجهها بما تصاعد اليه من الدم ، وأبرقت عيناها والتفتت الى هانىء وسألته قائلة : « وما الذى حدث حتى استوجبت هذه المسكينة غضب الأمير ، وعهدى انها من أشد الناس غيرة وأصفاهم سريرة .. ؟ »

فالتفت هانىء الى عبد الرحمن وقال : « هل تأذن لى بذلك الكتاب .. ؟ »

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانىء فى طلب الكتاب لأنه لم يكن ينوى اطلاع مريم عليه خوفا من قلقها على والدتها ، ولم يبد استياءه مراعاة لاحساس هانىء ، ولكنه أنكر الكتاب وتظاهر انه لايعرف مكانه .. فازدادت مريم قلقا واضطرابا ، وسبق الى خاطرها ان لذلك التكتم سببا يسوءها ذكره ، ولم يخطر ببالها شىء غير والدتها ، فصاحت بلغتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها : « ما الذى تكتمانه عنى ..؟ هل أصاب والدتى شىء (شر) ؟.. أين هى ؟..» قالت ذلك وأجهشت بالبكاء

فأثر منظرها فى هانىء ، فقال : « أطمئنك يا مريم .. ان والدتك فى خير وأمان »

قالت : « وأين هى ..؟ »

قال : « هى فى هذا الدير » وأشار الى دير القديس مرتين

قالت : « ولماذا لم تأت الى هنا ، لعلها مريضة أو مسجونة أو ماذا .. ؟ »

فتظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفعه اليها وهو يقول : « هذا هو كتابها ، وفى قراءته جواب كاف .. »

فتناولته بلهفة ، فلم تستطع رؤية الأحرف مما غشى عينيها من دموع البغتة والخوف والأمل والفرح معا ، فمسحت عينيها بكمها وقرأت الكتاب حتى أتت على آخره ، ولما وصلت الى قولها : « وأوصيك بفلذة كبدى مريم » صاحت : « أماه » وقد خنقتها العبرات ، ثم أعادت النظر الى ما ذكرته عن ميمونة فبهتت وحسبت نفسها فى حلم ، ثم رفعت رأسها الى عبد الرحمن وقد تحول حنانها النسائى الى غضب وقالت : « قبح الله تلك الخائنة .. قد فهمت الآن سبب اختلائها بذلك البربرى الأحول فى مساء الأمس.. ولكنها ستذوق جزاء تلك الخيانة ان شاء الله» ثم سألته عمن حمل ذلك الكتاب لكى تقابله وتستزيده من أخبار والدتها . فقص عليها هانىء ما كان من أمره وانه مات ودفنوه ، فأسفت عليه كثيرا حتى بكت . ولولا انشغال خاطرها بخيانة ميمونة والشوق الى والدتها لندبته كثيرا ، لأنه رباها منذ طفولتها ، وكان ضنينا بها ، حريصا على راحتها وراحة والدتها ، ولكنها كانت فى قلق عظيم على والدتها ، وأصبحت لا تصبر عن

رؤيتها فنظرت الى عبد الرحمن بعينين يغشاهما الدمع ، وتوسلت اليه بصوت يمازجه ذل السؤال قائلة : « ألا يسمح لى الأمير بالمسير الى والدتى لأشاهدها وأقبل يدها ثم أعود ؟ »

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه الا الاجابة فقال : « لا أمنعك من الذهاب اليها ولكننى أحب أن أحافظ على وصيتها ، وقد رأيت انها ختمت هذا الكتاب بك .. »

فقالت : « لا بأس علىّ باذن الله ، والطريق سهل والمكان قريب .. وكأنى أرى الدير من هنا .. »

فقال هانىء : « لا نخاف عليك بأسا بعدما شاهدناه منك فى مضيق دردون ، ولكننى أرى أن أسير فى ركابك حتى تبلغى باب الدير وأعود » . قال ذلك بنغمة التصميم القاطع ، فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال : « اذا كان لابد من الذهاب فانهضا الآن حتى تصلا قبل الغروب .. هل يحتاج هانىء الى أن أستحثه لسرعة الرجوع ..؟ أما مريم فلا بأس من بقائها هناك ، بل ان الدير أكثر أمانا عليها .. »

ففرح هانىء بتلك المهمة فنهض وأمر بفرس لمريم ، فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانىء والتف بعباءته وأصلح عمامته وساقا الجوادين سوقا حثيثا ، وقطعا النهر الصغير على جسر مما نصبوه بالأمس ، وسارا نحو الشمال الشرقى يلتمسان دير مرتين .. فبعد أن ركضا جواديهما برهة أمسكاهما ومشيا متحاذيين وقد حلت لهما تلك الخلوة فأراد هانىء مداعبة

مريم ، فقال لها : « أتعلمين ما وراء هذه الأبنية ؟ »

قالت : « النهغ الكبيغ .. (النهر الكبير) و

قال : « وما اسمه .. ؟ »

قالت : « نهر لوار » بلفظ الراء غينا ، ولم تكد تنطق بهذين اللفظين حتى فطنت للموعد المضروب لاقترانهما هناك ، فخجلت وحوّلت وجهها الى عرض البر ، وأرادت تغيير الحديث فقالت : « وكأني أرى جند الدوق شارل آتيا نحونا »

فبغت هانيء وتفرس في الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال : « لاشك انك ترين معسكر الدوق شارل .. أما الغبار المتصاعد فوقه فليس نتيجة السير ، ولكنهم يلاعبون خيولهم على سبيل التمرين ... » قال ذلك وأخذ يفكر فيما يتوقعه من القتال الهائل في تلك الساحة ، ولكنه كان شديد العزم قوي القلب لأنه لم يصادف هزيمة في قتال بعد ، ولذلك فأول ما يسبق الى ذهنه عز الانتصار ..

– ٧٠ –

سالمة في الدير

وبينما هو يفكر في ذلك اذ سمع جرسا يقرع ، فأصاخ بسمعه فابتدرته مريم قائلة : « هذا جرس الدير لأننا على مقربة منه » وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتا اليها لرأيا شكلها

يتجسم ، وجرمها يتعاظم ، وحدتها تنفثىء حتى يخيل لهما اذا لمساها انها لا تلدغ .. ولكنهما كانا فى شغل عن ذلك بغبار رأوه يتصاعد فى بعض السهول من جهة الجنوب قرب معسكر أود كأن خيالة يسوقون أفراسهم ، فحملا ذلك على ماشاهداه من معسكر شارل . ووصلا فى الغروب تماما الى باب الدير فقرعه هانىء فأطل الراهب البواب ، فقالت له مريم بالافرنجية انها تسأل عن ضيفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب ملابس هانىء ، وخصوصا عمامته ، لأنه لم يكن رأى عربيا قط ، وان كان قد سمع بمجىء العرب للحرب .. فترجلت مريم وهمَّ هانىء بوداعها للرجوع ، وقلبه لايطاوعه على ذلك الفراق ، وكانت هى فى مثل حاله .. فلما أراد وداعها نظرت اليه نظرة نفذت الى قرارة قلبه .. فتحول عن جواده ، وهو يقول : « أرى ان أوصلك الى والدتك ، وأطمئن عليها وعليك ، ثم أعود » فاستحسنت رأيه ، وابتسمت ، ومشت .. فمشى هو بعد أن أشار الى أحد خدم الدير أن يمسك الجوادين ، فأخذهما البواب الى الاسطبل، ولما دخلا من الباب الثانى استقبلهما راهب آخر وسألهما عما يطلبانه فقالت مريم : « عندكم نزيلة اسمها سالمة ؟ »

فابتسم الراهب وقال : « نعم .. » وأشار اليهما فتبعاه حتى دخلا الدير وصعد بهما الى علية سالمة ، وكانت سالمة لا تزال بعد ارسال حسان منفردة فى تلك العلية ، تارة تطل منها الى النهر ، وطورا تجلس على الأرض تفكر فى مريم ، وقد ذاب

قلبها لفراقها ، وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط . ثم تنتقل بأفكارها الى ما تكتمه فى صدرها ولم يحن وقت كشفه ، وتخشى أن يطول وقته أو تحول الأقدار دون ذلك فتذهب مساعيها أدراج الرياح ، ونهضت فى صباح ذلك اليوم منقبضة النفس ، فنزلت الى الكنيسة لاستماع الصلاة ، وتخشعت فى صلاتها كثيرا ، ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فأحست كأنها فى سجن ، مع انها فى أحسن غرف الدير وأكثرها انطلاقا .. ولكن السجن سجن الارادة ، فقد يحبس الانسان نفسه بارادته أياما فى مكان مظلم وهو يعد نفسه مطلقا ، فاذا حكم عليه بالحبس يوما واحدا ولو فى أفخم القصور فانه يعد نفسه سجينا

ولما عادت من الصلاة وصعدت السلم ، حدثتها نفسها أن تطل على سهل تورس لعلها ترى رسولا قادما ، أو تتنسم ريح ابنتها حين ترى معسكر العرب عن بعد .. فمشت حتى أطلت من سطح الدير على ذلك السهل ، وعرفت مكان كل من العرب والافرنج فخفق قلبها لما تتوقعه من القتال هناك . ثم عادت الى عليتها ، وقد أخذت هواجسها تتزايد .. فلما كان الغروب أحست بزيادة الانقباض وشعرت بضيق وقنوط ــ وساعة الغروب أثقل ساعات اليوم على الانسان ، وهو حر طليق .. فكيف اذا كان سجينا ــ فهمت بالخروج للصلاة ، فسمعت وقع أقدام على السطح ، فخفق قلبها ووقفت لترى ماذا يكون ، فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها ، وأخيرا سمعت قرع الباب

وكأنهم قرعوا صـدرها . فنهضت وركبتاها ترتجفان وفتحت الباب ، فاستقبلها الراهب وأشار بيده الى رفيقيه . فلما رأت ابنتها صاحت : « مريم » وألقت بنفسها عليها وجعلت تقبلها وتتحسس جسمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، حتى كاد يغمى عليها ، ومريم تقبلها وتقبل يدها ودموعها تتساقط بهدوء ثم دخلتا العلية وهانىء لايزال بالباب فقالت مريم : « هذا هو الأمير هانىء .. جاء ليوصلنى ويراك ثم يعود »

فرحبت به وأثنت عليه ودعته للدخول فقال : « لابد لى من سرعة الرجوع لأننا فى حال يدعو الى التيقظ .. كيف أنت ؟ لقد وصلنا كتابك وشكرنا فضلك واهتمامك .. »

قالت : « وماذا فعلتم بتلك الخائنة ؟ »

قال : « لم نجدها فى المعسكر مع أنها كانت فيه الى الأمس .. يبدو أنها علمت بكتابك ففرت الى أبيها » ..

فضربت سالمة كفا بكف وصاحت : « نجت الملعونة .. ! الظاهر ان شيطانها الأحول أخبرها بخبرنا ، فأيقنت باكتشاف أمرها فهربت »

فقالت مريم : « قبح الله ذلك الاحول ، فانه السبب فى شرور كثيرة .. ولو علمت ما فعله هذا الشيطان لحزنت »

قالت سالمة : « وما الذى فعله ؟ »

قالت مريم : « انه رمى حسانا بالنبال ، وهو ذاهب من عندك ، فأصاب جنبه ، فقاوم ذلك المسكين آلامه وأسرع حتى

أدرك معسكر العرب وهو فى آخر رمق من الحياة ، فبلّغ الرسالة ومات .. »

فصاحت سالمة : « مات ؟ .. حسان مات ؟ .. »

قالت مريم : « نعم يا أماه .. مات أشرف ميتة .. مات شريفا أمينا صادقا وقد قاموا بواجب غسله ودفنه رحمه الله .. »

فأطرقت سالمة وسكتت ثم هزت رأسها وهى تقول بصوت خفيض : « مسكين حسان .. مات ولم يشاهد حفيده بعد أن علم ببقائه حيا ، ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الوقعة الهائلة .. »

— ٧١ —

دعوة خطرة

وكان هانىء قد دخل الغرفة وذهب الراهب فأتاهم بالشمع فأضاءوه وغرسوه فى مشمعة ناتئة من الحائط وعاد الراهب . وكانت مريم تفكر فى صلتها بهانىء لأنها أحبته ووالدتها لا تعلم . وقد أوصلها الى أمها وسيرجع قريبا ولا طاقة لها بفراقه ، وهى تريد أن تستطلع رأى والدتها بشأنه ، فاذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها . وأرادت من ناحية أخرى أن تشغلها عن حديث حسان ، فقالت : « ألا تعرفين الأمير هانئا يا أماه ؟ »

فابتسمت وقالت : « كيف لا أعرفه ؟.. أليس هو الذى أنقذنا من ذلك الأمير البربرى ؟ .. »

قالت : « بلى .. وهو أكبر أمراء جند العرب بعد الأمير عبد الرحمن . والأمير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لأنه أمير الفرسان ويده اليمنى فى تدبير الجيش »

فخجل هانىء من هذا الاطراء وأحب أن يعترض ليخفى خجله ، فلم تمهله سالمة فقالت : « لم يخف علىّ شىء من شأن هذا الأمير وقد صحبته فى مهمة الى اسقف بوردو .. ألا تذكرين ذلك ؟ » ..

فانشرح صدر مريم واطمأن بالها وهمت بالانتقال الى ما وراء ذلك فسمعت دبدبة وضوضاء فتوقفت ، وأنصتوا جميعا .. ثم سمع هانىء جواده يصهل صهيلا متواصلا كأنه يطلب النزال فوقف هانىء وهو يقول : « أرى جوادى يدعونى الى النزال وهو ينبهنى الى سرعة الرجوع .. »

وما أتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ، ثم فتح الباب ودخل الراهب رفيق حسان ، وكانت سالمة تحسب انه قد سافر معه .. فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس ، فاذا هو يهم بالكلام والبغتة ظاهرة فى وجهه وكأنه أراد أن يتكلم فارتج عليه فظنته أمسك حياء من الحاضرين، فقالت له بالافرنجية: «تفضل ياحضرة الأب ، أخبرنا بما عندك وليس هنا أحد غريب »

فقال ولسانه يتلجلج : « كلفنى رئيس هذا الدير أن أبلغك

أمرا يعز عليّ أنْ أنقله اليك ... »

فخفق قلب سالمة ومريم ، أما هانىء فلم يفهم شيئا لأنه لا يعرف الافرنجية ولكنه لاحظ من تغيير الوجوه ما أقلقه ، فقالت سالمة : « قل ياحضرة الأب ... »

قال : « ان الدوق أود بعث بكوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الى الدير ومعهم رسول يحمل كتابا الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه أن يبعث بك اليه . ولما يعلمه الرئيس من دالتى عليك فقد بعث اليّ وأطلعنى على ذلك الكتاب وتشاور معى فى شأنه ، فأشرت عليه أن يمتنع عن تسليمك. فأظهر انه يرغب فى ذلك من صميم فؤادهْ .. ولكنه يخشى العاقبة ، وهو لايدرى لمن تكون الغلبة فى الحرب القادمة ، وواجباته تقضى عليه أن يكون نصيرا للافرنج . ثم كلفنى أن أكون أنا برفقتك من قبله لأوصى الدوق أود برعايتك ، واذا شئت أخذنا من الرئيس كتاب توصية بشأنك أيضا »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلعثم ، والتأثر باد فى كل حركة من حركاته ، وكانت سالمة ومريم تصغيان وقد شخص بصرهما فى الراهب كأنهما أصيبتا بالجمود ، فلما فرغ من قوله وقف شعرهما وخصوصا مريم ، وكان هانىء ينظر اليهما ويقرأ تلك العواطف فى وجهيهما ، فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانى : « ما الخبر ؟ »

قالت مريم : « ان الدوق أود بعث الى رئيس هذا الدير

يطلب والدتى منه »

قال هانىء : « وماذا يريد منها ؟ »

قالت : « يطلبها لغرض لا نعلمه » ..

قال هانىء : « لا تذهب ... »

فقالت سالمة : « بل أرى أن أذهب لأنى لو أبيت الذهاب لأخذونى قهرا ... »

فصاح هانىء : « قهرا ؟ .. يأخذوك قهرا وهانىء معك ؟ .. ذلك لا يكون أبدا ... »

ووقف ويده على قبضة حسامه ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ..

ففرحت مريم بما أبداه هانىء من الحمية بشأن والدتها ، ولم تكن هى أقل حمية منه فقالت : « كيف نسمح يا أماه أن يأخذوك أسيرة ولو كانوا ألوفا .. اننا سندافع عنك الى الموت »

فقالت : « أعلم ذلك ولكن شروط الحرب تقضى علينا الا نعرض أمير فرسان العرب وعمدة أمرائهم لشرذمة من الافرنج فربما آصابه أحدهم بنبل ، كما أصابوا حسانا بالأمس ، فيذهب الأمير هانىء رخيصا ــ لا سمح الله ــ وهو عميد جند العرب وقائدهم وواسطة عقدهم فكأننا عرضنا الجند للخطر ... فاذا كنتما تحباننى فأطيعانى فيما أقول ولا تخافا علىَّ بأسا لأنى سأسير مكرمة ، وسيكون معى حضرة الراهب ، وسأحمل من رئيس الدير كتاب توصية أو نحوه بحيث لا أخشى ضررا . بل

أرجو أن أخدم العرب وأنا هناك خدمة لا أستطيعها وأنا معكم.. ومع ذلك فلا حيلة فى قضاء الله ... »

فقال هانيء : « انك تحاولين محالا.. هل أكون حاضرا وتساقين أنت أسيرة ؟.. لا يكون ذلك أبدا .. والله لأعملن السيف فى الافرنج ولو كانوا ألوفا ... »

فقطعت سالمة كلامه قائلة : « اذا فعلت غير ما أقوله فانك تكدرنى وأنا أعلم انك لاتريد ذلك .. ان الدوق أود يعرف عنى أكثر مما تعرف أنت أو تعرفه ابنتى هذه .. وهو لا يطلبنى اليه ليسوءنى ، ولو كان غرضه ذلك لفعله وأنا سجينة عنده الى الأمس . دعنا الآن من هذا البحث ، وأرغب اليك بشرف العرب وعز الاسلام أن تطيعنى فى ذلك ، وقد آن لى الأوان أن أطلعكما على شيء جديد حفظته سرا منذ أعوام ..» ثم التفتت الى الراهب وقالت : « قل لحضرة الرئيس انى أتأهب للخروج حسب أمره بعد ساعة أو ساعتين لغرض لى مع ابنتى هذه قبل سفرى »

فحنى الراهب رأسه وخرج ..

– ٧٢ –

سر جديد

وبعد خروجه نهضت سالمة وأصلحت رداءها كأنها تستعد للخروج ، وجعلت تخطر فى أرض الغرفة ذهابا وايابا ثم وقفت

الى النافذة وأطلت على النهر ، ولبثت صامتة ومريم وهانىء ينتظران ما تقول ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت ، ثم تحولت عن النافذة ، وأقبلت اليهما وقد تغيرت ملامحها وتقطبت أساريرها ، وظهر الاهتمام فى عينيها ، وذهب ما كان يبدو على محياها من الابتسام وقد تحول الى هيبة وغضب .. فلما رآها هانىء على تلك الحال تهيب والتفت الى مريم فرآها أكثر اهتماما منه ، ولكنهما ألجما عن الكلام وأصابهما ذهول . وأما سالمة فنظرت الى مريم وخاطبتها قائلة : « أتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ » ..

فقالت : « لا يا أماه » وتوردت وجنتاها من الخجل ، وبغتت لذلك السؤال على غير انتظار ، ولم يكن هانىء أقل استغرابا منها ولكنه ظل صامتا ليرى ما يكون

قالت سالمة : « أتعرفين من هى والدتك ؟ »

ثم التفتت سالمة الى هانىء وقالت : « اعلم يابنى انى اؤتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة ، على ألا أبوح به الا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ، ولكن قضت الأحوال أن أبوح ببعضه قبل ذلك الحين لأمير هو على ما أعلم يتلو القائد الأكبر ، وللضرورة أحكام .. لقد ضاق صدرى عن كتمان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد استخرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر أن أكشفه فى هذه الساعة لابنتى ولك ياهانىء ، على شرط أن تحتفظا به حتى تبلغاه الى الأمير عبد الرحمن بعد هذه

الوقعة ، وليس قبلها .. فاصغيا الىّ ... »

وكانت تتكلم ، وهانىء شاخص ببصره ، ومريم يكاد الدم يجمد فى عروقها لفرط تأثرها من منظر أمها ، وما شاهدته فى وجهها من المعانى التى لم تلمسها من قبل ..

فجلست سالمة وأصلحت ثوبها وأخذت تقص حديثها فقالت وهى توجه خطابها لمريم : « أنت تعلمين يا مريم ان والدتك سالمة ولكنك لاتعرفين مَن سالمة هذه .. وقد سألتك عن والدك فقلت انك لاتعرفينه لأنه توفى وأنت طفلة ولم أذكره لك قط ، ولم يكن أحد يعرف نسبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد قتل ، ولو أصبت أنا بنبلة لذهب هذا السر أدراج الرياح .. ولذلك عجلت فى كشفه لصاحبه . فاعلمى يا مريم ان أمك التى تسمينها سالمة هى اجيلا زوجة رودريك ملك الأسبان الذى قتله العرب فى وقعة فحص شريش منذ بضع وعشرين سنة عندما جاء طارق لفتحها ..

« وبعد أن قتل رودريك المسكين جاء موسى بن نصير فأتم الفتح حتى بلغ طليطلة ، عاصمة اسبانيا فى ذلك الحين ، وكنت أنا هناك فانطويت على نفسى بعد وفاة زوجى وأقمت مكرمة وعشت فى هناء ورغد كما كنت فى أيامه ، وكانوا يسموننى أم عاصم ولم يمسنى أحد بسوء ، لأن موسى — رحمه الله — كان عادلا رفيقا يعلم كيف يفتح البلاد .. ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين اذ وشى به الواشون ، فاستقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان

تصب عيني موسى بعد أن فتح الأندلس وجمع غنائمها أن يواصل الفتح فيما وراءها حتى يبلغ القسطنطينية ويتقدم منها الى الشام، ويفتح ما فى طريقه من البلاد (١) حتى يصير البحر الأبيض مخاطا بالمسلمين من كل جهة ، ولو فعل ذلك يومئذ لكان هينا على المسلمين لأن البلاد كانت ضعيفة مفككة والحكام فى انقسام ..

« فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى (قالت ذلك وتنهدت) وكان عاقلا حكيما عادلا ، وقد أطلعه أبوه على ما كان فى عزمه من فتح هذه البلاد التى يسميها العرب الأرض الكبيرة . وكنت أنا لا أزال فى طليطلة فلما تولى عبد العزيز ورآنى ورأيته أحبنى ،وأحببته فطلب الزواج منى ، ولم أكن أطمع فى رجل أرفع منه مقاما . فقبلت على أن أبقى على النصرانية ، فرضى ولكنه علمنى الاسلام فوجدته كثير الشبه بمذهب أجدادنا القوط (الأيوسية) . ثم انتقل بى الى اشبيلية فأقمنا هناك بضع سنوات كان فى أثنائها مثال العقل والحزم ، وقد أسر الى أمورا كثيرة كان عازما على القيام بها خدمة للعرب والمسلمين ، أهمها فتح هذه الأرض الكبيرة (أوربا) وقد كان ذلك هينا كما قدمت ، وخصوصا لعبد العزيز، لأنه — رحمه الله — كان يعامل أهل البلاد بالعدل والحسنى والرفق ، فأصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه . وشاع ذلك عنه الى أقصى بلاد النصرانية ، ولو طال مقامه لفتح هذه البلاد فى غير

(١) نفح الطيب ١١٠ — الجزء الاول

عناء لأن أهلها كانوا ينتظرون من يمكنهم من حقوقهم وحريتهم ، ولا عبرة بمذهبه عندهم .. وكثيرا ما كان عبد العزيز يحدثنى عن رغبته فى ذلك الفتح ، وأنا أحثه على اكرام الأهالى والاحسان اليهم وهو يطيعنى لما يترتب على ذلك الاحسان من الكسب العظيم . وقد بذل جهده من الجهة الأخرى فى جمع كلمة المسلمين من العرب والبربر وغيرهم ، لأنه بغير هذا الاتحاد لايستطيع عملا

« وانه لفى هذه الآمال اذ وشى به الحساد كما وشوا بأبيه واتهموه بأنه طامع فى الملك لنفسه ، وقد بنوا أدلتهم على محاسنته أهل البلاد ، وقالوا انى سيطرت على عقله حتى حملته على أن يرغم أصحابه ورعيته على السجود له اذا دخلوا عليه ، كما كان يفعل زوجى رودريك على زعمهم . ومن مفترياتهم انى جعلته يفتح بابا قصيرا فى مجلسه الذى يجلس فيه حتى اذا دخل أحدهم منه طأطأ رأسه كالراكع (١) . والله يعلم انهم افتروا علىّ ذلك الافتراء ولم يفقهوا سر الأمر . ولما نفذت الوشاية به عند الخليفة لم يوفدوه اليه كما فعلوا بأبيه ولكنهم دسوا له من قتله وهو فى المسجد (٢) وا لهفى عليه »

وتوقفت عن الكلام برهة ، ثم شرقت بريقها .. وهانىء ومريم كأنهما فى حلم .. لايجرؤ أحدهما على التلفظ لئلا يقطع كلامها . فقالت وهى تنظر الى مريم وتحاول الابتسام : « وكنت قد

(١) ابن الأثير ــ الجزء الخامس
(٢) جاء فى مكان آخر من هذه الرواية انهم قتلوه فى طليطلة والصواب فى اشبيليه

ولدت منه وقد بلغت السنة الثالثة ، وكان يحبك حبا لا مزيد عليه خلافا لمن ولد له من النساء الأخريات ، وكان لا يهنأ له عيش الا اذا قبّلك وضمك الى صدره صباحا ومساء ، واذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلاعبك ويبذل جهده فيما يرضيك حتى نسينى من أجلك . فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق من وقوع القضاء دعانى ليلة مقتله قبل نزوله الى المسجد ، فأتيته وأنت على ذراعى فتناولك وجعلك فى حجره وطفق يقبّلك ويبكى بكاء مرا وهو يشهق شهيق الطفل ، فانخرطت فى البكاء معه لأنى أحببته حبا كثيرا لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن قصده ، وبعد أن بكى وودعك نادى حسانا وأوصاه بى وبك ثم التفت الىّ وقال : « لقد أبى هؤلاء القوم الا أن يضيعوا تعبى ويفسدوا ما هيأته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به . أما موتى فبقضاء الله وقدره فلا اعتراض لى عليه ، ولكننى أشفق على ما أضاعوه وسيضيعونه بقتلى مما دبرته لهم ، لأنى لا أظنهم سيوفقون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيرتى ويهيىء له مثل ما هيأت من الظروف المساعدة على الفتح .. وهى ارضاء الأهالى وجمع كلمة المسلمين وتوفر الأسباب الأخرى المؤدية الى ذلك » ثم أشار اليك وقال : « لو كانت هذه الحبيبة غلاما لأوصيتك بتربيته لهذه الغاية . سأموت فى الغد أسفا على الفرصة التى أضاعوها بجهالتهم ، ولكننى أوصيك أن تربى ابنتنا هذه تربية عربية ، وتعلمها ركوب الخيل ، ولا تخبريها من هو أبوها ، ولا

تجعلى عربيا يعرف سرها الا من توسمت فيه الغرض الذى ذكرته وتوفرت فيه الصفات المساعدة على تحقيقه .. فاذا رأيت قائدا عربيا نهض للفتح ، وقد أدرك العوامل المساعدة على ذلك ، فان هذه الفتاة تكون له زوجة أو ابنة كما يشاء »

« ولما قال ذلك أخرج من جيبه هذه المحفظة (وأخرجت هى المحفظة من جيبها) ودفعها الىَّ وهو يقول : « واذا وفّق المسلمون الى ذلك الرجل ، فانه فاتح هذه البلاد لا محالة ، فاذا تمكن من الفتح حتى بلغ نهر لوار فقصّى عليه خبرى وأطلعيه على وصيتى وسلّمى هذه الابنة له ومعها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين » فأخذت المحفظة وحفظتها معى من ذلك الحين ، ولم تفارقنى يوما واحدا ولا ساعة واحدة وأنا لا أعلم ما فيها . فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة ــ سامحهم الله ــ لم يبق لى عيش فى الأندلس ، فغادرتها ومعى حسان وعنده كل أسرارى ، وقد كان خادم الأمير مخلصا له رحمه الله

« وقد تولى الأندلس بعــد عبد العزيز عدة أمراء وأكثرهم تحفزوا للفتح ، ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وتهورهم وطمعهم . حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما أتاه قبل النهوض للفتح من طوافه بأسبانيا وتعهده حكامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ، ومجاسنة أهلها وسعيه فى جمع كلمة الجند من العرب والموالى ، قلت : هذا هو الرجل المنتظر .. وصبرت حتى أتى الى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفينه » ثم وجهت كلامها الى هانىء

وقالت : « فالذى أراه ان الأمير عبد الرحمن هو الرجل الذى عناه الأمير عبد العزيز .. فمريم له وهذه المحفظة (ودفعتها الى مريم) معها أيضا ..

« ولكن بالطبع لايكون له شيء من ذلك الا بعد قطع النهر» فتناولت مريم المحفظة وخبأتها بين ثيابها

— ٧٣ —

الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب من جبينها ويتسرب على خديها حتى يقطر على ثيـابها ، وقد احمرت عينـاها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر . أما مريم فإنها نهضت مبهوتة وقبّلت والدتها وهى تقول : « أنت والدتى .. الحمد لله . لقد أقلقت بالى بسؤالك اذا كنت أعرف والدتى ، فخشيت أن أكون ابنة سواك .. فاذن أنا عربية ووالدى أمير عربى وأمى ملكة الأسبان ... »

فقطع هانيء آلامها ، وقد غلب عليه الحب وسرّه تفويض أمر مريم الى عبد الرحمن لسهولة الظفر بها على يده ، وقال : « لا شك انك عربية الأصل عريقة فى الحسب والنسب » والتفت الى سالمة وقال لها : « ان حديثك ياسيدتى قد نقش على صفحات قلبى ، وأراك فقت العرب بحفظ الوداد ووفاء العهود ، وتفضلت عليهم بالحب العميق لزوجك ، ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك ..

فبورك فيك . والله لو كان فى رجالنا عشرة مثلك أو مثل ابنتك هذه لفتحنا العالم لامحالة ، ولكننا محاطون بجماعة لايجمعهم الا الجشع ، وقلّ فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر ، وانما يفهمون الغنائم والسبايا . ونحن فى كل يوم نقاسى العذاب فى سبيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم .. ولو كان أميرنا غير عبد الرحمن ما استطعنا الوصول الى هنا ، فنطلب اليه تعالى أن يأخذ بناصرنا حتى نقطع هذا النهر ، واذا قطعناه هان علينا كل عسير .. »
والتفت الى مريم وضحك ففهمت انه يشير الى زواجهما ، ولكن قلقها لفراق والدتها شغلها عن الخجل

وكانت سالمة فى أثناء ذلك مشتغلة بمسح العرق عن وجهها وكأنها أحست بحمل أزيح عن صدرها بعد أن كشفت ذلك السر ، لكنها انتبهت للمحفظة فقالت لمريم : « أوصيك بتلك المحفظه ، اعتنى بها ولا تسلميها الا لعبد الرحمن الغافقى بعد عبور هذا النهر »

فقالت مريم : « والآن لا بد من ذهابك الى الدوق أود ؟ »

قالت : « نعم . ولا بأس علىّ منه .. اطمئنى واعلمى أنك فى كفالة الأمير عبد الرحمن .. فقد أصيته بذلك من قبل »

فتنسمت من هذه التوصية ان والدتها لا ترجو اللقاء بعد هذا الفراق ، وأحست سالمة انها تريد مراجعتها فنهضت وهى تقول : « لقد آن لى اجابة طلب الدوق » قالت ذلك وضمت مريم الى صدرها وأخذت فى تقبيلها تكرارا ، وكلاهما تبكى وهما

متعانقتان متماسكتان كأنهما لا تريدان الفراق ، فأثر منظرهما فى هانىء حتى كاد يبكى ، ثم خاف عليهما فتقدم وفرق بينهما فرأى عينى سالمة حمراوين من شدة البكاء ، وهى مع ذلك تنظر الى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها : « قلت ان هانئا لا يجب التفريط فيه لحاجة الجند اليه .. وأنا ما الفائدة منى ؟.. دعينى أسير حيثما تسيرين »

فقطع هانىء كلامها قائلا : « ان الجند لاينفع شيئا بدونك »

ففهمت ان هانئا لايريد فراقها وتذكرت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها ، وسمعته سالمة يقول ذلك فأدركت أنه يحبها ولكنها كانت تثق فى شهامته وتعلم منزلته عند عبد الرحمن ، وازدادت ثقة به حينما رأت عبد الرحمن قد أذن له أن يرافق مريم الى هذا الدير

ولما استعدت للخروج قالت لهانىء : « اذهب أيها الأمير بمريم قبل ذهابى .. »

قال : « العفو أيتها الملكة الجليلة .. انى لا أخطو خطوة قبل أن أراك ذاهبة بإكرام ورعاية ، والا فانهم لن يأخذوك وفىَّ عرق ينبض .. »

قالت : « ثق بأنى سأذهب مكرمة ، وسأقيم هناك لا أقول مكرمة ولكنى لا أخاف بأسا لأن أود يعرف من أنا وأرجو أن يكون بقائى فى معسكر أود هذه المرة مثمرا مثل بقائى المرة الماضية ؛ فقد كشفت فيه سرا أبعد عنا شرا عظيما »

قال : « ربما كان ذلك ، ولكننى أستحى من نفسى أن أخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك .. فاذا كنت لا تسمحين أن أمنعهم من أخذك أفلا تأذنين لى أن أراك ذاهبة معهم ؟ »

قالت مريم : « ان هانئا مصيب فى رأيه »

قالت سالمة : « فلأذهب اذن لرئيس الدير لأودعه ، فانتظرانى فى الحديقة .. » قالت ذلك وخرجت فتبعاها فتحولت هى الى غرفة الرئيس ، ونزلا هما الى الحديقة وكانت مضيئة بالاقباس . وطلب هانىء من البواب أن يحضر الجوادين ، فأمر فجىء بهما فدفع هانىء اليه صرة فيها دنانير فاستأنس البواب بذلك الكرم وأمر الخادم أن يحسن العنـاية بالجوادين ، فوقف بهما وجواد هانىء يتجلى كالعروس بما عليه من العدة المتقنة وما فى عنقه من القلائد والعقود ، وما على عدته من الأحجار الكريمة ، وخصوصا اللؤلؤة الكبيرة المصاغة على شكل النجمة فوق جبهته ، ناهيك بلجامه المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة ، وهو أدهم شديد السواد فأصبح كأنه ليل تتلألأ فيه النجوم ، وكان هانىء واقفا الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة أخرى . ولم يبق أحد من أهل الدير فى تلك الحديقة أو بقرب الباب الا وقد جاء ينظر الى الأدهم والى صاحبه ، وكلاهما غريب فى نظرهم .. وكأن الأدهم أدرك اعجاب الناس فازداد دلالا وأخذ يضرب الأرض بيمناه ويصهل ويشخر ، كأنه يطلب النزال أو كأنهم فهم من صهيل الخيول حول سور الدير انهم أعداء صاحبه فأخذ يهددهم به .

أما مريم فقد كادت تنسى فراق والدتها قبـل ذهابها لانشغال خاطرها بحب هانىء وخاصة بعد هذه السفرة ، وقد تحققت من انها عربية الأب ملوكية الحسب فتذكرت المحفظة فافتقدتها .. وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ، ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدى سالمة ورفيقها الراهب ، وساروا بهما الى باب السور فمروا بهانىء ومريم فحيتهما سالمة ، ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد أعدوا لها جوادا ركبته وركب الراهب جوادا آخر ، ونفخ فى البوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبها وبعضهم الى ورائها برعاية واكرام ، وهانىء ومريم ينظران . وأحست مريم فى تلك اللحظة أن أمها اقتلعت من قلبها ، فغلب عليها البكاء ولكنها كتمت بكاءها ..

— ٧٤ —

ضوء القمر

أما هانىء فبعد أن سار الركب بسالمة ركب جواده ، وأشار الى مريم فركبت جوادها فخرجا وتحولا نحو المعسكر، فلما بعدا عن الدير أحسا بالانفراد . وكان الليل مقمرا وقد صفا الجو وهدأت الحياة وسكن الهواء كأن الطبيعة قد شاركتهما فى التهيب

والاعتبـار . فلم يسمعا الا وقع حوافر الجوادين على التراب ، وكأن الجوادين قد أحسا بما يتقد على ظهريهما من لواعج الغرام فاعتبرا وطأطآ ومشيا مشية الاحترام ــ والحب سلطان تطأطيء له الرءوس ــ وظل الحبيبان مدة صامتين تهيبا من منظر الطبيعة وتفكيرا فيما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الأمور الهامة ، وقد سرّهما الاطـلاع على ذلك السر فأصبح ارتباطهما بعده من الأمور الهامة ، وقد علما انهما أقرب نسبا وأوثق عهدا ، وأحست مريم انها مطالبة بنصرة العرب عملا بوصية والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ، ولم تكد تظهر لهم عن بُعد لتغلب ضوء القمر .. فأسف هانيء لوصوله الى المعسكر قبل أن يخاطب مريم فى شيء بعد ما عرفه من أمرها ، فأمسك شكيمة جواده ليسير الهوينى فاقتدت به مريم وهى تتوقع أن تسمع منه شيئا فاذا هو يقول على سبيل المداعبة : « أراك صامتة يا مريم .. ألعل ما علمته من شرف أصلك خفف شيئا من حبك ؟»

فأوقعت جوادها بغتة ونظرت اليه كأنها تستطلع قصده من تلك العبارة ، فلما رأته يبتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت : « اذا علمت بشرف أصلى فلا فضـل لى فى شرف ورثته من الأجداد ، وانما الشريف من نال الشرف بحد حسامه كما ناله الأمير هانيء » . فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك الجواد عن المسير والجواد لا يطيعه : « فأنت اذن صاحبة الشرف طارفا وتليدا فقـد رأيت منك فى وقعة دردون ما تعجز عنه أعاظم

الفرسان ، فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء »
فقطعت كلامه قائلة : « انى لم أفعل شيئا يا هانیء ، واذا ساعدتنى الأقدار سأتفانى فى تحقيق وصية أبى ولو لم أكن رجلا كما قال ، فان الشجاعة ليست وقفا على الذكور دون الاناث .. آه يا هانیء .. » وسكتت كأنها تكتم أمرا

فنظر اليها هانیء والقمر تجاه وجهها ، وقد وقعت أشعته على محياها وحوله النقاب الأسود ، ولو رآها شاعر عربى لقال : تقابل القمران . والحقيقة ان القمر ليس له ما فى وجوه الملاح من المعانى الجاذبة والخالبة . وبخاصة فتاتنا العربية سلالة الملكيين ، فقد كان فى وجهها فضلا عن الجمال ملامح الهيبة والذكاء ، وجاءهما الحب فزادهما رونقا وزاد المحب افتتانا . فنظر هانیء الى وجهها وقد أطرقت ، كأنها تكتم أمرا يمنعها الحياء من افشائه ، وتشاغلت باصلاح الشعر على عنق جوادها . والجواد مستأنس بمرور أناملها على عنقه . وأراد هانیء أن يسألها عما تكتمه فاذا هو بفارس قادم عليهما من جهة دير مرتين ينهب الأرض نهبا ، فأمسك هانیء جواده وتفرس فى القادم فما لبث أن عرف من زيّه أنه أفرنجى ، ورأى معه علما أبيض فتحقق انه رسول من شارل . ولم يكن هانیء يعرف الافرنجية ، فلما دنا الفارس منهما أمسك شكيمة جواده ومشى الهوينى فخاطبته مريم بالافرنجية قائلة : « من الرجل ؟ »

فقال : « انى رسول من الدوق شارل الى الأمير عبد الرحمن

فأين هى خيمته ؟ »

فأفهمت هانئا ما قاله فقال : « انها رسالة ذات بال والأحسن أن نسير به لنرى ما سيكون »

فقالت مريم للرسول : « نحن ذاهبان اليه .. فتعال فى أثرنا » ومشيا وقد انصرف خاطرهما الى ما يهدد هذا الجند من الأمر العظيم ، وتذكرت مريم حسانا لأنها كثيرا ما كانت تراه قادما بمثل هذه المهمة ، فما تمالكت أن قالت : « مسكين ياحسان ..» وكان هانىء كله آذان لسماع أية كلمة تخرج من فم مريم ، فلما سمعها تذكر حسانا تذكر عبارة قالتها سالمة فى ذلك النهار عندما سمعت بمقتل حسان ، فقال هانىء : « سمعت والدتك تقول لما علمت بمقتل حسان انه مات ولم ير حفيده .. فمن هو حفيده ؟ »

قالت : « علمت من بعض ما كان يدور قديما بين حسان ووالدتى انه كان له ابن سار فى حرب لا أدرى ما هى ، وكان لابنه غلام فقده فى تلك الحرب ضياعا ــ وهو حفيده ــ وكان حسان كثيرا ما يتحسر لضياع ذلك الغلام ولأنه لايعرف مقره . فلما قالت والدتى تلك العبارة ظلت فى خاطرى وسألتها تفسيرها بعدئذ ، فقالت انها عثرت على الغلام المذكور فى معسكر أود وقد صار شابا والافرنج يحسبونه منهم ويسمونه رودريك ، وانها تركته فى معسكر أود عند فرارها ولم تعلم بمقره » . وكان هانىء قد أراد مباسطتها للتلذذ بألفاظها ولثغتها ، ولم يكن يهمه أمر حسان كثيرا .. لكنه عندما سمع حكايته أسف لفقده ..

فلما اقتربوا من المعسكر ، أمسك هانيء شكيمة جواده ونظر الى مريم ، فأدركت انه يريد أن تنصرف الى الأخبية حيث تقيم النساء فقالت : « هل أذهب الى الخباء ؟ »

قال : « نعم يا حبيبتى لتكونى هناك فى مأمن حتى يقضى لنا الله بالنصر ونذهب معا الى نهر لوار ، وأرجو أن يكون ذلك قريبا .. »

قالت : « أما اذا خيرتنى فانى أفضل البقاء هنا لأمر أرانى مسئولة عنه مثل مسئوليتك ، أو مسئولية الأمير الكبير ، ولكن الطاعة واجبة .. فالآن لا ينبغى أن ننسى السر الذى عهد الينا بحفظه ولابد من كتمانه الى حينه » قالت ذلك وافتقدت المحفظة فوجدتها ...

فقال هانيء : « هل أرسل معك بعض الحراس ، لا أقول لحراستك لأنك فى غنى عن ذلك وانما أرسلهم لخدمتك ..؟ »

فقطعت كلامه قائلة : « لا حاجة لى بالخدم يا هانيء ، وأنا سائرة فى ظلك ، وأنت معى أينما توجهت » . قالت ذلك وأومأت برأسها للوداع ، وأدارت شكيمة الجواد وانصرفت نحو الأخبية. فلما توارت عنه عاد الى الفارس وسارا معا حتى دخلا المعسكر ولم يعترضهما الحرس لأنهم عرفوا الأمير هانئا من أدهمه .. حتى اذا وصلا فسطاط الأمير ترجّل هانيء وهو يستفسر من الحاجب : « هل عند الأمير أحد ؟.. » فقال : « كان الأمراء عنده منذ هنيهة وانصرفوا »

– ٧٥ –

رسالة من شارل

فدخل هانىء وأشار الى الرسول بالبقاء خارجا ، وكان عبد الرحمن جالسا وقد سمع صوت هانىء قبل دخوله ، فصاح فيه صيحة الوالد بولده : « ما الذى أخَّرك يا هانىء ؟.. لقد شغلت بالنا .. »

فقصَّ عليــه ما حدث بعــد وصولهما الى الدير ، وكيف بعث أود جندا أخذوا سالمة اليه ، وكيف أراد انقاذها وهى لم ترض . ولكنه لم يذكر شيئا عن السر ، وأخبره ان مريم رجعت معه وقد توجهت الى الأخبية الى أن قال : « وقد أتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج أظنه يحمل اليك كتابا وهو بالباب الآن .. هل يدخل ؟ »

فصفق عبد الرحمن فدخل أحد الحجاب من غلمانه فقال له : « ادع لنا أحد المترجمين فاذا جاء فادخله مع الرسول » . فخرج الغلام وظل عبد الرحمن صامتا كأنه بُغت لخبر جديد ، ولم يكن هناك شىء جديد ولكنه تنسم رائحة القتال وتمثل له عظم الأمر الذى هو قادم عليه .. وأدرك هانىء اهتمامه ، فتهيَّب وظل ساكتا حتى عاد الغلام ومعه الترجمان وهو من يهود اشــبيلية وكان يعرف عدة لغات ، وللمسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم فى سائر

يهود الأندلس ، لأنهم كانوا عونا كبيرا لهم فى فتح تلك البلاد . ثم دخل الرسول وتأدب فى موقفه فسأله عبد الرحمن بواسطة الترجمان عن غرضه فقال : « انه قادم برسالة من الدوق شارل صاحب أوستراسيا » . فقال عبد الرحمن : « وأين الرسالة ؟ »

فمد الرسول يده الى شبه خرج معلق تحت ابطه وأخرج منه لوحا ملفوفا بمنديل من الحرير الأحمر ، وقد شدَّ حول المنديل شريط من الحرير الأزرق . فتناول عبد الرحمن الرسالة وأشار الى الرسول فخرج . ثم حل الشريط وفتح المنديل وأخرج ما فيه وهو عبارة عن لوح من الخشب الرقيق مكسو بالشمع ، وقد كتب عليه حفرا فى ذلك الشمع على عادتهم فى مكاتبات تلك الأيام فى أوربا .. فلما ظهر اللوح ، علم عبد الرحمن — قبل أن يقرأها — انها رسالة افرنجية لعلمه ان العرب يكتبون على الجلد أو القرطاس أو النسيج .. فدفع اللوح الى الترجمان فقرأه ، وهاك ترجمته :

« بسم الآب والابن والروح القدس

« من الدوق شارل قائد جند الافرنج وصاحب أوستراسيا الى الأمير عبد الرحمن قائد جند العرب .. أما بعد ، فان أخى الدوق أود صاحب اكيتانيا أخبرنى بما تعمدتموه من الايغال فى بلاده لغير سبب يدعو الى الحرب بيننا وبينكم ، فأنتم انما تطلبون الفتح التماسا للكسب ، وقد أطمعكم فى ذلك ما رأيتموه من ضعف الذين حاربتم من جند هذه البلاد الى اليوم . وقد بلغنى

ما أنت عليه من الشجاعة والتعقل وعلو الهمة فرأيت أن أنصحك لترجع عن قصدك بدون سفك الدماء . ولا أكلفك تسليما بل أطلب اليك الانسحاب من هذه البلاد بما تحمله من الغنائم الى حدود اسبانيا على الأقل اذ لا قبل لكم بالوقوف أمامنا . هذه نصيحتى لكم واذا لم تقبلوها فموعدنا فى النزال قريب .. والسلام » ..

فلما فهم عبد الرحمن فحوى الكتاب بما فيه من التهديد ظهر الغضب فى وجهه لكنه أمسك نفسه ، ونظر الى هانىء كأنه يستشيره ، فقال هانىء : « يظهر ان الرجل مغرور بنفسه فأرى أن يكون جوابنا السيف »

فتبسم عبد الرحمن وصفق فجاء الغلام فقال له : « ادع الأمراء للمفاوضة » فأدرك هانىء انه لا يقضى أمرا الا بالشورى خوفا من العتاب أو الفشل . وبعد ساعة جاء الأمراء فتلى الكتاب عليهم ، ففوضوا عبد الرحمن أن يجيب عليه .. فأشار الى الترجمان أن يكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الرحمن الغافقى قائد جند المسلمين فى اكيتانيا الى الدوق قارله قائد جند الافرنج . أما بعد ، فقد قرأت كتابك وساءنى اغترارك بنفسك مع ما بلغنى من علو همتك وبسالتك . أيها الدوق ، اننا لم نجرد هذا الجند لفتح اكيتانيا وحدها ولكننا نهضنا لفتح هذه الأرض الكبيرة .. ولو لم تأت أنت للقائنا

هنا لالتقينا فى بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينيــة حتى يدين لنا العالم كله كما وعدنا نبينا . فننصح لك أن تعتبر بما أصــاب أخاك صاحب اكيتانيا والا فلا تلومن الا نفســك .. والسلام » ..

ولف الكتاب وختمه وأعاده الى الرســول فحمله وعاد . وانصرف الأمراء الا هانئا فظل عند عبد الرحمن وقد انتصف الليل ، فقضيا ساعة فى المداولة ثم انصرفا الى النوم

وقضيا اليوم التالى فى التأهب وتدبير الشئون . وكانا فى أصيل اليــوم الثالث يطوفان بفرسيهما جناح الجند الأيسر اذ جاءهما أحد الطلائع يقول انه شاهد غبارا يتصاعد فى عرض الأفق بجوار دير القديس مرتين ، فأدركا أن شــارل لما وصله الجواب زحف بجنده للقتال . فصعدا الى أكمة أطلا منهــا فرأيا غبارا يتصــاعد أيضا من جهة الجنوب حيث معسكر أود ، فعلما أن الجيشين متحدان عليهم ، فقال عبد الرحمن : « لقد آن وقت العمل ياهانىء وهذه جنود الافرنج قادمة ، فينبغى لنا أن نتيقظ ونتأهب لئلا يهاجموننا على غرة ، فامض الى فرسانك واجعلهم على أهبة النهوض وأنا ماض الى تنبيه سائر الأمراء » قال ذلك وتحول ، فمضى هانىء فى أثره ونفسه تشتاق الى النزال

على ان الجيشين لم يواصلا الزحف على العرب ، ولكنهما عسكرا تجاه معسكرهم وما بينهما وبينه الا ســاحة القتال . فلما رأى عبد الرحمن نزول الافرنج علم انهم لاينوون الهجوم

فى ذلك اليوم فبعث الى هانىء سرا ، وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين الى أكمة قريبة كان عبد الرحمن قد عاينها بنفسه فى الأمس ، فصعدا اليها ونظرا الى ما بين أيديهما ، وقد طلع القمر وأرسل أشعته فى الفضاء فوق ذلك السهل ، فكشفت عن معسكرين : معسكر شارل فى الشرق ، ومعسكر أود نحو الجنوب ، تجاه معسكر العرب . ونظر عبد الرحمن الى مضارب ذينك الجيشين وأمعن فى النظر ليقدر عددهم فوجدهم كثيرين يزيدون على جند المسلمين ، وود لو انه يلتقى بمن ينبئه عن قوة الجيشين ومعداتهما وسائر أحوالهما

وكان يفكر فى ذلك ويمشط لحيته بأنامله وهانىء واقف بجانبه يفكر فى مثل ذلك الأمر ، وقد تبادر الى ذهنه أن حسانا لو كان حيا لكان أفضل من يقوم بالاستطلاع ، لأنه يعرف لغة البلاد وعادات أهلها وهو حسن الأسلوب ذكى مخلص . فأراد أن يخاطب عبد الرحمن فى هذا الشأن على سبيل فتح الحديث فرآه يتفرس فى عرض الأفق كأنه يرى شيئا جديدا ، فالتفت هو الى هناك فرأى شبحا كأنه رجل يعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه ملابس الافرنج ، ولكنه لا يحمل راية ولا يبدو من مظهره انه رسول ، فقال هانىء : « ما رأيك فى هـذا القادم أيها الأمير ؟ »

قال : « لا أظنه رسولا .. فربما كان جاسوسا أو صديقا »

وما أتم كلامه حتى أصبح الرجل على بضعة عشر مترا

منهما فتباطأ فى مشيته حتى اقترب وهما لايكلمانه ، فلما دنا منهما قال بلفظ عربى مكسر : « أين الأمير عبد الرحمن ؟ »

فقال له هانىء : « وما الذى تريده منه ؟ »

فأومأ بأصبعه الى لسانه مع اشارة النفى ؛ أى انه لايعرف العربية ، ثم أومأ انه قادم من معسكر أود لأمر خاص بالأمير .

– ٧٦ –

معسكر شارل

فالتفت عبد الرحمن الى هانىء وقال : « لو قلنا له انى الأمير عبد الرحمن لا يصدقنا ، فالأفضل أن ندله على خيمتى ثم ندخلها من باب آخر ونوهمه اننا كنا هناك » فأشار هانىء بيده الى فسطاط الأمير وأمامه النار ومشى وتبعه الرجل . ومضى عبد الرحمن من جهة أخرى حتى دخل خيمته من باب سرى ثم دخل هانىء ، وبعد قليل جاءه الحاجب يقول : « ان شابا افرنجيا بالباب » فأمره عبد الرحمن بادخاله فأدخله ، وعاد لاستقدام الترجمان وخيمته بقرب خيمة الأمير . فلما دخل الشاب نظر اليه عبد الرحمن فاذا هو فى مقتبل العمر عليه قيافة الافرنج وملامح العرب ، أسمر البشرة ، خفيف اللحية ، صغير العارضين لحداثته . فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن أن يسأله عن غرضه ، فسأله فقال الشاب : « أنا لا أخاطب أحدا

غير الأمير عبد الرحمن ، واذا كان غائبا فالأمير هانىء »

فلما سمع هانىء اسمه تعجب ، فقال عبد الرحمن بواسطة الترجمان : « انك فى حضرة الأميرين معا .. »

قال : « انى رسول من سالمة .. »

فلما سمعا ذلك الاسم توسما خيرا ، فقال عبد الرحمن : « وأين هى الآن ؟ .. ومن أنت ؟ »

قال : « هى فى معسكر الدوق أود ، وأما أنا فانى رجل عربى الأصل وانتهى بى الأمر الى الانتظام فى جند الدوق أود ، ولى حديث طويل قصته على سالمة منذ برهة وجيزة ، وقد قبض علينا أود وسجن كلا منا فى مكان ، ثم افترقنا ففرت هى من سجنها وظللت أنا فى المعسكر ، ثم أطلق الدوق سراحى وأحسن الظن بى وأعادنى الى خدمته ، ثم علم أود من عدلان الأحول انها فى دير مرتين فبعث فرسانا لاستقدامها كنت أنا فى جملتهم »

فقال هانىء : « لعلك رودريك ؟ .. »

فبغت الشاب ، والتفت الى هانىء وابتسم ، وقد استأنس بذلك السؤال وقال : « نعم ياسيدى .. هذا هو اسمى .. »

وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب ، ونظر الى هانىء نظرة استفهام .. فقال هانىء بصوت منخفض : « ان هذا المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها مريم »

فالتفت عبد الرحمن الى رودريك وقال : « اقصص علينا سبب مجيئك .. »

قال : « عندما رجعنا من الدير المذكور ومعنا سالمة ذهبنا بها الى خيمة باتت فيها تلك الليلة ، وفى الصباح التالى جاءوا بها الى مجلس الدوق وكنت فى جملة الحرس الواقفين ببابه ، ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفت بعد ذلك انها ابنته لمباجة وانها كانت فى معسكر العرب وفرّت الى أبيها فى تلك الليلة ، فلما دخلت سالمة خفت عليها من غضب الدوق ، ولكننى رأيت من اجلاله اياها واحترامه لها ما كاد يذهب برشدى ، وسمعتها تخاطبه بجرأة وقوة وهو يتحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيبته . وقد سمعته يسميها بغير اسمها ويعاتبها وأخيرا أمر بارجاعها الى خيمتها . وكانت قد لاحت منها التفاتة وهى خارجة فرأتنى وعرفتنى ، فأومأت الىّ خلسة أن أقابلها . فاحتلت فى مقابلتها تلك الليلة .. فلما رأتنى قالت : « انك عربى وأولى بنصرة العرب منى .. فامض الى معسكر الدوق شارل واستطلع أحواله ، وأخبر أمير جند العرب بذلك ، لأنهم اذا عرفوا قوة عدوهم هان عليهم أن يحاربوه » وألحت علىّ بسرعة الذهاب فخرجت فى تلك الساعة والمعسكران متقابلان ، وبت فى معسكر شارل وقضيت طول الأمس واليوم فى الاستقصاء ، ولما أمسى المساء فررت اليكم كما رأيتمونى »

فأعجب الأميران بشهامة سالمة ، وتذكر هانىء قولها انها ستكون فى معسكر أود أنفع لهم مما فى معسكر العرب ، فقال عبد الرحمن : « ما الذى عرفته من أحوال الجند ؟ »

فقال : « أعلم يامولاى ان قائد هذا الجند رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن ببين وهو رئيس حاشية ملك نوستريا من العائلة الميروفيجيانية ، ونظرا لضعف ذلك الملك كان حظ شارل من تلك المملكة دوقية أوستراسيا وراء نهر لوار .. لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع فى لبس التاج ، ولذلك كان أود هذا من أكبر منافسيه ولم يستنجد به على العرب الا بعد اليأس الشديد. فلما استعان به ، جرد ما يستطيع جمعه من قبائل الافرنج وما يمكن حمله من العدة والسلاح واستقر فى هذا المعسكر .. »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلا : « كم عدد جنده ؟ »

قال : « لم أستطع معرفة عدده تماما ولكننى علمت انه كثير ، وربما زاد على ضعفى عدد جيشكم ، على اننى تحققت انه مؤلف من عدة قبائل تختلف لغاتها وعاداتها وأخلاقها ، وان كانت تعد فى الجملة من الافرنج أو الأوربيين (١) ولكنها على التخصيص مؤلفة من شعوب عديدة من جملتهم الاوستراسيون أهل البلاد الأصليون ، والاتوريون ، والبروكتيون ، والطورنجيون ، والهيميون ، وغيرهم ، وعليهم دروع من الجلد وعلى صدور خيولهم دروع من الحديد الثقيل .. أسلحتهم السيوف الطويلة المعتدلة ذات الحدين والفؤوس الحادة ، والرماح المستطيلة ، والدبابيس الثقيلة فى رءوسها حسك الحديد . والجند مؤلف من المشاة والفرسان ، أما الفرسان فانهم قليلون وهم وحدهم

(١) ايزيدور

يرمون النبال .. » (١)

وكان رودريك يتكلم باهتمام ، وعبد الرحمن وهانىء يصغيان لكل كلمة يقولها ، فلما بلغ الى هنا ابتسم هانىء والتفت الى عبد الرحمن وقال : « نحن بلا ريب غالبون لأن فرساننا كثيرون وقد عرفت بسالتهم وخبرت مهارتهم ، وفيهم الرماة وحملة السيوف .. والفارس العربى يفوق ثلاثة من الفرسان الافرنج ، ولأن مشاتنا فيهم الرماحة والرماة . والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .. »

والتفت عبد الرحمن الى رودريك فرآه يتحفز للنهوض ، فقال له : « وهل عندك خبر آخر ؟ .. »

قال : « كلا يامولاى ولكننى عائد الى معسكر أود بأمر السيدة سالمة .. فهل من رسالة ؟ .. »

قال عبد الرحمن : « هل أمرتك بالرجوع ؟ »

قال : « نعم .. لعلها تطلع على أمر يهمكم من هذا القبيل فتبعثنى به .. »

فقال عبد الرحمن : « بلغها سلامنا .. وقل لها اننا حافظون لها هذا الفضل »

فنهض رودريك واستأذن وخرج ، ثم خرج الترجمان .. ومكث عبد الرحمن وهانىء برهة يتداولان فى أمر الجيش ، فقررا الاسراع فى الهجوم ما أمكن قبل أن يستعد الافرنج للدفاع

---

(١) دوسى — الجزء الاول

وفى اليوم التالى بعد صلاة الفجر نفخ فى النفير فاجتمعت جيوش المسلمين ، فجعل عبد الرحمن المشاة فى الوسط والفرسان فى الجناحين ، وجمع الأمراء على اختلاف قبائلهم ، فجاءوا على خيولهم وعلى رءوسهم العمائم مكان الخوذ وقد تقلدوا السيوف . فوقف عبد الرحمن أمامهم موقف الخطيب وقال :
« اعلموا أيها الأمراء اننا قطعنا اكيتانيا كلها والظفر حليفنا ، ولما يئس عدونا من الفوز استنجد بعدوه صاحب أوستراسيا وقد جاءنا بجنده وكفانا مئونة الذهاب اليه .. وهذا معسكره وفيه كل قواته ، والذى نصرنا على صاحب اكيتانيا سينصرنا عليه . وقد علمنا انه أضعف منا عددا وعدة والنصر موقوف على الصبر ، فاصبروا وتكاتفوا ينصركم الله ، فتفتحون بلادا طالما تشوق المسلمون لفتحها ، ويتم على يدكم ما وعد الله نبيه من فتح العالم ، فيكون لكم الفخر ويخلد لكم الذكر مدى الدهر ، وأنا واثق من انكم فاعلون باذن الله ، والله مع الصابرين »

ولما فرغ من كلامه تقدم هانىء على أدهمه وعلى وجهه امارات البشر وقال وهو يبتسم : « ان هذا اليوم يوم الموعد العظيم سنناله بالصبر والجلد . يكفينا سعادة اننا وفقنا الى أمر طالما تحسر أسلافنا لعدم الوصول اليه وسيحسدنا عليه الذين سيخلفوننا ويتمنون لو شاركونا فيه بدمائهم وأعناقهم .. وسترونني وأنا أضعفكم عزيمة وأقلكم بسالة باذلا نفسى فى سبيل الله ، فاذا فزنا فتحنا عالما جديدا .. واذا استشهدنا فى

الجهاد ، فذلك خير لنا عند الله .. » قال ذلك والعرق يتصبب من تحت عمامته والحماس باد فى كل جارحة من جوارحه

ثم قال عبد الرحمن : « فعليكم أيها الأمراء أن تستحثوا رجالكم وتوصوهم بالصبر والثبات ، واخبروهم بالفخر الذى سينالونه بحد سيوفهم فضلا عن الغنائم فانها أضعاف ما نالوه حتى الآن » ثم تلا من آيات القرآن مايزيدهم حماسا وشجاعة . فتقدم كبير أمراء البرابرة وقد تحمس خصوصا بعد أن سمع بكثرة الغنائم وقال : « لايخفى على مولانا الأمير أن جند البربر من أشد جنود المسلمين بطشا وأكثرهم ثباتا فى ساحة الحرب ، وكلهم من الرماة الماهرين فاجعلوهم فى المقدمة .. »

فأراد عبد الرحمن تشجيعهم فقال : « نفعل ذلك » وأمر أن يتقدم البربر بأقواسهم ، وبعدهم العرب والفرسان فى الجناحين.

***

وكان شارل من الجهة الثانية يتأهب لمهاجمة المسلمين ، والمخابرات جارية بينه وبين أود فى كيفية التعاون على ذلك ، ولكنه لم يكن يتوقع هذه السرعة .. فلما أخبرته الطلائع باصطفاف المسلمين للحرب رتب جنوده صفوفا متلاصقة بشكل الكتائب ، فأصبحوا كأنهم سور من الرجال وأكثرهم من الجنود المحنكة ، وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة ، فوقفوا موقف الدفاع ، والرماح ناتئة من بينهم صفوفا بعضها فوق بعض لتمنع العرب من اختراق ذلك السور المتين

- ٧٧ -

الحرب

قف معى هنيهة قبل الهجوم ، وانظر الى ذينك الجيشين وهما يختلفان جنسا ولغة ودينـا ، ويتباينان مطعما ومشربا وملبسا ويتباعدان خلقا وأدبا . اجتمع أحدهما من أقاصى آسيا وافريقيا من أمم شتى لايجمعهم غير الاسلام الى بلاد لم يطأوها من قبل واقليم لم يتعودوا برده ومطره . وقد رأوا أمامهم رجالا دروعهم من الجلود وعلى رءوسهم خوذات من الجلد وراياتهم مستطيلة وعليها شارات النصرانية . وجاء الآخرون من شمال أوربا وهم قبائل مختلفة اجتمعوا الآن لدفع عدو غريب جاءهم بدين جديد وشكل جديد ، وقد دهشوا لغرابة مابدا لهم من اصطفاف تلك العمائم المتراصة فى تلك الساحة الرحبـة كأنها بحر يتلاطم بالأمواج ، تظهر من بينها رايات متشابهة عليها كتابة لايستطيعون قراءتها . ولو تفحصت ما يجول فى خواطر ذينـك الجيشـين لرأيتهما متضاغنين متشاحنين ، يتضرع كل منهما الى ربه أن ينصره على الآخر تأييدا للحق . فاذا استعرضت الأسباب التى دعت الى ذلك القتال لما رأيت سببا غير الجشع الذى انفرد به الانسان من دون سائر المخلوقات ، فاننا لم نسمع بسرب من الحيوان يجتمع لقتال سرب آخر من نوعه .. واذا تنازع حيوانان

فانما يتنازعان على لقمة ، يلتمس كل منهما أن يسد بها جوعه ، فلهما العذر فى ذلك الخصام .. وأما الانسان فانه يقتل أخاه على شىء لا يعبر عنه بغير الوهم ، بل هو لا يقدم على قتله الا على شبع . وانما يطلب وهما يعبّر عنه بالسيادة أو الشهرة ، وكلاهما لا تسدان جوعا ولا ترويان عطشا

طلعت شمس ذلك النهار وهو على تقديرهم يوم سبت من شهر أكتوبر عام ٧٣٢ للميلاد (١) ، فبدأ العرب بالهجوم وأمطروا الافرنج بالنبال ، وانقضوا عليهم بجيادهم انقضاض الصاعقة .. فتلقاهم هؤلاء بالثبات والحزم ولم يتزحزحوا عن أماكنهم . فانقضى النهار ولم يلتحم الفريقان الا سطحيا وقد تقابلا وتناديا وتصايحا ، ولكنهما لم يتفاهما لأن كلا منهما يعد لغة الآخر رطانة وألغازا .. وربما كان التفاهم أقرب فيما بين خيولهم مما بينهم . ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لأنه لم يزدهم الا ضغينة وحقدا . ثم افترقوا على أن يعيدوا الكرة فى غد

رجع هانىء وهو منقبض النفس ، وأمر فرسانه أن يعودوا الى مضاربهم ، وتحول بأدهمه مجانبا الساحة ليطل عليها من أكمة. واذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فأمسك شكيمة الأدهم وتفرس فيه.. ولا تسل عن دهشته حين رأى مريم على ذلك الجواد فخفق قلبه وصاح فيها : « مريم ؟.. ما الذى جاء بك الى هنا ؟ .. »

---

(١) دومى ـ الجزء الثالث

فقالت : « لأشـاهد حبيبى هانئـا يسـدد الكتائب ويفل الجيوش ... »

فأحس عند سماعه قولها كأنها طعنته بحربة فى صدره ، وحمل كلامها محمل التوبيخ لرجوعه بلا طائل ، وبدا التأثر على وجهه .. وأدركت مريم ذلك فاستدركت قائلة : « لقـد رأيتك تصول صولة الأسـد ، ولكن الحرب سجال .. على انى كنت أتوقع النصر لكم لو لم تجعلوا أولئك البرابرة فى مقدمة الجند ، فهم لايستطيعون اختراق صـفوف الافرنج ولن يستطيع اختراقها الا الفرسان ، فلو تقدمت فرسانك وأنت معهم لبددتم شملهم لأن خيالة الافرنج ضعيفة »

فرأى فى قولها حكمة لأنه كان يرى رأيها ، وقد همّ بعرضه على عبد الرحمن ، فابتسم ونظر اليها نظرة الحب والاعجاب وقال : « بورك فيك ، فقد عهدت فيك لطف النسـاء وبسالة الرجال ، ولكننى لم أكن أعرف فيك مهارة القواد .. اننا عاملون برأيك فى غد باذن الله وهو رأيى أيضا ، ولكننا قدمنا البرابرة مسايرة لهم ، كما تعلمين حالنا معهم .. ولكن لماذا عرضت نفسك للنبال ؟.. لقد كنت أنا أجول فى سـاحة الوغى أتصورك فى الخباء تتوقعين رجوعى ظافرا . فلما رجعنا كما ترين انقبضت نفسى .. ولو رأيتك بجانبى لكانت النتيجة غير ذلك .. »

فأدركت ان علمه بوجودها يزيده بسـالة ونشاطا فقالت :

« فموعدنا غدا »

فقال : « لا .. لا تعرضى نفسك للخطر فانى أخاف عليك من الهواء ، فكيف بالنبال ؟ ! .. »

فقالت : « لعلى لا أخاف عليك من ذلك ؟.. ولكن هل اذا أصيب هانىء بسوء أبقى أنا ؟ .. دعنا من هذا الآن ، وان غدا لناظره قريب » . وكانا يتكلمان وفرساهما يسيران حتى أصبحا بجانب المعسكر فهمزت جوادها نحو الخباء وهى تقول : « استودعك الله الى الغد .. »

فما زال ينظر اليها وهى تسوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثف ، فتحول حتى بلغ خيمة عبد الرحمن ، وأطلعه على رأيه فوافقه عليه وبعث الى الأمراء ففاوضهم فى الأمر فوافقوه على هذا الرأى ..

قضى عبد الرحمن ليلته قلقا وهو يقدر العواقب ويحسب المخاوف تجنبا للفشل ، وأزمع أخيرا انه اذا خشى على جنده من التقهقر طلب قائد الافرنج للنزال ، فاذا غلبه تشدد العرب واذا غلب فالموت خير من الحياة .. وأما هانىء فقد كان أوسع أملا وأعظم ثقة بالنصر ، مع انه لم يكن يجهل شأنا من شئون الجند يعرفه عبد الرحمن .. ولكن للشبيبة آمالا تسهل الصعاب

وأصبح الصباح فاجتمع المسلمون للصلاة وتلاوة آيات القرآن ورتبوا الجند ، فجعلوا الفرسان فى المقدمة والمشاة فى الجناحين : البربر فى الجناح الأيمن ، والعرب فى الجناح الأيسر، وعبد الرحمن وهانىء وسائر الحاشية فى القلب . ومشت تلك

الحامية نحو الافرنج ، وكانوا قد اصطفوا اصطفاف الأمس وفرسانهم فى الجناحين ، وأخذوا فى رمى النبال على العرب بسرعة وكثرة حتى كادت تحجب أشعة الشمس . ولكن العرب ظلوا سائرين وهم لايبالون حتى اذا دنوا من صفوف الافرنج صاح هانىء فى فرسانه ، فأطلقوا الأعنة لخيولهم واستحثوها وهو على أدهمه فى مقدمتهم وقد شرع سيفه . فلم يستطع الافرنج الوقوف فى وجه ذلك السيل فتضعضعوا وأمراؤهم يحرضونهم ويستحثونهم . والتحم الجيشان وقد رجحت كفة النصر للعرب ، وهانىء يزداد حماسا وبسالة حتى خيِّل له لما آنسه من ضعف الافرنج وتقهقرهم انه يطارد أغناما !

وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع صوتا خرق أحشاءه واستلفت كل جوارحه ، وقائلا يقول : « لله درك أيها الأمير » .. فعلم من غنة الصوت واللثغة انه صوت مريم ، فالتفت فرآها على جوادها وقد التفت بعباءتها واعتمت على رأسها فوق الخمار ولم يبق ظاهرا من وجهها غير عينيها وحاجبيها وأنفها وفمها ، وقد تجلت الحماسة فى تينك العينين فأبرقتا . وأخرجت يمناها من العباءة وفيها سيف مسلول ، وأخرجت يسراها وفيها درقة لطيفة من الجلد ، وأغارت بجانب هانىء وخلفه والناس يفرون من بين يديها كأنها قضاء نازل . فأحس هانىء لما رآها فى تلك الحال ان قوته تضاعفت وأيقن بالفوز ، ولكنه خاف على مريم من نبل تصيبها فى مقتل .. على انه أصبح بعد ما شاهده من بشائر النصر

لا يخشى خطرا ــ والانسان اذا سالمته الحوادث يظن ان الأقدار قد أبرمت معه عهدا ألا ترميه بسوء ــ وظل هانىء هاجما وهو يستحث رجاله ويمنيهم بالظفر .. وكأن أدهمه أحس بالنصر فتحمس وازداد صهيلا وهو يشخر ويلهث والعرق يتصبب من عنقه على صــدره .. وقد تحلب الرغاء من فمه وتساقط على العرق تحت ضرام صدره ، وهانىء كلما سمع صهيــل جواده ازداد حماسا . ثم رأى أن يختم أسباب النصر بمبارزة شارل ، فطلبه بين يديه فلم يجده فجعل يتلفت للبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجند بزيه ورايته والصليب على خوذته ، فلمحه عن بعد كأنه بجانب الأمير عبد الرحمن ، فأراد أن يحول شكيمة الأدهم الى هناك فسمع مريم تصيح فيه : « احذر أيها الأمير .. احذر.. التفت .. »

فالتفت وهو يحسبها تحذره من فارس يحاول اغتيــاله من الخلف ، فلم ير أحدا غير بعض العبيد أو الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال فى أثناء المعركة ، لالتقاط النبــال المتساقطة واعطائها الى الرماة ، أو لاسعاف فارس سقط سيفه أو قوسه يلتقطونه له ، وقد تعودوا المرور بين قوائم الخيل مرور السهام .. فالتفت هانىء الى مريم ليستطلع سبب ندائها ، فرآها تسوق جوادها فى اثر أحد أولئك السعاة وهو يعدو أمامها وفى يده خنجر يقطر دما ، وما عتمت أن أدركته خارج المعركة فأطارت رأسه بحسامها فوقع يتخبط فى دمه ، ورجعت وهانىء مندهش

مما يراه فسمعها تقول له : « تحول عن جوادك فانه مقتول ، وخذ هذا الجواد » .. قالت ذلك وهى تتحول عن جوادها ..

فلم يفهم هانىء قصدها ، ولكنه التفت الى فرسه فرأى الدم ينسكب من أحشائه انسكاب الماء من القربة ، فانقبضت نفسه فتحول عنه ، وجاءه أحد فرسانه بفرس ركبه وأشار الى مريم أن تعود الى فرسها وعادت وهى تقول : « قبح الله ذلك الأحول فقد تخلصنا منه » ففهم هانىء ان الأحول تزيا بزى السعاة واغتال الجواد ، ثم التفت هانىء الى الأدهم فرآه قد سقط فأسف على موته أسفا شديدا وتشاءم من سقوطه ، على ان أمله فى النصر أنساه الجواد فعاد الى الهجوم لئلا يضعف رجاله ..

أما عبد الرحمن فكان يراقب الجند من القلب ، فلما رأى تغلب الفرسان انشرح صدره وأخذ يتنقل بفرسه على أمراء القبائل يستحثهم ويحرضهم ويبشرهم ويمنيهم وخصوصا قبائل البربر ، لعلمه بشدتهم وشجاعتهم ، اذا هجموا لا يقف فى طريقهم سور ولا خندق ولا سيل ..

وكان شارل قد أسرّ فى ضميره مثل ما أسرّه عبد الرحمن ، فلما رأى ضعف جنده ، وقد مالت الشمس الى الأصيل ، أخذ يبحث عن أمير جند العرب ليبارزه ، فلما رآه عبد الرحمن عرفه من الراية التى كانت الى جانبه .. فأقبل شارل على جواده كأنه جبل ، وعليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المتراكمة تغطى

صدره وكتفيه وذراعيه ، وتسترسل على فخذيه ومقدم ساقيه الى القدمين حتى الركابين .. وعلى رأسه خوذة فى قمتها صليب ، وقد استرسل من جانبى الخوذة وقفاها نسيج من زرد الفولاذ يغطي خديه وقفاه . وعلى صدر جواده غطاء من الحديد بشكل الدرع معلق بمقدم السرج ، وقد رفع بيمناه دبوسا من حديد على شكل الصليب . وأمسك بيسراه راية عليها رسم الصليب .. رسم السيد المسيح مصلوبا وقد أسند قناة الراية الى الركاب الأيسر ..

وأما عبد الرحمن فكانت خوذته العمامة مثل سائر العرب ، وهى مع خفتها ولينها تقى الرأس كما تقيه الخوذة ، وعلى صدره الدرع تحت العباءة وقد تقلد السيف والخنجر . وكان بالاجمال أخف حملا وأسرع حركة من شارل .. وقلما كان يختلف فى زيه ومظهره عن سائر فرسانه .. أما شارل فقد كان يمتاز عنهم بخوذته ودرعه ورايته وجواده ، فعرفه عبد الرحمن عن بعد فصاح فيه صيحة أجفل لها جواده ، وأغار عليه وسيفه مسلول بيده ، فتلقى شارل الضربة بدبوسه وأخلى نفسه منها وتقهقر لا عن فرار ، فتبعه عبد الرحمن ثم خشى أن يكون فى ذلك التقهقر مكيدة . فتراجع على أن يتأهب لطعنه اذا عاد اليه . واذا هو بالصياح قد علا فى الجناح الأيمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء ، وهم يصيحون : « ذهبت غنائمنا .. ضاعت جهودنا هباء .. » فالتفت فرآهم يتقهقرون ويتحولون الى الوراء فرسانا ومشاة .

ورأى جيش أود هاجما على مخازن الغنائم فى الخيام (١) فاستعاذ بالله وجعل يصيح فى البرابرة أن يثبتوا فى مواقفهم وان غنائمهم لا تغنى عنهم شيئا ، فلم يلتفت أحد الى قوله ، وبعد أن كان جند العرب فائزا تخاذل .. واغتنم الافرنج فرصة ذلك التخاذل فأعادوا الكرة ، ولولا هانىء وفرسانه لانكسر العرب شر كسرة

***

ولكن هانئا لما علم بما أصاب البرابرة ، بذل جهده فى تثبيت رجاله ومريم معه ، وقد نزعت العمامة والخمار عن رأسها وألقت العبـاءة عنها وظهرت بثوبها النسائى الأسود ، وقد استرسل شعرها على كتفيها وخديها وهجمت والسيف مشهر بيدها ، وقد انحسر كمها عن زندها وهى تقول : « عار على العرب أن يفروا كما فر البربر .. ان هؤلاء يطلبون الغنائم ، وأما أنتم فتطلبون الجهاد وغنيمتكم الفخر والنصر والحسنى فى الدنيا والآخرة »

وكان الفرسان يحسبونها رجلا، فلما تبينوا أنها فتاة وشاهدوا جمالها وهيبتها مع تلك البسالة والغيرة ، خيل لهم انها ملاك نزل من السماء لنصرتهم ، فتحمسوا وثبتوا فى هجومهم ، وصمموا على التفانى تحقيقا لندائها ونداء هانىء ، ولكن الظلام فصل بين الجيشين فنفخ فى الأبواق فتراجع كل منهما الى معسكره

---

(١) دوزى — الجزء الثالث

- ٧٨ -

بعد المعركة

فلما تراجع الجيشان تحول هانيء الى مكان عبد الرحمن فلم يجده ، فسأل عنه فلم ينبئه أحد بخبره ، فأركض فرسه للبحث عنه هنا وهناك .. فلم يقف له على أثر ، فأمر فرسانه بالرجوع الى أماكنهم وترجل هو ومريم عن فرسيهما وجعلا يطوفان ميدان المعركة يتفحصان القتلى على نور الشفق . ثم طلع القمر فأضاء تلك البقعة المغطاة بجثث الناس وفيهم الميت والجريح والعاجز ، وبينهم الأفراس فى نحو ذلك بين صهيل وشخير وأنين وزفير ، فتفقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن . واذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فأجفلا واستبشرا ، فالتفتا الى أطراف تلك الساحة ، فرأيا فى أحد جوانبها مما يلى الجنوب فرسا واقفا وهو يصهل ويفحص الأرض ، فصاح هانيء : «هذا فرس الأمير» وأسرع اليه ومريم تتبعه حتى وصل الى الجواد فرآه واقفا وأمامه شبح ملقى ، عرفا انه عبد الرحمن . فأسرع هانيء الى يده يجسها فاذا هو جثة هامدة ، وقد استلقى على ظهره وبسط ذراعيه وعيناه شاخصتان نحو الشرق كأنهما تستقبلان نور القمر عند طلوعه . وشاهدا سهما مغروسا فى عنقه فعلما انه سبب وفاته . فجثا هانيء عند رأسه وصاح : « وا

أسفاه عليك يا أميرى ووالدى ويا أخى ويانصيرى ، بل يانصير المسلمين . ولكنك فزت بجنات النعيم لأنك قتلت مجاهدا فعسى أن ألحق بك عاجلا »

وكانت مريم واقفة تنظر الى تلك الجثة وتأسف لقتل ذلك القائد ، لكنها كانت تتعزى ببقاء هانىء حيا وترجو له النصر ، فاذا فاز بالفتح أصبح أكبر قواد ذلك الجند . وقد نفر سمعها من تمنيه اللحاق عاجلا بعبد الرحمن ، فقالت : « دعنا من الندب فانه يليق بالنساء ، وهلم بنا الى المعسكر ندبر شئون الجند قبل الفشل . واذا فزنا فى الغد ــ ونحن فائزون ان شاء الله ــ ففى ذلك تعزية عن كل خسارة » فاستصوب هانىء قولها وقال : « فلا بد لنا من دفنه » ..

قالت : « متى وصلنا الى المعسكر أرسلنا من يأتى بالجثة ثم تصلون عليها وتدفنونها » . قالت ذلك ومشت وهى لا تزال مسترسلة الشعر مكشوفة الذراعين لا تبالى بما فى صفاء ذلك الليل من برد الخريف . ومشى هانىء والسيف يجر وراءه وقلبه فى شغل تتنازعه عوامل الفشل والأسف والأمل ، وتظلله غياهب الحب والوجد ، ومريم تسير الى جانبه وهى فى مثل حاله ، وقد وليا وجهيهما نحو المعسكر وساحة المعركة الى يمينهما ومعسكر أود الى يسارهما وليس فى تلك الساحة أنيس ، ولا يسمعان فيها غير الأنين والزفير ، وربما شاهدا بعض العبيد يبحثون فى الجثث يلتقطون ما بينها من سلاح أو آنية أو حلى . ولاحت

من هانىء لفتة الى جثـة بين يديه عليهـا ملابس الافرنج كاد يتعثر بها فأراد أن يعرج عنها فرأى فى وجههـا شيئا يعرفه ، فتفرس فيها فاذا هى جثة رودريك ، فبغت وقال : « ألا تعرفين هذا الوجه يا مريم ؟ »

فنظرت اليه وقالت : « كلا .. »

قال : « هذا رودريك حفيد حسان ، وكان قد حمل الينا بالأمس رسالة من والدتك أنبأتنا فيها بأمور كثيرة عن أحوال هذا الجند ساعدتنا على حربهم اليوم . وأخبرنا انها عند أود فى خير واكرام . ثم عاد مسرعا اليها لعلها تحتاج اليه فى مهمة أخرى . فما الذى جاء به الى هنا ياترى حتى قتل ؟ .. »

صاحت مريم : « أرى فى يده شيئا كالكتاب أظنه رسـالة من والدتى » ..

قالت ذلك ومدت يدها لاخراج الكتاب من قبضتـه ، فلم تستطع كأنه قابض عليه بقوة ، فارتعشت جوارحها لأنها تصورت الرجل حيـا . فتقدم هانىء ونزع الكتاب بعنف وهو يقول : « يظهر انه مات منذ هذا الصباح » وناول الكتاب لمريم وهو لفافة من جلد فصاحت : « رسالة.. رسالة من والدتى فلنقرأها»

فوقف هانىء الى جانبها ، وأخذت تقرأ فى ضوء القمر :

« الى الأمير عبد الرحمن سلام ــ أما بعد ــ فانى أكتب هذا الكتاب اليك عند الفجر والناس نيام ، وقد بت بالأمس قريرة العين بما شاهدته من شجاعة العرب وتجددت آمالى بالنصر . ثم

بلغنى تدبير دبرته تلك المرأة المسماة ميمونة اذا وفقت الى اتمامه كانت العاقبة وخيمة — لا سمح الله — وذلك انها اجتمعت فى هذا الليل بوالدها وأخبرته بما عليه رجال البربر من ضعف الاسلام والتعلق بالغنائم ، وأشارت عليه اذا نشبت الحرب فى هذا اليوم وخشى تقهقر الافرنج أن يبعث بشرذمة من رجاله يسطون على مستودعات الغنائم فى معسكركم ، وأن يبعث أناسا عليهم ملابس العرب يصيحون فى جندكم ، ان الغنائم قد أخذت . وسيتولى ذلك عدلان البربرى الأحول لأنه يستطيع التنكر فى مظهر عربى ، وتكفل — قبحه الله — بقتل أدهم الأمير هانىء لتضعف الفرسان وهم أقوى جنودكم .. علمت بهذا التدبير من الشاب رودريك وسأرسل هذا الكتاب معه ، ولكنى أتوجس خيفة عليه من عدلان لئلا يفعل به كما فعل بجده ، أو ربما أصابه نبل فى أثناء ذهابه . ولا حيلة لى فى تلافى ذلك اذ لابد من ابلاغ هذا التدبير اليكم بالوسائل الممكنة .. فاذا أدرككم كتابى هذا فى حينه ونفعكم ما فيه فانى ضامنة لكم النصر باذن الله . والا فانى أخاف عليكم العاقبة . واذا أخفق هذا المسعى — لاسمح الله — وقدر النصر للافرنج فلن تقوم للعرب قائمة فى هذه البلاد . أما أنا فقد أتممت المهمة التى انتدبت لها ، ولا حاجة لأن أوصيك بمريم فانها فى رعايتك وان كنت لا أرضى لها البقاء اذا انكسر العرب ، ولا هى ترضاه لنفسها . واذا فشل العرب ولم يقطعوا نهر لوار فلا قيمة للحياة . ولذلك فلا تطلبونى فانكم لن تجدونى فى أى مكان ..

والملتقى فى الدار الآخرة فانها تجمع شتات المحبين ... والسلام»
. وما أتت مريم على آخر الكتاب حتى وقف شعرها وارتعشت أناملها وغشي الدسع عينيها والتفتت الى هانىء ، فاذا هو مطرق يفكر ، ثم رفع بصره اليها وقال : « قد علمت الآن سر الانقلاب الذى أصاب جندنا بعد أن كدنا نهزم الأعداء »

فقالت : « لعن الله لمباجة وعدلان خادمها ، اذ لولاهما لكنا الآن فى معسكر شارل وفى الصباح نقطع ذلك النهر .. »

فقال : « العيب يا مريم مرجعه الى جندنا فانه متفرق الكلمة متباين الأغراض ، وخصوصا أولئك البربر فانهم لايفهمون من الحرب غير السلب والنهب ، ولولا دراية الأمير عبد الرحمن — رحمه الله — وحسن أسلوبه وسعة صدره ما استطعنا الوصول الى هنا .. وقد مات عبد الرحمن الآن ولا نعلم ما يصير اليه أمرنا بعد ... »

فقالت : « نعم .. ان مقتل هذا الأمير خسارة كبرى ولكننا لاينبغى أن ننوء تحت هذا العبء ، وانى أقدم نفسى لما تنتدبنى اليه فى هذه الحرب »

قال : « يكفى منك تحريض الأمراء على الاتحاد والصبر فقد رأيت من تأثير أقوالك فى وقعة اليوم ما أدهشنى .. »

قالت : « لك عليَّ ذلك .. لأنى ان لم يفز هذا الجند فلن يكون لى بقاء .. تلك هى وصية والدتى فى هذا الكتاب .. »

فقال : « وأنا .. هل أبقى وحدى ؟ .. ولكنى أرجو ألا

تتعرض لهذه الأخطار . هلمّ بنا الى المعسكر .. » . قال ذلك ومشى ، فمشت مريم وهى لا تزال حاسرة الرأس مسترسلة الشعر لا تنتبه لنفسها .. حتى اذا اقتربا من المعسكر ، لم يسمعا جعير الجمال ولا صهيل الخيل ، ولا رأيا نارا ولا حركة ولا شيئا يدل على الجند مع ان الخيام كانت لا تزال باقية كما هى ، فأسرع الى فسطاط الأمير الكبير فاذا هو خال خاو . فخرجا منه الى ما يجاوره وطلبا خيمة الأمير هانىء فوجداها خالية . وبالجملة فقد كان معسكر العرب كأنه خيام منصوبة فى الصحراء لا انسان فيها ولا دابة حتى ولا حشرة

فقضيا برهة يتمشيان وهما صامتان من الدهشة والاستغراب ثم تكلم هانىء قائلا : « ما الذى أراه ؟.. أين ذهب الجند ؟.. أين الخدم ؟.. أتظنينهم ذهبوا نحو الأخبية ليجعلوا هذا النهر الصغير ترسا لهم فى الدفاع ؟ .. »

قالت : « ربما فعلوا ذلك .. هل نذهب الى الأخبية ؟.. »

قال : « نذهب .. » وخرجا من بين الخيام كأنهما خارجان من مكان خرب حتى عبرا النهر الصغير الى الأخبية فلم يجدا فيها أنيسا . فقال هانىء : « اذا فرضنا ان البربر جبنوا وفروا ، فأين العرب ؟.. بل أين النساء والأولاد ؟.. ما أسرع نهوضهم وفرارهم .. يظهر ان وجود عبد الرحمن وحده كان جامعا لهم .. فلما مات ، ماتت قلوبهم .. »

ثم أطرق حينا لايتكلم ، وقلبه يكاد ينقطع حنقا ويأسا ، لايدرى

ماذا يقول ، وقد حدثته نفسه بأمور كثيرة أكبر أن يذكرها . وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئا ، وهى تكتم أمرا أجلّت التصريح به حتى تسمع رأيه فيه . وبعد المسير مدة على مثل هذه الصورة بين الأخبية والخيام وكل منهما غارق فى أفكاره يتعثر بالاطناب والأوتاد ، قال هانىء : « يجب علينا قبل كل شيء أن نوارى جثة أميرنا ــ رحمه الله ــ لئلا تذهب فريسة العقبان أو يمثل بها الأعداء » . قال ذلك وتحولا نحو ساحة المعركة فعرفا مكان الجثة من صهيل الجواد ، فتعاونا فى حملها على الفرس الى حفرة فى مكان منفرد ، وضعاها فيه وأهالا عليها التراب ولم ينبس أحد منهما ببنت شفة . فكان لذلك الدفن على بساطته هيبة ووقار عما كان يضطرم فى قلبيهما من نيران الحزن والأسف المريرين ، فضلا عما كان يضطرم من نيران الحب ولواعج الغرام ..

— ٧٩ —

اللقاء الدائم

فرغا من الدفن وهما صامتان ، وكان القمر قد تكبد السماء وأصبح نوره مثل نور النهــار فقالت مريم : « وما العمــل يا هانىء ؟ » ..

فتنهد هانىء وقال : « لو كان معى خمسون رجلا لهاجمت بهم هذين المعسكرين ، على ان وحدتى لا تمنعنى من الهجوم

ولو كان فيه فنائى ، ولكننى أخاف على مريم اذا أنا قتلت أن يلحق بها عار أو اهانة .. »

فالتفتت اليه وقالت : « وهل تبقى مريم بعدك ؟.. ذلك لا يكون وقد قرأت وصية والدتى (وتنهدت) فانها تحبب الىّ اللقاء بها فى الدار الآخرة ، ولا أشك فى أنها هناك الآن .. فاذا كنت تحب مريم وتريد أن تطمئن على حياتها وعزها ، فاسمح لى أن ألحق بوالدتى اذ لا فائدة من بقائى . وأما أنت فان الاسلام يحتاج اليك والجهاد يفتقر الى سيفك وذراعك .. »

فلما سمع كلامها هاج غرامه حتى أنساه موقفه فقال : « ان الاسلام مفتقر الى مثلك أكثر من افتقاره الى مثلى .. انك ابنة الملكين فقد حزت فضائل الجنسين .. والله لو صبر أولئك الجبناء وكنت أنت رائدهم فى حومة الوغى لفازوا وقطعنا نهر لوار .. آه من هذا النهر .. لقد امتنع علينا عبوره فامتنع اجتماعنا .. أتطيعينى يا مريم ؟ »

قالت : « انى أطوع لك من بنانك الا اذا أردت بقائى بعدك»

قال : « لقد فشل جندنا ، وفرّ من بقى منا حيا .. وفى الفرار بقاء ترتاح له نفس الجبان ، وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكل منا يريد البقاء ، ولا بقاء الا بالفرار ، ونفسى تأبى ذلك . ولا يخفى عليك يامنيتى ان فؤادينا قد ذابا تطلعا الى اليوم الذى نقطع فيه ذلك النهر لأن فى قطعه اجتماعنا فما الذى يمنعنا من الاجتماع فيه الآن ؟ .. »

فقطعت كلامه قائلة : « فى جوفه ؟ .. »

فقال : « بل فى قاعه .. واذا كنا معا فلا أبالى أين نكون ولا كيف نكون » . قال ذلك ووثب حتى ركب جواد عبد الرحمن وأمسك بيدها فأردفها وراءه وأركض الفرس وهى ممسكة بعباءته ، واتجها نحو نهر لوار خارج مدينة تورس حتى وصلا الى ضفة من الرمال تتكسر عليها مياه النهر بعد تموج ضعيف ؛ وسطح النهر يتلألأ فى ضوء القمر ويتلون ، فترجّلا عن الفرس وأطلقا له العنان فعاد الى المعسكر . وظلا هناك منفردين والجو هادىء ساكن لايسمع فيه غير خرير الماء ونقيق الضفادع . فخلعا نعالهما ومشيا على الرمل المرطب بالماء ، ونزع هانىء عمامته وعباءته فأصبح حاسر الرأس والذراعين مثل مريم ، وله ضفيرة كانت العمامة تغطيها فاسترسلت مثل ضفائر مريم . فمشيا على الرمل حتى أصبح تكسر المياه يصيب كعبيهما فوقفا هناك ومد هانىء يديه الى مريم ، قبض بهما على يمناها .. فأحس ببرودتها ولينها ، ولم يشعر بقشعريرتها لانشغاله بقشعريرته . فضغط على يدها بكلتا يديه فارتعدت فرائصها جميعا . ولم تعد مريم تستطيع الوقوف لاصطكاك ركبتيها ، فأسندت رأسها بيسراها على كتف هانىء ، فأسكرتها رائحة عرقه كما أسكرته رائحة طيبها ولمس شعرها وجهه واشتبك بشعر لحيته ، فأحس بقشعريرة دبت فى جسمه دبيب النمل بين اللحم والعظم .. وخشى لشدة تأثره أن تخونه قدماه فيقع فأبقى يسراه قابضة على يمناها ، وأدار يمناه

الى كتفها وتساندا وهما صامتان والهوى يتكلم . ثم رفعت رأسها عن كتفه ونظرت فى وجهه ، وعيناها ذابلتان من شـــدة التأثروقدغشيهما الدمعوقالت بصوت مختنق:«أتحبنى ياهانىء؟»

فأعاد يده الأخرى فأمسك يمناها بيديه وأدناها الى صدره ، وقد غلب عليه الحب ونسى مواقف القتال وقال : « نعم .. أحبك .. أحبك » قالت : « آه ، ما ألطف الحب وما ألذه .. »

قال : « لا لذة بغير الاجتماع .. هل فى الدنيا اثنان يتمتعان بألذ مما نحن فيه الآن ؟.. ضمينى يا مريم ياحبيبتى .. ضمينى الى صدرك .. ألا تشعرين بخفقان قلبى ؟ .. انى أشعر بدقات قلبك » . قال ذلك واحدى يديه فوق كتفها والأخرى قابضة على يدها ..

أما هى فرفعت بصرها الى السماء فرأت القمر مشرقا اشراقا باهرا ، وعلى وجهه رسم يشبه رأسين متقاربين كأنهما حبيبان يتعانقان فقالت : « انى أرى صورتنا قد ارتسمت على وجه القمر .. انظر يا هانىء ، ألا ترى وجهين مثل وجهينا ؟ .. »

قال : « لا أرى فى الدنيا من يشبهنا ، ولا من حال تشبه حالنا » وكانت مريم قد جفت دموعها فلما سمعت قوله تذكرت حالها فقالت وهى تغص بريقها : « ان حالنا عجيبة يا هانىء .. تمنينا الاجتماع وسعينا اليه فامتنع علينا ، فلما التقينا ســاءنا الاجتماع خوفا من الفراق »

فأجابها وبصره شاخص فى وجههــا قائلا : « انى لا أرى

ما يشفى غليلى بعد طول التحسر الا أن نجتمع اجتماعا متواصلا لا يتخلله فراق .. ولا يكون ذلك الا بالموت معا . هل تموتين معى يا مريم ؟ »

فالتفتت اليه ويدها ملتفة بيده الى الكتف وعيناها ذابلتان ولو لم تتكلم هى لتكلمتا ، ثم قالت : « الموت معك حياة ياحبيبى .. ياحبيبى .. آه ما ألذ هذا اللفظ ، وكم كنت أتلذذ بتكراره فى خلوتى وأتحسر على سماعه من فمك .. »

قال : « صدقت ... ولا يعرف لذة هذا اللفظ غير المحبين . وقد كفانا من حبنا المتباذل التمتع بهذا اللفظ لأننا مقيدان بعهود لا تجيز لنا ما وراءه ، ولو كتب لنا النصر وقطعنا هذا النهر لكان اجتماعنا أطول وملذاتنا أكبر .. على اننا لم تكن مع ذلك نأمن الفراق ونكد العيش ، والدنيا تأتى بالعجب العجاب .. أما الآن فاذا متنا متعانقين فكأننا عشنا الدهر معا ولم ينغص عيشنا فراق » ..

قالت : « عجل اذن ولا تطل بنا الوقوف لئلا يحدث ما يحرمنا هذه السعادة » . قالت ذلك ومدت يدها الى جيبها وأخرجت المحفظة ونظرت اليها لحظة ثم قبلتها وضمتها الى صدرها وبكت وهى تقول : « أماه .. يا أماه .. وا لهفى عليك ما كان أشقاك .. قضيت العمر فى التكتم والتستر والحذر .. ثم ذهبت قتيلة ذلك السر محافظة على عهد حبيبك واكراما لوصيته . ولو عرفت ذلك من قبل لاستغربت منك هذا التعلق..

وأما الآن فقد ذقت طعم الحب فلا ألومك ، بل أنا فاعلة مثل فعلك .. وها أنا ذا أتبع وصيتك » ثم أعادت المحفظة الى جيبها وهى تقول : « هذا سرك ذاهب معنا الى غياهب الأبدية »

وكان هانىء يسمع كلامها وهو يرقب حركات شفتيها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه . فلما فرغت من قولها أشار بعينيه الى جسمها الغض وقال لها : « أليس غبنا أن تذهب هذه الأعضاء طعاما لأسماك البحر ؟ »

فقطعت كلامه قائلة : « ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بنى الانسان .. عجل ياهانىء قبل أن يغلب علينا حب البقاء .. »

فمد يديه ومدت يديها ، وتخاصرا من جانب وتماسكا من الجانب الآخر .. ومشيا على الرمل حتى غرقت أقدامهما فى الماء فأحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الاخمصين . وكانا كلما انغمرا فى الماء ازدادا تعانقا وازدادا تجاذبا حتى أصبحا جسما واحدا ، وغطسا فى الماء وكل منهما يتلذذ بذكر اسم الآخر .. وبعد دقيقة بدا بعض الرأسين ، والشعر سابح على سطح الماء : ثم غطسا الى قاع النهر ولم يعد يعلم مصيرهما الا الله

أما جيش الافرنج فانهم أصبحوا فى اليوم التالى وهم يتوقعون هجوم العرب عليهم ، فرأوا الأرض قفرا والخيام خالية ، فاستولوا على ما كان باقيا فيها من الغنائم .. وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونه التاريخ ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

مصر للطيران

علم مصر فى كل مكان

أكثر من

٥٠

سنة خبرة

مصر للطيران

فى خدمتكم

أوربا - أفريقيا - آسيا

الجامبو ٧٤٧ - إيرباص - بوينج ٧٠٧ - بوينج ٧٣٧

Bibliotheca Alexandrina
0401360